جامعة تونس

كلية العلوم
الانسانية و الاجتماعية

قسم اللغة و الآداب
والحضارة العربية

الفترة البومدينية

(1965 / 1978)

في بعض مؤلفات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار

بحث لنيل شهادة الماجستير
في الحضارة المعاصرة

إعداد الطالبة:
زهرة بومعاق

إشراف الأستاذ:
محمد الناصر التفزاوي

السنة الجامعية :
2006 - 2005

الإهداء

إلى روح والدي ، رحل جسدا و خلد روحا،

إلى أمّي، نضال مستمرّ...

إلى من ملك الوجدان ،

إلى جميع أفراد عائلتي ،

إلى رفاقي ،

إلى كل من ساندني،

إلى عمالقة الفكر.

شكر خاص

إلى الأستاذ القدير محمد الناصر النفزاوي الذي
أفادني بنصائحه وتوجيهاته القيمة ،وتحمل معي
عناء خذا البحث ،ولولاه لما كان هذا العمل على
الهيأة التي هو عليها الآن.

التصدير

"إننا متشابهون يا شفروت ولا يمكن للواحد منا
أن يقتل صاحبه إلاّ خطأ"

محمد الناصر النفزاوي،المتشابهون،رواية،اللاذقية، دار الحوار،1987.

المقدمـــة

يدخل هذا البحث ضمن "الأدب السياسي" أي ضمن هذا الأدب الذي لا يتمكّن، على إصراره على توخي هذا النمط من التعبير، من التحرّر ولو جزئيا من ضغط الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي. وهل يوجد في بلاد المغرب أدب كانت هذه سمته الأساسية مثل الأدب الجزائري؟ إننا لا نعتقد ذلك لأن الثورة الجزائرية (**1954-1962**) اِمتازت عن بقية الحركات الاِستقلالية المغربية بسمتها الشعبوية[1] بل الريفية مما أضفى عليها هالة ستحكم عليها بعد الاستقلال أن تطرح بحدة مسألة مدى التقارب بين ما كان يجب أن يكون و ما هو كائن حقيقة فيختلف متناولوها بالدراسة اِختلاف اِختصاصاتهم (سياسيون اِقتصاديون اِديولوجيون) في تقييم مدى حيد صورة الثورة عما آلت إليه بعد الاستقلال. ونحن في هذا البحث نسعى إلى إضافة تناول آخر، وهو التناول الأدبي لشدة العلاقة،بين السياسي والأدبي فإلى أيّ حدّ يعدّ سعينا هذا سعيا مشروعا؟

كتب أحد الباحثين المراكشيين في إمكانية اِستغلال الأدب في إثراء البحث التاريخي السياسي: "ظهر في السنين الأخيرة اِتجاه جديد في الكتابة التاريخية ولاسيما بين المؤرخين الجامعيين، يذهب إلى اعتماد كل الوثائق

---

[1] الشعبوية (Le populisme):" هي شعبوية لأنها تستند إلى الشعب بالمعنى العامّي للكلمة لا بالمعنى الطبقي، فهي تتوجه إلى الشرائح الدنيا من المجتمع وإلى كل من كان في ضنك من العيش سواء أكان من العمال أم من المزارعين أم من أهل المدن أم من متساكني الأرياف من البروليتاريا الرثة أم من العامة ومن الخطأ ربطها بالصراع الطبقي المستعار من الواقع الأروبي. وهي تلقائية لأنها تعكس طموحات وآمال هذه الشرائح المستغلة الشاعرة بالهوان بشكل آلي وتلقائي دون مفاهيم نظرية، وهي عروبية إسلامية لأنها تركز على البعد العربي الإسلامي، لا الإسلام المناضل على طريقة الإخوان التي ظهرت في مصرسنة1928 وإنما هو الإسلام الشعبوي الذي هو أقرب إلى الطرق الصوفية.

وهي أخيرا تقدس الشعب لأنها تؤمن به على الطريقة الرومانسية الحالمة، فالشعب براء من كل ذنب أو شبهة أو خطأ، وجميع النقائص تعزى إلى قوى خارجية عنه أي إما إلى أفراد أو إلى القيادة أو إلى عدو يتربص شرا بهذا الشعب، فالشعب [بهذا المعنى] تقدميّ بطبعه."

مقتطف من محمد الحاجي، المسألة البربرية في"المغرب الأوسط"المعاصر، 1926-2002، إشراف الأستاذ محمد الناصرالنفزاوي، منوبة- كلية الآداب، 2002-2003، ص41.

المتنوعة لإعادة كتابة تاريخ المغرب، بعد أن كانت الكتابة في التاريخ تميل إلى اِعتماد الوثائق السياسية والحوليات فقط .وسار البحث التاريخي أشواطا في اِستثمار النصوص الأدبية المنقبية. غير أننا نود أن ننبه الباحثين إلى أنّ المادة التاريخية لا توجد في كتب المناقب فقط.إنها أيضا في كتب كدواوين الشعروالمقامات والروايات والسيرة الذاتية وما إليها. إنّ هذه المادة هي مادة مشتركة. هي نصوص أدبية، لكنها تختزن مادة تاريخية للمؤرخين أن يستفيدوا منها مثلما يفعل أهل الأدب والنقد والعلوم اللغوية، ثمّ أهل العلوم الإنسانية عامة."[1]

على أنه إن تأكدت وجاهة إمكانية اِستغلال الأدب والروائي منه خاصة فإن ما يمكن أن يحصل حوله إجماع يتمثل في أمرين:

أوّلهما هو أن الفترة البومدينية بقدر ما تعتبر في تاريخ الجزائر المعاصرة فترة مفصلية، فهي تعتبر كذلك الفترة الأكثر إثارة للجدل، لا في وسط الساسة الذين شاركوا، على" اِعتدالهم "، في الثورة مثل فرحات عباس[2] وحليفه محمد

---

[1] جعفر بن الحاج السلمي، النص الأدبي مصدرا من مصادر تاريخ تطوان. "رواية مازال طوف" للبيضاء بن الدهان، ضمن تطوان في عهد الحماية (1912-1956)، تطوان ، منشورات المجلس البلدي،1992، ص59.

[2] فرحلت عباس:ولد في تاهر عام 1899، ولع منذ صباه بالشؤون السياسية، درس الصيدلة، أسس الإتحاد الشعبي الجزائري عام 1938. سطع نجمه خاصة سنة 1943 عندما تحالف مع العلماء ومع حزب الشعب الجزائري للمطالبة ببرلمان جزائري لدولة مستقلة مرتبطة بفرنسا. في ماي 1946، أسس حزب الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. كان نخبويا في تصرفاته، انضم إلى جبهة التحرير عام1955 وأصبح عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية1956 وفي لجنة التنسيق والتنفيذ، ثم رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (1958-1961) تحالف مع بن بلة سنة1962 بعد أن أبعده بن خدة، وأصبح أول رئيس للجمعية الوطنية(1962)، لكنه استقال من منصبه (1963) اعتراضا على الطريقة التي تمت بها الموافقة على الدستور، حكم عليه بالإقامة الجبرية مرتين عام1963 في عهد بن بله وعام1976 في عهد بومدين يؤخذ عليه خاصة نفيه وجود وطن جزائري عام1936،و رغم ذلك تبقى مسيرته النضالية مسيرة غنية وثرية.

البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فحسب، ولكن كذلك في وسط خصومهم من السياسيين من "القادة التاريخيين" أمثال العروبي الإسلامي أحمد بن بلة[1] واليساريين محمد بوضياف[2] والحسين آيت أحمد . و ما يصدق على هؤلاء الساسة يصدق كذلك على الروائيين مثل ممثل "يسار الوسط"عبد الحميد بن هدوقة و ممثل "أقصى اليسار"الطاهر

استفدنا مما ورد في محمد حربي، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، ترجمة نجيب عياد وصالح المثلوثي، الدار البيضاء، دار الخطّابي، سنة 1988، ص177.

[1] أحمد بن بلة:"من الشائع أن بن بلة ولد يوم 25 ديسمبر 1918 في مغنية، وسط عائلة من صغار الفلاحين انضم إلى حزب الشعب بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح عام 1949 مسؤولا عن التنظيم وعن المنظمة الخاصة. اعتقل عام 1950 في قضية بريد وهران. وحكم عليه بالسجن المؤبد لكنه تمكن من الفرار من سجن البليدة (16 مارس 1952) رغم معارضة الحزب لذلك.التجأ إلى القاهرة و أصبح منذ نوفمبر 1954 أحد زعماء جبهة التحرير. تعرض بن بلة لعدة محاولات اغتيال، ثم اعتقل بعد اختطاف طائرته يوم 22 أكتوبر 1956. من السجن عارض بن بلة قادة الجبهة حول مسألة التحالفات وقضايا القيادة. كان عضوا في المجلس الوطني للثورة (1956-1962)و نائبا لرئيس الحكومة المؤقتة(1960).عام1962/61 وقف إلى جانب قيادة الجيش ضد الحكومة المؤقتة وأصبح أول رئيس للجمهورية الجزائرية. عام1965 انقلاب العقيد بومدين يطيح به. ويودعه السجن حيث يقضي 14سنة في عزلة شبه كاملة. الرئيس الشاذلي يطلق سراحه، لكنه يعود إلى نشاطه السياسي و يختار المنفى عام 1982.

محمد حربي، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، مرجع سلف ذكره، ص182.

[2] محمد بوضياف: "ولد بوضياف يوم 23 جوان 1919 في المسيلة في عائلة كبرى .بعد الحرب ترك الوظيفة العمومية، وضع نفسه في خدمة الحركة الوطنية. يناضل في صفوف حزب الشعب ويصبح مسؤولا عن المنظمة الخاصة في قسنطينة. كان عام1953–1954 العمود الفقري لتجمع أنصار الكفاح المسلح. اختطف مع بن بلة يوم22 أكتوبر 1956، وبقي عضوا في المجلس الوطني للثورة(1956–1962) عين وزيرا للدولة (1958) ثم نائبا لرئيس الحكومة المؤقتة(1961). عارض بشدة هيمنة الجيش وزعامة بن بلة، وأسس حزب الثورة الاشتراكية في سبتمبر 1962. اعتقل بوضياف يوم 21 جوان 1963 ثم أطلق سراحه. فيؤيد محاولة انقلاب العقيد الشعباني عام 1964.وهو مع آيت أحمد. من أوائل مؤسسي جبهة التحرير الذين تخلوا عن فكرة الحزب الواحد وطالبوا بتعدد الأحزاب."

محمد حربي، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، المرجع السابق نفسه، صص 182–183.

تم استدعاؤه من منفاه بالمغرب الأقصى بعد أن استقال الشاذلي بن جديد من الحكم، وعين قائدا للمجلس الأعلى للدولة سنة 1992 لكن تم اغتياله في نفس السنة في ولاية عنابة

وطار.فكيف يفسر المرء تلاقي هؤلاء الأخصام من ذوي الإتجاهات المختلفة بل المتناقضة في القسوة على الفترة البومدينية؟

إن هذا هو ما سنحاول التعرض له في مواضع مختلفة عند تناول بعض آثار ابن هدوقة ووطار بالدراسة.

أما الأمر الثاني الذي يمكن أن يحصل إجماع حوله فهو أن هذا الأدب الروائي على شموليته النقدية يميل إلى تغليب بعض وجوه النقد على أخرى نقصد بذلك أنه أقل ميلا إلى تناول القضايا الاقتصادية وأكثر تركيزا على السياسي (علاقة الدولة البومدينية بالمجتمع) والاجتماعي والثقافي(الصراع بين القيم التقليدية والحديثة) عند كل من ابن هدوقة ووطار وطرح القضية الأمازيغية والإسلامية عند وطار خاصة.

الطاهر وطار وأزراج عمر أمام ضريح كارل ماركس

بالنسبة إلى ابن هدوقة تظهر مسألة الهوية بشكل مجزء عندما يتناول مظاهر الصراع بين القيم التقليدية وما يبدو أنه قيم حديثة خاصة في وسط الطلبة، روايتا ("بان الصباح"و"ريح الجنوب") وأحيانا في صورة موقف إيديولوجي في "الجازية والدراويش" من خلال شخصية "الأحمر"ورؤيته التي

انتهت به إلى القتل. إن الملاحظة الأخيرة هي التي ستحكم طريقة تناولنا هذا البحث الأدبي السياسي، فلقد رأينا أنه لا بد بعد الفراغ من هذه المقدمة العامة، أن نقدم للروايات المتخيرة في هذه الدراسة أي "الجازية والدراويش" و"نهاية الأمس" لابن هدوقة. و"اللاز"و"العشق و"الموت في الزمن الحراشي" و"عرس بغل"، و"رمانة" للطاهر وطار بمدخل لن يكون بالضرورة موجزا لأنه يهدف إلى إلقاء صورة "بانورامية" على التيارات الفكرية السياسية في جزائر الثورة وجزائر الاستقلال (من ضمنها تيارا عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار)، تمكّن من النفاذ إلى حقيقة أزمة الاستقلال في الجزائر(وهي أزمة لا تختص بها الجزائر إذ نجد مثيلا لها في كل بلاد المغرب) التي ستجبر سنة 1988 في ظل نظام الشاذلي بن جديد[1] وبعد فوات الأوان على اختيار نهج التعددية السياسية،سبيلا جديدا إلى بناء الجزائرالمعاصرة وسنة 1991-1992، حكومةأحمد غزالي[2] والجيش وريث بومدين على إيقاف مسار الانتخابات التشريعية خوفا من نجاح الإسلاميين فيها، فتدخل البلاد في حرب أهلية ذهب ضحيتهاأكثر من مائة ألف قتيل حسب أضعف التقديرات، ولن يتمكن عبد

---

[1] الشاذلي بن جديد:(CHEDLI BEN DJEDID) ينحدر من عائلة ريفية ميسورة ضمت في صفوفها موظفين موالين للسلطة(قايدGaid) من سبعة Sbaa قرب عنابة، مستخدم في صناعة التبغ tabaco، انضم إلى المقاومة في أواخر 1955، عضو لجنة منطقة العمليات الشمالية (1960)،أوقف في 1962خلال أزمة الصيف من قبل قيادة الولاية الثانية، مسؤول عن الإقليم العسكري بقسنطينة (1963-1964)، ثم بوهران (1964-1979)، عضو مجلس الثورة (1965-1979)، رئيسا للجمهورية والأمين العام لجبهة التحرير الوطني (1979).

Mohamed Harbi :LeF.L.N, mariage et réalité,des origines à la prise du pouvoir (1945-1962), Paris, les éditions J.A. 2ème édition 1985 , pp422-423

[2] أحمد غزالي: بدأ موظفا بشركة "سونطراك" للمحروقات ثم مديرا لها، عين سفيرا لدى "البينيلوكس"، ثم وزيرا للطاقة فالمالية فالخارجية ثم عين رئيس وزراء بين1991 و1992 فكان أحد مهندسي وقف الإنتخابات النيابية. أسس"الجبهة الديمقراطية" سنة1999.

العزيز بوتفليقة[1] الذي تسلم الحكم سنة 1999 أي بعد ما يقارب العقد من الا قتتال الداخلي من أن يضع لها حدا وبشكل نهائي إلى حد كتابة هذه السطور ذلك أن هذه الحرب الأهلية ليست في رأي الروائي اليساري الطاهر وطار إلا نتيجة السياسة البومدينية في سبعينات القرن العشرين: "أعتبر أن السبعينات هي أصل البلاء و أن ما نعانيه الآن، إذا كان فعلا معاناة لأنني لا أعتبر أننا نعاني، أعتبر أن كل مآسي الجزائر الآن إرتدادات زلزالية.وأنا أنظر إليها بسخرية و ليس بتشاؤم. أنظر إليها نظرة فكرية عميقة. حتى عندما يبلغني أن هناك مائة ألف قتلوا آخذ هذا براحة. بل كما لو أن ما أتوقعه أكثر. كل هذا آخذه بفكر.أنا لست متشائما مما يقع الآن أنا أضع دائما الجزائر في الإطار الكوني "عرس بغل"[2] هي تنبؤ بما يحدث الآن، ليس فقط في الجزائر، حتى في الإتحاد السوفياتي سابقا."[3]

فمن دون هذا المدخل لن يتمكن المرء من النفاذ إلى ما يتضمنه القسمان اللذان يشكلان بما فيهما من فصول المادة الروائية أحسن نفاذ.

---

[1] عبد العزيز بوتفليقة:"ولد سنة1937،ناضل في صلب الاتحاد العام للطلبة المسلمين و انقطع عن التعليم لينضم إلى جيش التحرير الجزائري في وجدة.وهو صديق لبومدين و كلف في1960 بقيادة مجموعات نقل السلاح من الجنوب إلى الشمال، أصبح في1961 مقربا من بومدين مع كل من بلقاسم شريف و أحمد مدغري. أصبح الناطق باسم القيادة العامة لجيش التحرير عند اندلاع الصراع مع الحكومة المؤقتة و القيادة العسكرية.في نفس الوقت ربط الصلة بين بلة و ساهم في إيصاله إلى الحكم.عين نائبا في البرلمان عن تلمسان في1962،ثم وزيرا للشباب و الرياضة، ثم وزيرا للخارجية في 1963. تميزت علاقته بين بله بالتوتر و لعب دورا كبيرا في التحضير لانقلاب بومدين في19 جوان1965.إحتفظ بمنصب وزارة الخارجية في عهد بومدين، فوزيرا مستشارا لدى رئيس الجمهورية في عهد الشاذلي بن جديد و عاد إلى مسرح الأحداث رئيسا للدولة سنة1999."

انظر:عبد القادر العريبي، تونس و علاقاتها مع أقطار المغرب العربي (1947–1980) شهادة الدكتورا، تونس، كلية العلوم الإنسانية واللاجتماعية، فسم التاريخ 1999، ص60.

[2] "عرس بغل"، كتبت في 1975 ولم تنشر إلا سنة 1982.

[3] الطاهر وطار في حوار أجراه معه محمد بوزايدية وعابد شارف بعنوان "الطاهر وطار: الكاتب والتجربة، القدس العربية،العدد العاشر، 9أفريل ، 2002الحلقة الثانية.

لقد عنونا القسم الأول من هذا البحث بـــ "الثورة و الفترة البومدينية "في بعض آثار عبد الحميد بن هدوقة، وقد قصدنا بـــ"الثورة" الصورة المرجع لكل عمل سياسي يليها، وقصدنا بـــ"الفترة البومدينية" الواقع الجزائري في مدى قربه أو بعده من الثورة المثال.

وعنونا القسم الثاني بـــ"الثورة والفترة البومد ينية " في بعض آثار الطاهر وطار، وقصدنا بالثورة والفترة البومدينية ما فسرنا معناه قبل قليل أي ما يمكن أن تلخصه عبارة "الفترة البومدينية بين ما كان يجب أن يكون وما هو كائن" والعبارةالأخيرة توضح أكثر من عنوان البحث وأكثر من عنواني القسمين موضوع هذه الرسالة.

ولمزيد من الإيضاح والدقة في التخطيط، حصرنا الفصول الأربعة التي يتوزع عليها القسمان معا في المسائل التالية:

الفصل الأول: الثورة.

الفصل الثاني: المسألة السياسية.

الفصل الثالث: المسألة الاجتماعية.

الفصل الرابع: المسألة الثقافية.

وحرصنا على اِستغلال مختلف الآثار موضوع الدراسة اِستغلالا يراعي هذا التقسيم من ناحية والكرونولوجيا من ناحية ثانية إذ لم نر أنه يحق لنا أن نقدم أثرا لاحقا على أثر سالف.

مدخل

إن جبهة التحرير الجزائرية (ج.ت.ج) [F.L.N] التي قادت الكفاح المسلح ضد الاحتلال الفرنسي أثناء الثورة التحريرية (1954–1962) ، هي تجمع قوى سياسية ذات إيديولوجيات متعددة ومختلفة، توحدت حول مطلب واسع، بل فضفاض هو مطلب الاستقلال السياسي ولذلك "يختلف المفكرون السياسيون اِختلاف مواقعهم الاجتماعية والإيديولوجية في تحديد مكانة كل تيار من التيارات الفكرية السياسية في جزائر ما بعد الحرب العالمية الثانية (1945–1954) ودوره في ثورة 1 نوفمبر ونقصد بها التيارات التالية:

أولا:التيار الوطني "الشعبوي " على حد وصف محمد حربي أي التيار المصالي نسبة إلى مصالي الحاج (1898–1974) مؤسس نجم شمال إفريقيا (1926) في المهجر العمالي الجزائري القبائلي أساسا في فرنسا وقد تولد عنه سنة 1954:

أ–الشق المصالي الذي أخلص للرئيس من دون قيد أو شرط وأسس نهاية سنة1954 حركة التحرير الجزائرية (1954–1962) وقد اِستمرت الحرب الأهلية بين هذه الحركة وجبهة التحرير الجزائرية طيلة الحرب الفرنسية الجزائرية.

ب–الشق المنشق عن مصالي الحاج سنة 1954 والمسمّى بـــ"المركزيين" نسبة إلى اللجنة المركزية، الذي سيلتحق بجبهة التحرير الجزائرية سنة1955 ومن أشهر رموزه بن يوسف بن خدة[1] وسعد دحلب...

[1] بن يوسف بن خدة :"ولد في البليدة عام 1922.واِلتحق بحزب الشعب خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أصبح سكرتيره العام بعد مؤتمر أفريل1953 ، كان مع حسين الأحول من أبرز شخصيات المركزيين.

ج–الشق "المحايد" أي الذي وقف موقف من يريد إصلاح ذات البين بين الشقين سالفي الذكر وبادرت جماعة منه في 1 نوفمبر 1954 إلى إعلان الثورة أسوة بما كان يحدث في تونس والمغرب الأقصى في هذه الفترة وبعد إعلان منديس فرانس[1] عن عزم حكومته تمكين تونس من الاستقلال الداخلي، وأشهر من عرف من هذه الجماعة من يسمو ن "بالقادة التاريخيين" وهم في المهجر:

أحمد بن بلة (ولد1918) وهو من عسكريي فرنسا السابقين.

الحسين آيت أحمد (ولد بعين الحمام في القبائل الكبرى)[2]

إلتحق بجبهة التحرير عام1955 بعد أن تجاوزته الأحداث، وأصبح عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية(1956–1962)، وعضوا في لجنة التنسيق التنفيذ(1956–1957)،ثم وزيرا للشؤون الاجتماعية في سبتمبر1958، وأخيرا رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، أقصي من الساحة السياسية ابتداء من سنة1962،ولم يعد إليها إلا عام 1976 عندما وقع على البيان الذي يشجب نظام العقيد بومدين".

محمد حربي، سنوات المخاض، مرجع سلف ذكره، ص180.

[1] منديس فرانس:(1907-1982) Mendès France

[2] حسين آيت أحمد:" (1921–) سياسي ومناضل جزائري ولد بمنطقة القبايل الكبرى. ناضل في صفوف حزب الشعب الجزائري وهو ما يزال على مقاعد الدراسة الثانوية. دعا في مؤتمر الحزب الذي عقد في شباط–فبراير1947، إلى إنشاء منظمة سرية شبه عسكرية لمقاومة الفرنسيين، وقد أصبح بعد إنشائها من كبار زعمائها، وذاك قبل أن يبعد ليحل محله أحمد بن بلة لجأ إلى القاهرة عام1951 بعد أن أصدرت المحاكم الفرنسية حكمها الغيابي عليه بالسجن، وهناك أصبح الناطق الرسمي باسم "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" وكان من دعاة الكفاح المسلح. وبعد الشقاق الذي حدث في الحركة انضم إلى جبهة التحرير الوطني و كان أول سفير للثورة الجزائرية. أصبح بعد مؤتمر الصومام عام1956 عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية. اعتقل مع بن بلة ورفاقه عام1956 على إثر اختطاف السلطات الفرنسية للطائرة التي كانت تقلهم، وظل في الاعتقال حتى وقف إطلاق النار. عارض بشدة بن بلة وفرحات عباس وقيادة أركان جيش التحرير الوطني. انتخب نائبا في أول جمعية وطنية جزائرية بعد الاستقلال. شكل جبهة القوى الاشتراكية وقام بحركة مسلحة في منطقة القبائل، فاعتقل وحكم عليه بالإعدام. تمكن من الهرب من سجنه...من مؤلفاته "الحرب و ما بعد الحرب"1964."

عبد الوهاب الكيلاني، موسوعة السياسة،الجزء2،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1 1981 صص540–541.

محمد خيضر(قتل في مدريد سنة1967)[1]

محمد بوضياف(ولد1919، قتل في عنابة1992)وهو من عسكرييي فرنسا سابقا.

وفي الداخل الجزائري:

ديدوش مراد(قتل منذ 1955)[2]

رابح بيطاط (أعتقل منذ 1955)[3]

---

[1] محمد خيضر: (Mohamed Khider) من الجزائر لقب بالنائب خيضر، مناضل من المنظمة الخاصة (os) (1947–1950)نظم ماديا مؤتمر هورتو(1954) مسؤول المجموعات المصالية (1955–1956).

Mohamed Harbi,le FLN, mariage et réalité, op.cit, p404

[2] ديدوش مراد: مناضل من حزب الشعب الجزائري، عضو في المنظمة الخاصة (os) (1947–1950) مسؤول في إقليم عنابة. مساعد بوضياف في المنظمة بفرنسا (1952–1954) عين مؤسس ف.ج.ت.و (FLN) ومسؤول شمال قسنطينة. مات في ساحة المعركة في جانفي 1955. 403.
Mohamed Harbi,le FLN, mariage et réalité, p

[3] رابح بيطاط: عضو مؤسس للجنة الثورية للوحدة و العمل و القيادة التاريخية، من مواليد 19 ديسمبر 1925 بعين الكرمة بالشرق الجزائري، مناضل في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية وعضو في المنظمة السرية. حكم عليه غيابيا بالسجن لعشر سنوات بعد مشاركته في مهاجمة دار البريد بوهران. كان عضوا مؤسسا للجنة الثورية للوحدة والعمل. كان كذلك من بين مجموعة الإثني و عشرين (22) ومجموعة التسعة (9) قادة التاريخيين الذين أعطوا انطلاقات الثورة التحريرية. عين بعدها مسؤول عن منطقة الرابعة (الجزائر). و في 1955 اعتقلته السلطات الاستعمارية بعد الحكم عليه بالسجن المؤبد ليطلق سراحه بعد وقف إطلاق النار في مارس 1962. عيّن في 27 سبتمبر 1962 نائبا لرئيس مجلس أول حكومة جزائرية ليستقيل بعد ذلك بسنة. في 10 يوليو 1965، عين وزيرا للدولة. بعدها في سنة 1972 عين وزيرا مكلفا بالنقل. ترأس المجلس الشعبي الوطني في مارس 1977. و بعد وفاة الرئيس هواري بومدين في 28 ديسمبر 1978، تقلد بالنيابة رئاسة الجمهورية لمدة 45 يوما. قام برئاسة المجلس الشعبي الوطني لمدة أربع فترات تشريعية إلى أن قدم استقالته في 02 أكتوبر 1990. تم تقليده أعلى وسام في الدولة "صدر" بمناسبة الاحتفال بالذكرى السابعة والثلاثين لعيد الاستقلال في 05 يوليو 1999. توفي يوم 10 أبريل 2000.

العربي بن مهيدي (قتله المظليون الفرنسيون سنة 1957)[1]

كريم بلقاسم (1922 قرب تيزي وزو–قتل بألمانيا 1970)[2]

ثانيا:التيارالوطني الليبرالي المحافظ ممثلا في حزب"البيان ومؤسسه الصيدلي فرحات عباس(1899–1984) وأعضاؤه أمثال أحمد فرنسيس وأحمد بومنجل[3] والشيخ بيوض.

تمّ الرجوع إلى:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AE%D8%A7%D8%B5:Search"

[1] العربي بن مهيدي : ولد عام 1923 في عين مليلة (ناحية قسنطينة) في عائلة فلاحية متوسطة، ناضل في صفوف حزب الشعب وأصبح من كوادر تنظيمه المسلح سابقا جميع رفاقه على الساحة السياسية. اعتقل بعد مايو1945، واتهم في قضية المنظمة الخاصة(1950) وحكم عليه بعشر سنوات سجنا غيابيا. عضو مؤسس للجنة الثورية للوحدة والعمل ، و قائد منطقة وهران.يتخلى عن هذه القيادة لفائدة بوصوف بعد مؤتمر 20غشت 1956 الذي يعينه عضوا في القيادة العليا لجبهة التحرير:لجنة التنسيق والتنفيذ.في نزاع بن بلة مع القيادة الداخلية يقف بن مهيدي إلى جانب عبان رمضان و كريم بلقاسم. خلال معركة الجزائر العاصمة، أشرف بن مهيدي على نشاط المجموعات المسلحة، قوات الكلونيل بيجار تعتقله يوم 23 فيفري 1957، يستشهد بن مهيدي تحت التعذيب دون أن يدلي بأي إعتراف وينال إعجاب العدو بذلك.

مقتطف من محمد حربي، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، مرجع سلف ذكره،ص183.

[2] كريم بلقاسم:ولد عام 1922 في عائلة من أعيان الريف في منطقة ذراع الميزان، و إنخرط في صفوف حزب الشعب بعد1945، حيث قاد تمردا مسلحا في جبال القبائل حتى عام1947، وحكم عليه بالإعدام مرتين،إبتداء من فيفري/شباط1945، برز كريم بلقاسم بين المنادين بالكفاح المسلح، وإنفصل في أوت 1954، دون علم أنصاره. كان أحد مؤسسي جبهة التحرير وعضوا في قياداتها العليا حتى عام 1962، عين نائبا لرئيس الدولة ووزيرا للقوات المسلحة (في سبتمبر 1958) ثم وزيرا للشؤون الخارجية و وزيرا للداخلية(1961). كان من أبرز الموقعين على إتفاقيات إيفيان،أبعد عن الساحة السياسية بعد1962، و لكنه عاد إليها 1965.فاتهم بتدبير مؤامرة لاغتيال العقيد بومدين.و حكم عليه بالإعدام بعد خيانة بعض أقاربه له.بإيعاز من مخابرات نظام بومدين.لقي مصرعه مقتولا في أحد فنادق فرانكفورت عام1970. محمد حربي، سنوات المخاض ،مرجع سلف ذكره ، ص 184

[3] أحمد بومنجل:"أصله من القبائل، درس المحاماة في فرنسا. وكان زميل دراسة للهادي نويرة التونسي. ثم أصبح في ما بين(1938–1939) محاميا لمصالي الحاج، وبعدها قياديا من أصدقاء البيان و الحرية

ثالثا: التيا رالعروبي–الإسلامي ممثلا في بعض رموز جمعية العلمـــــــاء الجـــــزائريييـــــن (1931–1956) وخاصة منهم:

محمّد البشير الإبراهيمي (1889–1965)

و أحمد توفيق المدني (ولد بتونس 1899)

و الشيخ عباس بن الشيخ الحسين

رابعا: التيار المادي التاريخي ممثلا في الحزب الشيوعي الجزائري وفي بعض رموزه أمثال عمار أوزقان[1] و محمد البجاوي[2] و الحاج علي البشير

بين 1944 و1945 وبعدها في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري(1946–1954) وعضوا في قيادة جبهة التحرير الوطني في فرنسا سنة1957. ثم عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ما بين1957 و1962 ليصبح بعدها وزيرا للأشغال العامة في الحكومة الأولى للجزائر المستقلة(1962–1963). نظر:محمد حربي، جبهة التحريرالوطني، الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، ص332.

[1] عمار أوزقان: ولد في عائلة تنتمي إلى منطقة العزازقة(القبائل الكبرى) بمدينة الجزائر. بدأ يمارس نشاطه السياسي منذ العشرينات وهو موظف بالبريد، وشغل عدة مناصب نقابية. التحق بالحزب الشيوعي الجزائري، وأصبح بهذه الصفة كاتبا للمؤتمر الجزائري. انتخب سكرتيرا للحزب الشيوعي الجزائري، عام1943، ولكنه طرد من الحزب سنة1948. كان أوزقان من دعاة مجتمع متعدد الأجناس ومن رواد تحرير المرأة. غير أنه تقرب من جمعية العلماء وساهم في تحرير جريدة "الشباب المسلم" التي كان يسيرها أحمد طالب الإبراهيمي. التحق عام 1955 بجبهة التحرير، وكان المحرر الأساسي لبرنامج الجبهة المعروف بأرضية الصومام. اعتقل في يناير1958. وأصبح وزيرا للزراعة عام1962–1963، ثم وزيرا للسياحة ومديرا لمجلة "الثورة الإفريقية" (1964–1965) ثم بعد معارضة وجيزة للعقيد بومدين، ينسحب أوزقان من الساحة السياسية.

لقد ترك انتماؤه للحزب الشيوعي تأثيرا كبيرا على الجماهير، وأعمق من تأثير سلفه بن علي بوخرط وخلفه العربي البوهالي. كان خطيبا، فصيحا، وصاحب سجال، وتحمل كل أخطاء حزبه، وعلى الخصوص موقفه من أحداث1945. ومع ذلك فقد كان يبعد كل البعد عن الامتثالية، وكان بحكم جذوره الشعبية و إغرامه بالتاريخ والثقافة العربية الإسلامية من أفضل الرجال القادرين على غرس الشيوعية محمد حربي ، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض ، مرجع سلف ذكره، ص178.

[2] محمد البجاوي: من مواليد الجزائر سنة 1926 ،وهو عضو مجلس وطني للثورة الجزائرية، مسؤول من جبهة التحرير عن الحركة النقابية في الثورة الجزائرية، وأول مسؤول عن الاتحاد الثوري في فرنسا بعد انطلاق الثورة كان ضمن طليعة المعتقلين في سجون فرنسا لمدة خمس سنوات.

انظر محمد البجاوي، حقائق عن الثورة الجزائرية، الجزائر دار الفكر الحر 1971.

والطبيب هجرس[1] الذي سيصبح بعد حل بن بلة هذا الحزب و تأسيس خليفته "حزب الطليعة الإشتراكي –باقس–"السكرتير الأول للحزب الجديد."[2]

إن ما تقدم يفسّر إلى حد كبير أنه ما أن حصلت الجزائرعلى إستقلالها سنة 1962 حتى طفا على السطح السؤال الكبير: أي جزائر جديدة نبني سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا وثقافيا؟.

إن دعاة الديمقراطية اليوم، يدعون أنه كان يمكن إيجاد إجماع أو شبه إجماع حول هذه المسائل لو وقع إختيار نظام ديمقراطي يعبر عن قاسم مشترك بين التيارات الفكرية السياسية التي ذكرنا. أما نحن فنكتفي بتقرير ما حدث وهو أن البنبلية البومدينية إنفردت بالسلطة وفرضت نظرتها إلى ما يجب

---

[1] صادق هجرس: ولد بفورت ناسيونال (أربعاء ناث إيراثن) بالقبائل الكبرى سنة1928 وهو ابن المدرس. زاول تعليمه الابتدائي في مدارس مختلفة. صار في أكتوبر1944 عضوا بحزب الشعب الجزائري وهي الفترة التي دخل فيها إلى معهد بن عكنون. وكان من ضمن خلية طلبة البربر–الوطنيين. باشر منذ سنة1946 دروسا في الصيدلة بكلية الجزائر حتى سنة 1953. في 1948 صار مسؤولا عن الفرع الطلابي لحزب الشعب الجزائري / حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ثم رئيسا لجمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية (A.E.M.A.N) سنة 1949– 1950.في سنة 1949، خلال الأزمة البربرية، كان من ضمن هيئة تحرير صحيفة "L'Algerie libre vivra" وطالب بعقد مؤتمر لمناقشة أسباب الأزمة. غادر حزب الشعب الجزائري / حركة انتصار الحريات الديمقراطية في خريف 1949 بعد أن عبرت قيادة الحزب عن رفضها مقترحه. انضم في نهاية 1950 إلى الحزب الشيوعي الجزائري، مسؤولا وطنيا مساعدا لـــ" مناضلي التحرير"(Combattants de la liberatio) بعد الاستقلال اضطر إلى العيش سرا بعد الانقلاب العسكري (19 جوان 1965) لبومدين. من مؤسسي حزب الطليعة الاشتراكي Partie de l'avant- garde socialiste في جانفي 1966 حيث كان السكرتير الأول من 1969 إلى 1990.

محمد الحاجي، المسألة البربرية في "المغرب الأوسط" ... مرجع سلف ذكره، ص227.

[2] من درس عام ألقاه الأستاذ محمد الناصر النفزاوي على طلبة المرحلة الثالثة في كلية الأداب بمنوبة 2002–2003، بعنوان الثورة الجزائرية عند مختلف التيارات الفكرية السياسية الجزائرية

أن تكون عليه الجزائر المستقلة، وعندما نقول نظرة فإننا نعني مختلف جوانب الحياة(vision du monde) مما تسبب في فرقة حلفاء الأمس. فظهرت كتابات معارضة لا تكتفي بتعداد مآخذها على البومدينية خاصة، بل تتجاوز ذلك إلى إعادة ترتيب أدوار كل تيار من هذه التيارات في الثورة الجزائرية نفسها فـــ " لا أحد من هذه التيارات الفكرية السياسية التي تختلف عن بعضها البعض سواء في تصور علاقة الدولـــة بالمجتمع أو في تحديد هوية الجـــزائر (هل هي عربية إسلامية/هل هي عروبية إسلامية/هل هي مغربية بل هي أمازيغية) ومن ثم تحديد علاقاتها المثلى دوليا (هل هي متوسطية مثلما يقول بذلك فرحات عباس تماما مثل الحبيب بورقيبة التونسي أم عربية مثلما يقول بذلك كل من محمد خيضر وأحد بن بلة أم هي جزائرية أمازيغية مثلما يقول بذلك الحسين آيت أحمد أم هل هي عروبية إسلامية مثلما يقول بذلك محمد البشير الإبراهيمي...). لا أحد قلنا يقر لغيره من التيارات الأخرى بالتأثير الحاسم في هذه الثورة التي قتل فيها من الفرنسيين 27000 ومن الجزائريين... ما يفوق المليون نسمة حسب أغلب المصادر الجزائرية "[1].

لقد كان طموحنا في البداية أن نتناول مواقف مجمل هذه التيارات من الفترة البومدينيةمثلما عبّر عنها المنتمون إليها من الروائيين ولكن سعة الموضوع وضرورة انضباطه إلى مقاييس رسالة الماجستير فرضا علينا أن نحصر القضية في: تيار أول مثله عبد الحميد بن هدوقة ويمكن أن يوصف بالتيار التاريخي العقلاني أو الإصلاحي أو تيار "يسار الوسط ". وتيار ثان واضح السمات، هو التيار الشيوعي الذي مثله الطاهر وطار مما يضطرنا إلى التعرض لحياة كل واحد من هذين الروائيين وتفكيره السياسي والاجتماعي وإن بإيجاز فيما يتعلق بابن هدوقة وبتوسع أكثر فيما يتعلق بوطار.

[1] محمد الناصر النفزاوي، الدرس العام سالف الذكر.

ولد عبد الحميد بن هدوقة عام 1925 في بلدة المنصورة التابعة لولاية سطيف في عائلة عربية قال عنها في حوار معه أحد الباحثين التونسيين المختصين في الرواية الجزائرية العربية: " تربيت في أسرة عربية إسلامية متدينة ومثقفة. زاولت أغلب دراساتي في الفنون الأدبية التقليدية والعلوم الشرعية على والدي الذي كان حافزي على التحصيل والعلم."[1] بل إن رب هذه العائلة كان نفورا من تعليم ابنه الفرنسية ذلك " [أنني] التحقت بالمدرسة الابتدائية بالمنصورة فتابعت دروس تعليمها باللغة الفرنسية حتى نهايتها. ولكن والدي لم يكن راضيا على التحاقي بهذه المدرسة التي أرغمني على دخولها أخوالي. وبعدها انتسبت إلى المدرسة الكتانية بقسنطينة وإرضاء لوالدي قصدت الزيتونة بتونس."[2]

إن الفترة الدراسية الأولى التونسية في حياة عبد الحميد بن هدوقة تزامن فترة الحرب العالمية الثانية ويمكن أن نبدي حولها الملاحظات التالية:

أولا:أنها قريبة من سنة ولادة الطاهر وطار.

ثانيا:أنها نأت بابن هدوقة عن مقاسمة سكان الشرق الجزائري أحداث 8 ماي 1945 الدامية.

ثالثا: أن ابن هدوقة كان ينشط فيها سياسيا بوصفه"ممثلا لحزب أنصار الديمقراطية أي

بعبارة أوضح للحركة من أجل اِنتصار الحريات الديمقراطية :

Mouvement pour le triomphe des libertés démocratiques (M.T.L.D).

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية: ...، مرجع سلف ذكره، ص31.

[2] بوشوشة بن جمعة، المرجع السابق نفسه،ص31.

أي هذه الحركة التي كان يتزعمها أحمد مصالي الحاج بعد أن حلت السلطات الفرنسية حزب الشعب الجزائري، وكانت لا تضعف مقاومتها سواء للشيوعيين أو المركزيين بزعامة فرحات عباس أو لجمعية العلماء المسلمين برئاسة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

رابعا: أنها مكنت عبد الحميد بن هدوقة، نظرا إلى إزدواج تكوينه العربي الفرنسي من الإنفتاح على الوسط التونسي المثقف و غير الزيتوني المتحرر نسبيا إزاء المرأة وهو الوسط المسرحي "أثناء إقامتي بتونس إلتحقت كذلك بمدرسة التمثيل العربي و تعلمت على أيدي الأساتذة: الطاهر قيقة وعبد العزيز العقربي وحسين الزمرلي وعثمان الكعاك."[1]

إن هذا التكوين المزدوج في العربية و الفرنسية سيمكنه في جوان 1945 أي بعد شهر واحد من أحداث الشرق الجزائري(8 ماي 1945) من الهجرة إلى فرنسا " فنزلت بمرسيليا بنية عدم العودة. دخلت إلى معهد مهني ونجحت بإمتياز، ثم اشتغلت بمعمل لتحويل المواد البلاستيكية."[2]

[طيلة أربع سنوات 1945- 1949] لا يحدثنا ابن هدوقة عن هذه السنوات الأربع التي قضاها في المهجر الفرنسي على الرغم من أنها تعد حاسمة في تطور الحركة الاستقلالية الجزائرية عموما وفي ظهور عديد الانقسامات في حزب الشعب الجزائري/الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية الذي ينتمي إليه من ناحية ثانية. و فعلا فإن أعضاء هذا الحزب بدؤوا منذ أحداث الشرق الجزائري الدامية وخاصة منذ1947 يتوزعون إلى ثلاثة أجنحة:

الجناح المصالي المخلص للرئيس المؤسس.

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية: ...، مرجع سلف ذكره، ص31.

[2] بوشوشة بن جمعة،المرجع السابق نفسه، ص32.

والجناح الذي يتحفظ إزاء "هيمنة" الرئيس المؤسس هيمنة تامة على الحزب، وسيسمى باللامركزيين عندما ستحدث القطيعة النهائية بينهما سنة 1954.

أما الجناح الثالث فهو الجناح الذي يدور في مدار"المنظمة الخاصة"(1947) وسينتهي به الأمر في نوفمبر 1954 بمفاجأة الجميع بإعلان الثورة بعد فشله في التوفيق بينهما من ناحية وإيمانه من ناحية ثانية أن الجزائر لا يجب أن تتأخر عن تونس والمغرب الأقصى في إعلان الثورة مخالفا بذلك رأي المصاليين والمركزيين وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومفاده أن الجزائر ليست مؤهلة إذاك للقيام بمثل هذه الثورة وأشهر من اِحتفظ التاريخ الرسمي بأسمائهم ممثلين لهذا الإتجاه "القادة التاريخيون". فما هو التيار الذي كان يناصره عبد الحميد بن هدوقة في هذه الفترة الحاسمة؟

إن هذا التيار لا يمكن، حسب اجتهادنا، أن يكون الأول أو الثالث و دليلنا على ذلك أن عبد الحميد بن هدوقة سيسعى إلى الحصول على الجنسية الفرنسية فيحصل عليها. يتحدث عبد الحميد بن هدوقة عن مجمل ما ذكرنا وعن غيره إلى حدود 1962 سنة استقلال الجزائر وعودته إليها على النحو التالي:

" في غضون سنة1949 عدت إلى تونس. وعند اندلاع أحداث 18 جانفي 1952 [يقصد سياسة دي هوتكلوك التي لم تفرق بين محمد الصالح مزالي والحبيب بورقيبة والشيوعي الوطني التونسي محمد النافع] ألقي علي القبض من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية على إثر مظاهرة نسائية فنقلونا إلى سجن المحمدية. ثم تمكنت من الفرارو العودة إلى الجزائر سنة 1954 ولما عدت إلى الجزائر وجدت صراعات في جبهة التحرير الوطني

الجزائري[1] فاشتغلت بالتدريس بقسنطينة. وعند اندلاع حرب التحرير أخبرت يوما أنه سيلقى علي القبض فالتحقت في يوم 5 نوفمبر1955 بقرية الحمراء(.....) ثم قصدت فرنسا ثانية واشتغلت في معمل للبلاستيك(.....) ثم دخلت متربصا [من] 1956 إلى1958 بالإذاعة الفرنسية[ثم تقرر تجنيدي و لكن] الشاذلي القليبي، مدير الإذاعة التونسية آنذاك طلب إلحاقي للعمل بالإذاعة."[2]

إلى هذه الفترة الواقعة بين 1958و1962 ترقى دراسته "الجزائر بين الأمس واليوم"(تونس 1958 وقصتاه "ظلال جزائرية"(بيروت دار الحياة 1960) و"الأشعة السبعة"(تونس، 1962) وهذا الإنتاج لن نتناوله بالدراسة هنا لأنه ضعيف الصلة بموضوعنا.

و بعد أن عاد ابن هدوقة إلى الجزائر سنة 1962 واصل نشاطه الإذاعي والتلفزي فيها إذ عين وهو في السابعة والثلاثين من العمر(1962) منتجا ومشرفا على البرامج لفترة طويلة تمتد من 1962 إلى1989 (27 سنة) وهي فترة شهدت حكم رؤساء جزائريين ثلاثة: أحمد بن بلة (1962-1965)، والهواري بومدين (1965-1978)، والشاذلي بن جديد(1979-1991) وظهرت فيها قضايا خلافية كادت تعصف حتى بوحدة الجزائر. فما هي مؤلفات ابن هدوقة في هذه الفترة؟ وماذا كانت عليه مواقفه من الفترة البومدينية خاصة؟

ألف ابن هدوقة في هذه الفترة قصيدة النثر"الأرواح الشاغرة" (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1967) وفي القصة "الكاتب وقصص أخرى" (الجزائر1974) ولن نهتم بهذين الأثرين في بحثنا لأن الروايات

[1] هي صرا عات المصاليين و المركزيين و قدماء المنظمة الخاصة.

[2] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية...، مرجع سلف ذكره،ص33

الخمس اللاحقة تفي بالغرض من ناحية و لأن نظرة الكاتب السياسية لا تبدو فيهما واضحة بما فيه الكفاية.

هذه الروايات الخمس التي ظهرت بين1971 و 1991(أي على امتداد عشرين سنة) هي "ريح الجنوب"(1971) و"نهاية الأمس" و "بان الصبح"(1980) و"الجازية والدراويش(1983) و"غدا يوم جديد"(بيروت، دار الآداب، 1991)، الثلاث الأولى منها تكاد تخلو من المواقف السياسية الصريحة ويطغى عليها الوصف الاجتماعي حتى لكأن ابن هدوقة يبدو فيها أنتروبولوجيا في بلده وهو يصف مذهبه هذا بالواقعي:

" أحاول أن آخذ من الواقع جزئيات متأزمة أبني منها واقعا فنيا لا يختلف عن الواقع المعيش (...) أقوم بصياغة شخصيات تأليفية فأحدد مميزاتها الأساسية ريفية أو مدينية، أتخيل لباسها، ملامحها، بشرتها، طبقاتها. ثم أخص كلا منها بجذاذة فنية أضمنها سلوكها، تعاملها وعوائدها. بعدها أبحث عن نوع العلاقات بين مختلف الشخصيات حتى تكون منطقية أخلق الصراعات والروابط. ثم أقوم بخطة العمل الروائي."[1]

هذا التصور الروائي والالتزام به لا يتركان بابا مفتوحا تتسرب منه المواقف الإديولوجية الخاصة ولذلك نرى أن عبد الحميد بن هدوقة يؤكد عند الحديث عن رواياته على أنها تندرج ضمن "صراع الذهنيات" ذهنية المدينة والريف وذهنية الرجل والمرأة، وفقر المجتمع الجزائري "الذهني". وبما أن الذهنيات تتشكل طيلة فترات طويلة فإن إدعاء إمكانية تغييرها بسرعة هو من ضروب الجهل بحقيقة المجتمع. إن هذا هو ما يمكن أن نسميه نحن، بالمذهب الإصلاحي الذي ينفر من الإيديولوجيات التي يقول الآخذون بها، مثل الروائي

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية...، مرجع سلف ذكره، ص39.

الشيوعي الطاهر وطار، بضرورة التغيير الراديكالي السريع ويلخص ابن هدوقة ما أسلفنا على النحو التالي:

" الإنسان قبل أن يولد فهو موجود مثلما يقول سارتر. كيف يمكن التخلص من الماضي؟ كل إنسان يحمل الماضي في ذاته الفردية والجماعية (...) وإذا كان لامجال للتخلص من الماضي فنحن مطالبون بعيش الماضي برؤية عقلانية."[1]

هذا الإيغال في "الواقعية" حسب ابن هدوقة و"الإصلاحية" حسب ما نذهب إليه لم يمكن الروائي من أن يبدي مواقفه السياسية، ولأول مرة، إلا في "الجازية والدراويش "(1983) وذلك بعد موت هواري بومدين عن سن ناهزت الحادية والخمسين (إذا كان قد ولد حقا سنة 1927) وتولي الشاذلي بن جديد الحكم واِشتداد النزاع بين المؤسسة الحزبية العسكرية وقوى المعارضة (المؤسسة الأمازيغية) التي اِنتهت بإعلان التعددية السياسية في مرحلة أولى (1988) وبالأحداث الدامية طيلة عشرية تسعينات القرن العشرين.

وحتى هذه المواقف السياسية لم يتمكن ابن هدوقة من التعبير عنها إلا عن طريق الرمز:

" ترمز الجازية إلى الجزائر. أردت أن أذهب بأسطورة الجازية إلى بعد فنّيّ وسياسيّ من خلال الجازية الروائية. أردت أن أعطيها قاعدة مادية وجدت بالفعل وهي الجازية الشخصية السياسية رمز الجزائر القاصرة. هذا الشعب الذي لا يستشار وهذا الحكم غير الدستوري الذي يترك شعبا كاملا في حالة قصور قانوني ليتصرف في أمره لأنه ليس في مستوى مسؤوليته. أردت أن أكذب كلام قارئة الكف وأقول: ليس صحيحا، الشعب ليس قاصرا."[2]

---

[1] بوشوشة بن جمعة ،المرجع السابق نفسه ، ص44.

وحتى هذا الحكم على الفترة البومدينية الذي يبدو قاسيا نجد عند ابن هدوقة ما يلطفه مخالفا بذلك وطار مخالفة صريحة.

ولد الطاهر وطار في 15 أوت سنة 1939، أي قبل اِندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل، في مدينة صدراتة بولاية سوق أهراس، في أقصى الشرق الجزائري الذي يختلط سكانه بسكان الشمال الغربي التونسي تاريخا ونسبا و"وجدانا" مما يفسر عبارة وطار "الوجدان التونسي الجزائري" قاصدا من ذلك الوجدان الريفي الذي لا يكف عن امتداحه لا الوجدان المديني، إن كان للمدينة وجدان. و عندما يتحدث المرء عن الشرق الجزائري و التعليم فيه، فلا بد من أن يستحضر عاصمة هذا الشرق، أي قسنطينة، و دور العلماء المسلمين الجزائريين في نشر التعليم العربي الإسلامي في هذه المنطقة خاصة، و ذلك منذ تأسيسها سنة 1931 برئاسة عبد الحميد بن باديس، التي خلفه في رئاستها عند موته سنة 1940 الشيخ محمد البشيرالإبراهيمي.

إن هذا هو ما يفسر إلحاق عائلة وطار اِبنها ببعض المدارس الابتدائية التابعة لهذه الجمعية، في فترة حالكة في تاريخ الجزائر عامة، و الشرق الجزائري خاصة وهي الفترة التي عقبت أحداث 8 ماي 1945[1] التي دفعت

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية:...، مرجع سلف ذكره، ص48.

[1] أحداث 8 ماي 1945: بعد الحرب العالمية الثانية تدهورت الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية في الجزائر أدت إلى اندلاع أحداث 8 ماي1945 التي"تمثل منعرجا حاسما في مسيرة الحركة الوطنية الجزائري الحديثة" رفعت فيها شعارات المناداة بالاستقلال وإطلاق سراح مصالي الحاج، شملت المظاهرات مدن الجزائر وقسنطينة وخراطة والعلمة وقالمة وخنشلة وبسكرة والقيل وجيجل... تحولت إلى أعمال عنف ومناوشات بين المتظاهرين والعناصر الأروبية، شارك في المظاهرات حوالي 50 ألف شخص حسب معلومات الإدارة الفرنسية قتل فيها حوالي 45 ألف جزائري نتيجة لعمليات الإبادة الجماعية وقد صاحب ذلك اعتقالات جماعية في صفوف الحركة الوطنية الجزائرية استمرت إلى غاية شهر نوفمبر 1945.

بأعداد متزايدة من التلاميذ، ومنهم وطار، إلى التوجه إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة.

ولكن نشاطه هنا سيتوزع طيلة الخمسينات وحتى اِستقلال الجزائر سنة1962، أولا على النشاط الصحفي في جرائد تونسية، مثل اللواء،(ظهرت 1949-1950) والصباح (ظهرت في 1951)، والأخبار (ظهرت في 1953)، ولواء البرلمان (ظهرت 1956-1957). ثم بعد تغلب الشق الدستوري البورقيبي على الشق الدستوري اليوسفي و حصوله على الإستقلال ومن ثم اِحتجاب عدد كبيرمن الصحف التونسية، على النشاط الأدبي الصرف إذ سيشتغل في الشركة التونسية للتوزيع مكلفا بجمع الكتابات الأدبية التونسية من مجلات تونسية شهيرة خرجت أقلاما مازالت تحظى إلى اليوم بحظوة خاصة في المنظومة التعليمية الرسمية التونسية، من هذه الدوريات نذكرمجلة "العالم الأدبي"(1936) و"المباحث" (1944-1947) و"الندوة"(1953-1957).

وهكذا تمكن وطار من جمع رواية "حدث أبو هريرة قال " لمحمود المسعدي[1] وكتـــــابات "علي الدوعاجي"[1] وكتابات محمد بيرم التونسي

انظر، ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية،بيروت، دار الغرب الإسلامي، الط 1 ،2000 ص 305.

[1] محمود المسعدي: (1915 - 16 ديسمبر 2005) كاتب ومفكر تونسي. ولد في قرية " تازركة " من أعيان ولاية نابل بتونس. وبدأ تعليمه في كتّاب القرية حيث أتم حفظ القرآن قبل أن يبدأ مرحلة التعليم الابتدائي في العاصمة. ثم أتم الدراسة الثانوية في المعهد الصادقي عام 1933. وفي العام نفسه، التحق بكلية الآداب بجامعة السوربون ليدرس اللغة العربية وآدابها. وتخرج منها عام 1936، وشرع في إعداد رسالته الأولى " مدرسة أبي نواس الشعرية "، ورسالته الثانية حول " الإيقاع في السجع العربي "، إلا أن الحرب العالمية الثانية قد حالت دون إتمامهما. ونشرت الثانية، لاحقا، بالعربية والفرنسية. وقام المسعدي بالتدريس الجامعي في كل من تونس وفرنسا.وإلى جانب التدريس الجامعي، انخرط المسعدي في السياسة، حيث تولى مسؤولية شؤون التعليم في حركة الإستقلال الوطني التي التحق بها مناضلا ضد الإستعمار الفرنسي، كما لعب دورا قياديا في العمل النقابي للمعلمين.بعد الاستقلال عام 1956، تولى المسعدي وزارة التربية القومية، وحيث أسس الجامعة التونسية. وقبلها، كان قد تمكن من إقرار مجانية

ومؤلفات الطاهر الخميري وكذلك محجوب بن ميلاد، فأفاد بذلك أيما إفادة المكتبة الأدبية التونسية. واستفاد هو من هذا الجهد بالانتقال، وهو العصامي، من عالم أدبي تقليدي إلى عالم أدبي حديث بدأت تظهر ملامحه الأولى في مؤلفاته في المهجر التونسي مثل مسرحية "على الضفة الأخرى" (1958) ومسرحية "الهارب" (1960) و مثل قصته القصيرة"دخان من قلبي"(1962) وكل ما ذكرنا من هذه المؤلفات لم يتحرر بعد من الشكل الكلاسيكي و ذلك على الرغم من أن وطار يصر على أنه كان في هذه الفترة على إلمام بالأدب الميثولوجي الإغريقي "وأنا في الخمسينات عندما كنت في تونس كنت مطلعا على الملاحم الإغريقية وهي منعكسة عند شكسبير في الكثير من أعماله. "[2]

التعليم لكل طفل تونسي. وفي 1976، تولى المسعدي وزارة الشؤون الثقافية. وبالإضافة إلى تلك المسؤوليات، كان للكاتب نشاط وافر في منظمتي اليونسكو و الأليكسو و مجمع اللغة العربية في الأردن. وكذلك أشرف على مجلة " المباحث " عام 1944، ثم على مجلة "الحياة الثقافية" عام 1975.كتب المسعدي أعماله الهامة بين العامين 1939 و 1947. وتكشف هذه الأعمال عن تأثير القرآن على تكوينه الفكري والعقائدي وعلى أسلوبه. كما تتم أعماله عن إحاطته بأعمال المفكرين المسلمين في مختلف العصور، وبالأدب العربي القديم التي بدأ اهتمامه بها منذ مرحلة دراسته الثانوية، بالإضافة إلى اطلاعه الواسع العميق على الآداب الفرنسية خاصة والغربية عامة. أهم أعمال المسعدي:"حدّث أبو هريرة قال" (1939، وطبع العمل كاملا عام 1973)، "السد" (1940، وطبع العمل كاملا عام 1955)، "مولد النسيان" التي نشرت للمرة الأولى عام 1945، وترجمت إلى الفرنسية (1993) والهولندية (1995). «تأصيلا لكيان" الذي جمع فيه شتات كتاباته الأدبية والفكرية طوال حياته.

http://ar.wikipedia.org/wiki/D8%AF%D9%8A"

[1] علي الدّوعاجي:(تونس، 1909–1949) ولد علي الدوعاجي بحاضرة تونس. كانت أسرته تنتمي للطبقة المتوسطة، وقد تعلم العربية والفرنسية في المدرسة الابتدائية. بفضل تكوينه العصامي، أبدع الدوعاجي في كتابة الأزجال والأقاصيص.

http://www.bibliotheque.nat.tn/Monog/Jawla/Notice01.htm

[2] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مرجع سلف ذكره، الحلقة 2.

هذه هي الفترة التونسية من حياة وطار و نشاطه الصحفي و الأدبي إلى حدود 1962، سنة عودته إلى الجزائر، بعد إعلان الاستقلال وهو في سن الثالثة والعشرين، فماذا كان عليه تفكيره السياسي والاجتماعي في هذه السن؟ ولن تعيننا الكتابات الأكاديمية حول وطار في الإجابة عن هذا السؤال و إليك مثالا عنها: "وقد سمح له انتماؤه الإيديولوجي إلى الفكر الاشتراكي بإضفاء طابع الالتزام على تجربته الروائية، فضلا عن كون نضاله في صفوف جبهة التحريرالوطني الجزائري، مكنته من الكتابة عنها من الداخل و اتخاذها التيمة الأساسية لعالمه الروائي. فكان من الأوائل الذين نقدوا ثورة التحرير سواء في صراعاتها وخلافاتها في مرحلة الاستعمار أو في تناقضاتها في مرحلة الاستقلال و بناء الجزائر الديمقراطية وفق مبادئ النموذج الاشتراكي ومنظوراته.»[1]

فما علينا إذا إلا أن نتناول بعض ما يفيد في مؤلفاته (وهو يورد ذلك عن لا وعي) ما كان عليه تفكيره السياسي والاجتماعي في هذه الفترة أي قبل 1962 مما يعني أنه لم يتبن الشيوعية مذهبا ولا كان متمكنا على مستوى البناء الروائي من النظرية الواقعية الاشتراكية. فما سيصير إليه وطار إنما كان بعد 1962 عند عودته إلى الجزائر المستقلة التي كانت تتنازعها من ناحية النظرية المادية التاريخية ممثلة في من كانوا يحيطون ببن بلة من هؤلاء الذين حلوا بالجزائر من كل حدب وصوب وكانوا آخذين بنظريات أقصى اليسار فرانز فانون.[2]

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية ...، مرجع سلف ذكره، ص16.

[2] فرانز فانون (Franz Fanon) (1921-1962) مفكر وطبيب نفساني من أصل مارتينيكي ربط بفضل اشتغاله طبيبا بمستشفيات الجزائر ثم بمستشفى الأمراض العقلية بتونس، علاقات وطيدة مع بعض قادة الجبهة المتواجدين في تونس في تلك الفترة. وسرعان ماتطورت العلاقة التي ربطته بالجزائريين ليصبح في الأخير، مناضلا في صفوف الثورة الجزائرية وليجد في جريدة "المجاهد" الوسيلة التي مكنته من إبراز فلسفته (وهي حرب على الإمبريالية الغربية من ناحية وتغنيا صافيا بطبقة الفلاحين، أي

ويتنازعها من ناحية ثانية هؤلاء الذين اِلتفوا حول وزيره للدفاع الهواري بومدين والذين كانوا يبدون تحفظا إزاء كل نظرية "غير جزائرية" أي مستوردة حسب الصفة التي كان يصف بها أقرانهم البورقيبيون التونسيون والمحافظون الإستقلاليون المراكشيون خصومهم من اليساريين.

لقد كان على وطار أن يعمق تكوينه في النظرية المادية من ناحية وأن يختار إلى أي شق ينتمي فاختار أن يكون وسطا أو وسيطا بين هذين التيارين المتناكرين من دون أن يحظى بثقة أي طرف منهما فالشيوعيون لم يكونوا ينظرون بعين الرضا إلى وطار الذي كان لا يميل إلى النشاط المعلن ضمن حزبهم، أما نظام بومدين الذي كان معاديا لليساريين بصفة عامة وللشيوعيين(و منهم وطار) بصفة خاصة، فلم يكن يتحرج بعض أعضاء قيادة الثورة أو القائمين على حظوظ حزب جبهة التحرير الجزائرية فيه من إبداء مظاهر العداء الصريـــح للشيوعيين في حضوره:

" في الستينات والسبعينات و الثمانينات، أن تكون يساريا يعني أن تعاني، خاصة [عندما] تكون في الصف أي أن تكون داخل النظام، مثلما كان الشأن بالنسبة لي. أنا شخصيا تعرضت لصدمات كثيرة.

أولا و قبل كل شيء، كنت أرسل لمهمات في الدول العربية و معي شخصان يكون أحدهما مسؤولا عني حتى و إن كان دوني مستوى بينما أكلف أنا بإنجاز العمل. أسأل لماذا تختاروننني [إذن] فيجيبون: لأنك لا تباع و لا تشترى و لو

الأغلبية في جزائر الثورة) والتعريف بها، وقد درج على كتابة مجموعة من المقالات التقنية للشباب الجزائري على أعمدة "المجاهد"،الوسيلة التي مكنته من إبراز فلسفته (وهي حرب على الامبريالية الغربية من ناحية وتغنيا صافيا بطبقة الفلاحين، أي الأغلبية في جزائر الثورة) والتعريف بها،وقد درج على كتابة مجموعة من المقالات التثقيفية للشباب الجزائري على أعمدة "المجاهد".

انظر عادل هرسي، الجزائريون في تونس (1956–1962) ونشاطهم السياسي والثقافي، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في اللغة والآداب العربية.جامعة منوبة، 2003–2004.

كنت تباع وتشترى لاشتريناك نحن. هكذا [كان] يجيبني محمد الشريف مساعدية مسؤول الحزب آنذاك.

ثانيا، أن تمنع من كل ترقية و اعتبار في عملك. أذكر أنني ذات مرة نجحت وكنت الأول في مؤتمر اِتحاد الكتاب فمنعت من أن أكون الأمين العام للاتحاد باعتباري يساريا أي شيوعيا. قبل ذلك ما جاء مسؤول جديد داخل جبهة التحرير إلا و شتم اليساريين والشيوعيين ونظر إليهم بارتياب وأشار إليهم بأصابع الاتهام.فما عليك إلا أن تصبر إذا كنت ذكيا عليك أن تصفق لتذيب الجليد، و قد حدث لي أكثر من مرة مع قايد أحمد ، إن صفقت فتراه يستريح وينظر إلى أصحابي الذين يشون بي و يقول: هناك أناس بيض كالحليب و أنتم تحمرونهم.

ثالثا، أن تقدم(....) في اجتماع رسمي معلومة عن أن رئيس الاتحاد الفلاني أو الفلتاني منحرف يكتب التمائم و"يرقي" الناس في مقر الحزب فيجيبك محمد الشريف مساعدية بأنه خير من الشيوعيين.

رابعا، أن تقترح (مثلا من اتحاد كتاب إفريقيا و آسيا) لجائزة "اللوتس" فيتدخل مبعوث الاتحاد[اتحاد الكتاب الجزائريين]الذي هو مبعوث الحزب[حزب جبهة التحرير الجزائرية]، و أنا مراقب في الحزب، ليقول لا و الله إن الجزائر ترشح توفيق الحكيم مثلا. فيعود هذا الممثل و يتبجح بأنه اتخذ هذا الموقف.

خامسا، أن يطرح اسمك مثلا رئيس تحرير لمجلة "اللوتس" لنيل الجائزة. وعندما يأتي هذا الاقتراح رسميا يجيبهم أمين الاتحاد العربي الزبيري بأنه يقترح مولود عاشور فيجاب بأن اتحاد إفريقيا وآسيا اقترح الطاهر وطار لأنه معروف في روسيا و معروف في الجمهوريات الآسيوية ومعروف في العالم العربي.

سادسا، أن أمضي بالحروف الأولى تعاقدا مع التلفزة الجزائرية لإنتاج "الزلزال" إنتاجا مشتركا بين الجزائر وسوريا. ويأتي مدير الإنتاج لطفي لطفي من سوريا ونذهب لزيارة قسنطينة و مكان التصوير و نوقع العقد مع أحمد بجاوي أيامها. وبإسم الحزب يأمر الأمين العام لاتحاد الكتاب حراث بن جدو، بأن وطار شيوعي، فما عليكم إلا أن تبحثوا عن أحد غيره. و هكذا يذهب الفيلم أدراج الرياح.

سابعا، أن أنشر "الحوات والقصر" مسلسلة في جريدة الشعب في شهر رمضان سنة 1975 أظن وأن تطرح على طاولة مجلس قيادة الثورة. تقرر أن يستمر نشر الرواية حتى لا تلفت الانتباه...واستمرت...و لكن ظلت في مدارج خزائن الشركة الوطنية للنشر و التوزيع لغاية1978 أي أربع سنوات مما اضطرني إلى نشرها على حسابي. استدنت من خياطة هولندية كانت جارتنا أربعة آلاف دينار قدمتها إلى دار نشر في قسنطينة، دار البعث، فنشرت."[1]

ما الذي يفسر إذن بعدما رأينا من مظاهر "امتحان" وطار، ذي المركز "الرفيع نظريا "في الحزب الوحيد الحاكم، بقاء الروائي وطار عضوا فيه أي "صبره"؟بل ما الذي يفسر على المستوى الروائي تشبثه بـــ"البطل الإيجابي" مثلما يظهر في روايات العشرية الأولى من حكم بومدين (1965-1975) أي "اللاز"(1972) .و"الزلزال"(1974)؟ هل هو ما كان يصدر من قرارات "ثورية" مثل هذا الذي يتعلق بالثورة الزراعية؟

ليس هذا قطعا إذ أن قرارا ثوريا مثل هذا لا يمكن تطبيقه بطريقة تضمن له النجاح على أيدي أمثال قائد أحمد ومحمد الشريف مساعدية وهواري بومدين وقد رأينا قبل قليل نظرتهم إلى اليساريين عموما و الشيوعيين خصوصا:

---

[1] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مقال سلف ذكره ،حلقة أخيرة.

"الثورة الزراعية كانت دائما مطلبا من مطالب اليسار. وكانت اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني أقرت هذا المشروع لسنة1964 أو1965 على ما أذكر، وهو مشروع قديم جاء في ميثاق طرابلس وتراجع عنه اِنقلاب هواري بومدين على بن بله، وبعد ضغط كبير،عندما لم يجد بومدين مهربا، قرر الإصلاح الزراعي وسماه الثورة الزراعية. لم يبق لهواري بومدين سوى اليسار يتكئ عليه ويستعين بالطلبة ليخرجوا إلى الفلاحين متطوعين ليس أكثر و بومدين نفسه اِستعمل لأول مرة الإخوان اليساريين والأخوات الشيوعيات. كان أيامها في المنافي والإقامة الجبرية وفي السجون الكثير من المناضلين ومنهم بشير حاج علي ومحمد حربي ومحمد زهوان لاحقا أطلق سراحهم وجعل البعض منهم يدخل ولايات أخرى ممنوعة عنهم.ويقول[بومدين]بالحرف نحن مع الفلاحين وهو يعلم أن الفلاحين لا يستطيعون أن يكونوا يساريين."[1]

فما هو سبب "صبر" وطار طيلة العشرية الأولى من حكم بومدين؟ إنه في نظرنا،هذا "التوازن" بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي سينخرم بعد1975 .فهذا التوازن هو الذي كان يمكن وطار من متنفس سمح له بنقد الوضع مثلما فعل في قصته القصيرة "الطعنات"(1971) وفي رواية "اللاز"1972 التي ذهب فيها إلى حد تجريم بعض الوطنيين الجزائريين لقتلهم بعض الثوار الشيوعيين (العيد العمراني) وفي رواية "الزلزال"(1974) فمن المعروف أن كل نظام عسكري يحتاج في سنواته الأولى إلى الإيهام بأنه قام "إنقاذا " للبلد من نظام سالف ولذلك كثيرا ما يفسح المجال للنقد مساحة معينة خاصة إذا كان هذا النقد موجها ضد ما سبقه من أنظمة ثم يحدث بعد ذلك انخرام جديد في هرم السلطة يسيطر بعده عليها نهائيا الشق الغالب و يقلص نتيجة لذلك مساحة النقد التي كان قبل ذلك يسمح بها على مضض.إن هذا هو

[1] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مقال سلف ذكره ، حلقة أخيرة.

ما حدث في جزائر 1971-1975،وما حدث في غيرها من البلدان المغربية وإن في فترات مختلفة.

ففي سنة1971 "كانت ضجة وإشاعات كبرى تقول إن هواري بومدين ضرب وأن هواري بومدين طلقت منه زوجته.و كان هناك أيضا اِجتماع في فندق سرايدي في عنابة ضم أحمد مدغري وبوتفليقة وأحمد راية ومجموعة أخرى كانت تخطط لانقلاب ضد بومدين(..) كان الشعب الجزائري كله قلقا من الجو في الجزائر فلا نحن جمهورية ولا نحن اِمبراطورية ولا نحن ملكية ولا أي شيء."[1]

فهل كان بإمكان الروائي وطار والحالة على ما أصبحت عليه أن يواصل كتابته على هيأة مزدوجة الوجه: وجود البطل الإيجابي في الرواية من ناحية وخفوت الجانب الرمزي فيها ؟

إن ذلك أصبح غير ممكن ليحل محله باطراد متزايد البطل السلبي، ويتضخم بـــداية مـــن "الحوات والقصر" (كتبت في1974 ونشرت في1980) و"عرس بغل"(في1978)و"العشق والموت في الزمن الحراشي"(1980)و"الولي الطاهر"في(2003).

[1] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مقال سلف ذكره ، حلقة أخيرة.

على شاطئ البحر

قال الطاهر وطار متحدثا عن رواية"الحوات والقصر" و ظروف كتابتها وعن ضرورة اِنتهاج نهج الرمز فيها:

"كان الجو السياسي أيامها لا يمكن التعبير عنه إلا بشكل"الحوات والقصر" وقال عن رواية"عرس بغل" "أنا كسرت البطل الإيجابي ورحت إلى البطل السلبي وتخليت حتى عن البطل باعتبار أننا في مجتمع آخر غير المجتمع الذي كان في المنظومة الإشتراكية السابقة.ومن هنا أحب القرامطة لأنهم حركة إنسانية كونية اِنبعثت في إطار الدين وطالبت بالعدالة المطلقة. و كتبت عن هذه الحركة في رواية"عرس بغل".عندي رؤية أعلنت عنها أخيرا في ملتقى:أنا لا أومن بأن الله لا يتنازل ليسّير شؤون الفرد.الله يسير المصائر والكائنات وبأن الفرد في حين تعظيمه لله، هو يعظم نفسه... و هذه حالة تصوفية ليست

نكرانا لوجود الله، لكن فهما آخر مثل فهم محيي الدين بن العربي و الأمير عبد القادر...حالة تصوفية خاصة بي." [1]

لكن هل هذه حالة مثلما يدعي وطار، خاصة به؟ إننا لا نعتقد ذلك.ففترة سبعينات القرن العشرين كانت بالنسبة إلى اليساريين في بلاد المغرب التي تهمنا ، فترة"أزمة ضمير مغربي" فإذا كان بعضهم قد حافظ على معتقداته القديمة أو ما يقرب منها فإن البعض الآخر أوغل في ذاته (أو في التاريخ القديم) مستلهما إبداعا"صوفيا" وهناك صنف ثالث لن نتحدث عنه انقلب على هذه المعتقدات انقلابا تاما.

الطاهر وطار ينتمي إلى الصنف الثاني و لسوف يقوده هذا الانتماء إلى غضب السلطة واليسار معا عليه ومما سيضاعف موقفهما منه ما اِتخذه سنة 1988 من مواقف تتصل بالحركة الأمازيغية وبجبهة الإنقاذ الوطني.

يتحدث وطار في "وضع التخفي" الذي أصبح عليه مثلما كان الشأن فيما يتعلق بـــ"الشهداء يعودون هذا الأسبوع ":

" في القصة ذاتها أنا اتبعت أسلوب التخفي وراء الموضوع المتخفي بآرائي، بلغتي، لغة بسيطة جعلت فيها الأحداث هي التي تطغى وهي التي تسيطر على ذهنية القارئ وحتى الكاتب. [وعندما حوّلت إلى مسرحية عوّضت الكثير من القضايا التي طرحتها بالبهرجة الموسيقية، بالظلال والصراخ] وقد عذرتهم في تلك الفترة. قلت:لا يستطيعون أن يطرحوا على الناس ما طرحته بهذا الشكل في هذه الظروف."[2]

---

[1] القدس العربي، الطاهر وطار:الكاتب والتجربة ، مقال سلف ذكره، حلقة أخيرة.

[2] القدس العربي، المصدر السابق نفسه، الحلقة 4.

ويتحدث عما أصبح يتعرض له من مقاومة بعد ما أبدى من "تفهم" للمسألتين البربرية والإسلامية فيقول فيما يتصل بالأولى عند حديثه عن "الشمعة والدهاليز"..."في الجزائر فأنا أخوض معركة ضد مؤسسات. معركة أيديولوجية ومعركة فكرية مع شباب يميلون إلى قتل الأب"...

في الجزائر لم أجد ناشرا واحدا لا لـ"الولي الطاهر" ولا لـ"الشمعة والدهاليز" دققت كل الأبواب. يخافون الطاهر وطار الشيوعي؟ وينكلون بالطاهر وطار الذي لم يناهض الإسلاميين والذي يؤيد فكرة مواصلة انتخابات 1992 فأحس بأني محاصر ومهمّش."[1]

ويقول عن الثانية:"كانت هناك مشكلة [الإذاعة] التي تركتها فرنسا وتركها المسؤولون الجزائريون ومعظمهم من بلاد القبائل (...) ميّتة تذيع تسع ساعات على هوائي لا يتعدى خمسين كيلوواط فجئت بدراسة للدراسة التي أنشأت هذه الإذاعة و طرحت السؤال: إذا ما قويت هذه الإذاعة ماذا يحدث؟ و إذا ظلت هكذا ماذا سيحدث؟ إذا صارت تسمع في خنشلة و باتنة وأريس وتبسة ماذا سيحدث؟ وصلت إلى نتيجة أنها ستكون إذاعة وطنية، إذاعة كل البربر [إذا ظلت على حالها فستبقى] إذاعة تكرس لغة واحدة و لهجة واحدة من البربرية وتكرس حتى أغاني و مشاعر اِستثنائية وهي فكرة اِستعمارية قبل أن تكون جزائرية.[أما] إذا صارت تسمع في خشلة و باتنة و أريس و تبسة [فستكون إذاعة وطنية إذاعة كل البربر.استغربت كيف لم ينتبه المسؤولون الذين سبقوني [في إدارة الإذاعة]إلى هذه المأساة فجعلتها [أي القناة الثانية الناطقة بالأمازيغية] إذاعة وطنية و سرقت من القناة الثالثة(بالفرنسية)600 كيلواط. وأثار هذا ضجة و لربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلتهم يقيلونني

[1] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مقال سلف ذكره، الحلقة 4.

من الإذاعة(...) هكذا تمكنت في هذه الفترة، وهي عام و نصف العام[1991-1992]من إنشاء رواية إسمها الإذاعة الوطارية."[1]

ويفصل أكثر حديثه عن الإسلاميين على النحو التالي:ما حدث في جوان 1991 هو أن الأمر تأزم بعد اتفاق الحكومة التي كان يرأسها مولود حمروش مع مسؤولي الجبهة الإسلامية للإنقاذ على تحديد ساحات الاعتصام.

و" قبل استقالة[حكومة مولود حمروش] بيوم اِستقبلني وزير الداخلية محمد الصالح محمدي.

مولود حمروش

[1] القدس العربي، المصدر السابق نفسه، حلقة أخيرة.

طلبت هذا الموعد لأطلب أشياء لجمعية الجاحظية و قال لي بالحرف الواحد إن هناك مؤامرة مدبرة ضد البلاد مشيرا إلى الأطراف العسكرية صراحة. أنا تحفظت ولكنك أجبرتني على الكلام [فـــ]لنقل هذا الكلام للتاريخ.

أما أنا شخصيا فلا علم لي. لا تأتيني تعليمات لا من الرئاسة ولا من الحكومة و لم يكن هناك أيامها وزير للإعلام إطلاقا و ربما التلفزيون كان يهمهم كثيرا.أما الإذاعة فلا تهم أحدا. كنا نستقبل يوميا ثلاث أو أربع مرات عباس مدني. سألني الجنرال العربي بالخير بأسلوب مهذب قائلا أنتم تستقبلونه [عباسي] كثيرا. فقلت له أنا وطني و واع بما أفعل و هذه المسألة تخصني. إذا كان لكم أحد فاتوا به، فاعتذر بلطف، وهذه شهادة للتاريخ.وهو رجل بكل صفة لطيف... إنسان مهذب. ولم أشهد وأنا مدير الإذاعة أي تدخل. ربما كانوا يحقدون علي و ربما كانوا يتكلمون عني بأي كلام و لكن لم يجرؤوا على التدخل إطلاقا. لا رئيس حكومة ولا غيره. مصالح الأمن في الأخير بدأت تشن حملة ضدي مع عناصر موجودة كما هو الشأن في كل مكان."[1]

في جوان1991 بعد سقوط حكومة[مولود حمروش] الذي كان يعتبره وطار رجلا" يغنجق بالفرنسية وهو لا يحسنها (...)[ولا يرتاح له] كمحلل سياسي وكرجل يطرح نفسه زعيما."[2] " أنا أعتبرأن الشاذلي بن جديد و العربي بلخير و مولود حمروش كلهم دوني كفاءة و بالتالي أتعامل معهم كشركاء."[3]

---

[1] القدس العربي، الطاهر وطار:الكاتب والتجربة، مقال سلف ذكره، حلقة أخيرة،.

[2] القدس العربي، المصدر السابق نفسه.

[3] القدس العربي، المصدر السابق نفسه.

تكونت حكومة أحمد غزالي، عدو الإسلاميين الصريح التي قررت إلغاء الإنتخابات عندما بدا أن الإسلاميين سيفوزون بها مما أثار غيظ وطار" فالناس [في نظره] لم ينتخبوا كلهم ضد النظام و ضد جبهة التحرير الوطني. وأنا أعرف أناسا غير متدينين و لا يقيمون الصلاة و لكنهم انتخبوا لصالح الإنقاذ.

سيد أحمد غزالي

ولو أعيدت الانتخابات لما نالت الإنقاذ ما نالته لأن الناس استيقظوا [لو كان هناك عقل لوقع القبول بنتائج الانتخابات على أن بعد ستة أو سبعة أشهر.كان يمكن حل البرلمان و إعادة الانتخابات إنما المسألة كلها كانت قصد تغيير نظام الشاذلي بن جديد [و المحافظة على استمرار النظام]ثم لوافترضنا انفراد الإنقاذ أو غيره بالحكم، فهناك ما يسمى بضرورات الحكم. الجزائر محاطة بعدة دول، بمالي، بالنيجر بتونس والمغرب وليبيا. الجزائر لا تستطيع أن تشتري قنينة لبن دون أن تمر على بنك فرنسا وبالتالي لا يمكن أن يكون في الجزائر نظام حكم بري متوحش. هذا محال. ثم إن طريقة الإنقاذ شاهدناها في البلديات.أدخلت إصلاحات و لكنها لم تخرج عن الطور. وكان يمكن لرئيس الجمهورية أن يحل البرلمان بعد ستة أشهر أو سبعة ثم تعاد الانتخابات. وكان

يمكن أن تجري الأمور مثلما جرت في الأردن... إنما توقيف الانتخابات وإلقاء القبض على الناس، ولا أقول الشيوخ أو إرسال40 ألف شاب إلى المحتشدات وإراقة الدماء وخطف الناس من بيوتهم، هذه عملية انقلابية أخرى. بالنسبة لي صندوق النقد الدولي و مصالحه هي المسؤولة عما جرى [...فـــ] أحداث أزمة الموت في الجزائر سهلت ما نسميه اليوم الإصلاحات الإقتصادية التي ما كان يمكن إطلاقا أن تنجز لولا هذه الأزمة، حل الشركات الحكومية وطرد العمال وبالتالي لا أعتقد أن الأمر قرار جزائري محض."[1]

ويسأل الطاهر وطار سائله عن افتخار الجنرال خالد نزار في مذكراته بأنه كان من بين من يتحملون مسؤولية توقيف الانتخابات:"نعم ولكن بأوامر من وبأفكار من؟ هل خالد نزار مفكر؟ خالد نزار عسكري."[2]

المسؤولية إذن مشتركة بين المدنيين مثل أحمد غزالي و العسكريين مثل خالد نزار وكلهم من الساعين إلى توجيه نظام بومديني قديم وجهة رأسمالية صريحة حديثا بإيحاء من الرأسمالية العالمية ولذلك وقع اللجوء إلى خليفة الشاذلي بن جديد محمد بوضياف سنة 1992.

يقول الطاهر وطار: " أنا أتهم من استعمل سيد أحمد غزالي. غزالي بالذات. هذا الرجل ظهر مرتين في غير موجب: مرة وهو رئيس حكومة. رئيس الحكومة المفروض أن يكون حياديا، ذهب يقوم بحملة انتخابية لصالح الأحرار ويبدد ويشوه صورة جبهة التحرير الوطني. و مرة قام بزيارة عين تيموشنت و بني صاف بعد زيارة بوضياف مباشرة. ولا يليق هذا بروتوكوليا ولا سياسيا ولا أخلاقيا. وهذا لا يحدث إلا كنذير أزمة. بوضياف يخرج من تيموشنت ووهران على أمل أن يذهب إلى عنابة فيقوم رئيس الحكومة بزيارة

---

[1] القدس العربي، الطاهر وطار: الكاتب والتجربة، مقال سلف ذكره، الحلقة4.

[2] القدس العربي، المصدر السابق نفسه.

لنفس المكان في زيارة رئاسية بالشرطة والكشافة و العسكر. أنا كملاحظ استخلصت أن هذا الإنســـان هو عبـــارة عن مأمور، وكان طامعا: في الأول أن يقيـــلوا الشاذلي بن جديد وينصبوه في مكانه ولكن الأمر لم يسر كما يشاء. وفي المرة الثانية أن ينصبوه مكان محمد بوضياف. وهذا ما لميحدث. ومن يدخل في مثل هذه اللعبة بهذه السهولة لا يستحق اِحترام من يستعملونه... ولا يثقون فيه. ومن هنا يمكن القول أن كل عملية الانتخابات كانت عبارة عن حركة وهمية لإنجاز مشروع ضرب الجبهة الإسلامية للإنقاذ والتراجع عن التعددية والديمقراطية والتراجع عن أشياء عديدة."[1]

إن ما تقدم في هذا المدخل قد دلل بما لا يدع مجالا للشك أن صراع التصورات والمثل كان على أشده خاصة في الفترة البومدييينية. وإذا كان المدخل قد تضمن نماذج معبرةعن هذا الصراع شملت حتى رجال السياسة فإن ما سيلي من فصول يتضمنهما القسمان الأول والثاني سيقتصر على الإنتاج الأدبي السياسي عند كل من عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار.

[1] القدس العربي، الطاهر وطار: الكاتب والتجربة، مقال سلف ذكره، الحلقة4.

القسم الأوّل:

الثورة والفترة البومدينية في بعض مؤلفات عبد الحميد بن هدوقة

الفصل الأوّل:

الثورة

"جاءت (الجازية) ملثّمة، لكن نورها لم يحجبه لثام.

حسنها تيّار متموج يهزّ القلوب ! فاض جمالها على الساحة

كما يفيض الفجر على الأفق ! الناس مندهشون التفوا

حولها جميعا إلى المكان الذي جلست فيه."

عبد الحميد بن هدوفة، الجازية والدراويش، ص 80.

مثّلت الثورة الجزائرية نبعا يستقي منه أغلب الروائيين الجزائريين مثلهم الأصيلة إذ " ما أن اندلعت الثورة، وتتابعت الأحداث المؤكّدة على جديتها ووضوح غايتها، وإصرارها على إدراك هذه الغاية حتى أحس الكاتب الجزائري بأن الوقت قد حان لتوعية قراء الصحف والرأي العام بأسره، سلطة اِستعمارية باغية، وقوّة عسكريّة لا تقاتل من أجل تحقيق التفوّق فقط، ولكنّها تقاتل من أجل محقّ شعب كامل، ومحوه من الخريطة السياسية والقضاء على كيانه، وانتماءاته الحضارية، فلم يجد هذا الكاتب أسلوبا أكثر شرحا وتوسّعا سوى الأسلوب القصصي الذي أتاح له أن يصوّر عمق المأساة التي تعيشها الجزائر"[1] وهو ما يعكس تعطّش مختلف الفئات الاِجتماعية الجزائرية إلى تنظيم تشارك فيه جميع الأطراف دون استثناء من أجل اِسترداد الحق المشروع والاستقلال والحرية بعد اِضطهاد طال أمده، فكانت جبهة التحرير الوطني (F.L.N) في وجهها المسلّح ضدّ الاِحتلال الفرنسي أثناء الثورة التي اِندلعت في أوّل نوفمبر 1954 واستمرّت حتى تحقق مطلب الاستقلال سنة 1962، تتويجا لهذه الرغبة في التحرّر، وتجدر الإشارة إلى أن هالة القدسية التي اكتسبتها الثورة تعود إلى تجازوها عديد الصراعات والاختلافات بين الاِتجاهات السياسية المختلفة التي انضمّت إليها والتي حدّدت هدفها الأسمى في الحصول على الاستقلال وتخليص الشعب الجزائري من نير الاِستعمار المبيد.

ويمكن القول إن الجذور الصلبة الأولى التي مهّدت لاِندلاع الثورة المسلّحة هي أحداث 8 ماي 1945 التي قتل فيها من الجزائريين ما يزيد عن 45000 وقد يصل العدد إلى 100000 حسب بعض المصادر الجزائرية. وهي أحداث عبّر فيها الشعب الجزائري عن رفضه للسياسة الاِستعمارية وعن تمسّكه بوحدته الوطنية وهويته العربية الإسلامية وهو أمر يعكس تيقظا وطنيا

---

[1] محمّد الصالح الجابري، الأدب الجزائري في تونس، تونس المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ج1، 1991، ص 178.

فقد " ارتبطت التحركات السياسية للقوى الوطنية (كذا) بانتشار الوعي الوطني لدى غالبية الجزائريين.وقد تميّز هذا التيقظ الوطني بنوع من الهيجان السياسي والاستعداد لتصديق كلّ إشاعة وتبني أي موقف يتجاوز أو يعّبر عن طموحات الشعب الجزائري."[1] وهو ما مثّل بداية استعداد النخبة الجزائرية للتخطيط لكفاح مسلّح ضدّ السلطة الاستعمارية دعّمها خروج الشعب في مظاهرات منددّة بالاستعمار ورافعة شعارات تهتف بحياة الجزائر وسقوط الاستعمار وإطلاق سراح المساجين من بينهم مصالي الحاج. فردّت عليها السلطة الاستعمارية بمجازر بشعة قصفت فيها المدن ودمّرت القرى. " ويمكن أن نعتبر أحداث الثامن من ماي 1945 بمثابة كرة الثلج التي بدأت في التدحرج والتضخّم، فكانت تكريسا للقطيعة مع فترة التردّد ومؤشّرا على تحوّل العمل السياسي إلى فعل ثوري."[2]

وقد كان ظهور "المنظّمة الخاصة" (OS) نتيجة ضغط تيار ثوري تبلور داخل حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بقيادة مصالي الحاج، إثر مؤتمر فيفري 1947 باعتباره جناحا عسكريا سريا تتمثّل مهمّته في الإعداد للثورة المسلّحة وكانت الرئاسة فيه في البداية قد عهد بها لمحمّد بلوزداد[3]، وقد تعرّضت " المنظّمة الخاصة" لاعتقال العديد من عناصرها إثر اِكتشاف أمرها (1950) وهو ما دفع على التعجيل بتفجير الثورة، وذلك بعد نشوب صراع بين مصالي الحاج الذي كان يطالب بمنحه صلاحيات مطلقة في تسيير شؤون البلاد وأعضاء اللجنة المركزيّة التي كانت تدعو إلى ضرورة تطبيق مبدأ

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، الط 2000، ص 130.

[2] ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق نفسه، ص 145.

[3] محمّد بلوزداد: ولد سنة 1924 في أحد الأحياء الشعبية بالجزائر العاصمة، وتوفي يوم 14 جانفي 1952، وهو أوّل من تولى مسؤوليّة " المنظّمة الخاصة" (L'OS) الجناح العسكري لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، النواة الأولى لجيش التحرير الوطني.

القيادة الجماعية وطريقة الأغلبية في اتخاذ القرارات داخل الحزب، وانقسم بذلك الحزب إلى شقين: شقّ موال لمصالي الحاج وشقّ آخر هو شقّ موال لـــ " المركزيين"، ثمّ وقع تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA)، ولم يقع تجاوز الخلافات إلا في 25 جوان 1954 أثناء اِجتماع 22 السري لقدماء المنظّمة الخاصة حيث تمّ اتخاذ قرار مباشرة الإعداد للثورة المسلّحة وتسريع اِندلاعها بتوحيد جميع الجهود ضدّ الاحتلال.

وقد ضمّت اللجنة خمسة أعضاء وهم مصطفى بن بولعيد، ومحمّد العربي بن مهيدي وديدوش مراد ومحمّد بوضياف ورابح بيطاط وكريم بلقاسم من منطقة جرجرة الذي التحق بالثورة في أوت 1954. فقررّت لجنة "الستة" بعث نشاط المنظّمة الخاصة من جديد وتكثيف التدريبات العسكريّة وصناعة المتفجّرات وتقسيم البلاد إلى خمس مناطق.

وفي 23 أكتوبر 1954 تمّ حل " اللجنة الثورية للوحدة والعمل" لتفسّح المجال لجبهة التحرير الوطني مدعّمة بجناح عسكري هو "جيش التحرير الوطني" وقد تمّ تحديد تاريخ اِندلاع الثورة وهو ليلة أوّل نوفمبر 1945 على الساعة الصفر تحت شعار " تحقيق الاستقلال الوطني وإقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاِجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية".[1] ثورة شاملة لا تستثني أيا كان من أفراد المجتمع الجزائري، بل أن من مرتكزات وجودها الشعب، إذ لا معنى لها في غيابه و" لقد آمن الشعب الجزائري أن الثورة المسلّحة هي الطريق الصحيح الذي سينتهي به إلى الاستقلال"[2].

---

[1] سعيد بوزيان، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر (1830 –1962) الج 3، أبرز قادة ثورة نوفمبر 1954، مرجع سلف ذكره، ص 17.

[2] سعيد بوزيان، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر ، مرجع سلف ذكره، ص 25.

رغم الانتقادات التي واجهتها الثورة والتي تقول بأن الشعب لم يتهيّأ بعد لخوضها وكان ردّ أحد مفجّري الثورة العربي بن مهيدي على ذلك قولته المعروفة: "ألقوا بالثورة إلى الشارع يحتضنها الشعب"، ولم يكن تدعيم الثورة والإقبال عليها في الداخل وحسب بل شاع صيتها في الخارج وقد حظيت بتأييد الدول العربية والإسلامية وأيضا الدول الإفريقية والآسيوية وتمّ الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره في مؤتمر باندونغ 1955، كما سجّلت القضيّة الجزائرية في جدول أعمال الدورة العاشرة لهيأة الأمم المتّحدة 1955.وكان لتدويلها تأثير إيجابي في مختلف الفئات الشعبية التي أصبحت تطمح إلى الاستقلال بعد أن كان ذلك أمرا شبه مستحيل، كما ساهم في تنمية وعيها ودفعها على الإقبال على الثورة المسلّحة ودعمها باعتبارها أصبحت المنفذ الوحيد الذي يوصل إلى الانعتاق من سيطرة المحتلّ.

ولعلّ ممّا ساعد على ذلك ارتكاز الثورة على مقومات عربية إسلامية ممّا مكّن من توحيد الشعب خاصة أن الثورة لم تتضمّن مخطّطا إيديولوجيا دقيقا وواضحا. ثمّ انعقد مؤتمر الصومام بوادي الصومام في 20 أوت 1956 ضمّ 16 مسؤولا باستثناء ممثلي المنطقة الأولى وقادة الخارج برئاسة العربي بن مهيدي ودام المؤتمر 15 يوما تقرّر فيه تجنيد مختلف فئات الشعب الجزائري من عمال وتجار وطلبة وفلاحين لخدمة الثورة، دون إستثناء الجالية الجزائرية بالخارج التي تمّت دعوتها أيضا إلى المشاركة في الثورة. وقد نمّ هذا المؤتمر عن تحول في أسلوب العمل من الإرتجالية العفوية إلى التنظيم المحكم، لكنه كان كذلك بداية ظهور صراعات داخلية. وقد أسفر عن نتائج أهمّها:

- تشكيل جهاز تنفيذي يقود الجبهة. " لجنة التنسيق والتنفيذ: (C.C.E.) .

- تشكيل جهاز سياسي تمثل في لجنة مركزية للحزب، " المجلس الوطني للثورة الجزائرية" (.C.N.R.A).
- إعادة تنظيم جيش التحرير الوطني.
- إقرار أولويّة الداخل على الخارج والسياسي على العسكري. "وتأتي أهمية هذا المؤتمر في أنّه أوّل مؤتمر تأسيسي Constituant ينعقد باسم الشعب الجزائري على أرض الجزائر نفسها، وهو الذي أعطى الثورة مؤسساتها الأولى"[1].

واعتبر نضال الثورة سبيلا إلى إقامة " جمهورية اشتراكية ديمقراطية" واستطاعت الثورة أن تحقق نجاحا أقرّ به العدوّ نفسه، فحظيت بتقدير بقيّة دول العالم نتيجة نجاحها و"الشيء الأكيد أن الثورة الجزائرية قد أنهت بشكل مشرّف المرحلة التاريخية الأولى من حياتها. إنها الآن حقيقة حيّة بعد انتصارها على الإستعمار الفرنسي الأحمق الذي راهن بالقضاء عليها في ظرف بضعة شهور. إنّها ثورة منظّمة وليست عصيانا فوضويا. إنّها نضال وطني للقضاء على العهد الفوضوي الذي الذي أوجده الإستعمار وليست حربا دينية. إنّها خطوة إلى الأمام في الإتجاه التاريخي للإنسانية وليست عودة نحو الإقطاع، إنّها أخيرا النضال لأجل بعث دولة جزائرية على شكل جمهورية إشتراكية وديمقراطية وليست إعادة لنظام ملكي أو ديني عفا عليهما الزمن"[2].

لقد إكتسبت الثورة إذن مكانة هامة لدى الساسة والشعب ذلك أنّها استطاعت أن تثبت في مرحلتها المسلّحة إمكانية التفاف مختلف فئات المجتمع الجزائري حولها، وذلك هو ما أكسبها هالة من : "التقديس" لا عند الجزائريين فقط، وإنّما عند شعوب العالم خاصة تلك التي كانت تعاني في الوقت ذاته من

---

[1] إحسان الهندي، تاريخ المؤسسات الجزائرية، بيروت، دار المدني للطباعة والنشر، الط1 ، 1997، ص 150.

[2] إحسان الهندي، تاريخ المؤسسات الجزائرية، مرجع سلف ذكره، ص 151.

قيد الإستعمار. ويمكن القول إن هذه الثورة التحريرية المسلّحة كانت بمثابة مغامرة خاضها مؤسسو جبهة التحرير الوطني، خاصة منهم مناضلي المنظّمة الخاصة في ظروف ميّزها التطاحن والصراع بين تياري الحزب المتصارعين: جبهة التحرير الوطنية (FLN) من ناحية والحركة الوطنيّة الجزائرية (MLN) المصالية الولاء، ممّا أدّى إلى تصفية جسدية متبادلة، هذا من ناحية، إضافة إلى سعي فرنسا إلى ضرب الحزب وكوادره بعد أن تمكّنت من كشفه. وقد استطاعت هذه الثورة أن تكتسب شعبية وشمولا مكّناها من تحقيق الإستقلال الوطني بواسطة الكفاح المسلّح قبل كلّ شيء، ولعلّ ذلك ما يدعّم تعبير ابن هدوقة الذي جعل من شخصية "الجازية" في رواية " الجازية والدراويش" مرادفا للثورة فـــ "الجازية / (الثورة) أخرجت الدشرة / (الجزائر) من سبات القرون، أعطتها حياة حافلة خصبة بدل حياتها الميّتة"[1] وأصبح بذلك الحلم ممكن التحقيق " ومنذ شيوع أمر الجازية، هزّت القرية أحداث كثيرة، ممّا جعل "الزردات" تتوالى والتنبؤات تتعاقب أصبح الغيب شفاف لا تخفى خفاء جيّدا وراءه الأحداث المقبلة !"[2]

إن ما كانت تعد به هذه الثورة من آمال جسام أي من خصوبة دفع بابن هدوقة، وعن طريق الرمز، إلى المرادفة بين جزائر الثورة والمرأة لما تتصف به المرأة، في مجتمع تقليدي ما قبل رأسمالي من صفات الملاذ والملجأ والمرجع حتى أن " المجتمع الجزائري بدا [في مؤلفاته] ميدانا خصبا للبحث إذ يتميّز نزاع الصور حول المرأة فيه بحدّة لا تعرف مجتمعات بلدان شمال

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدرويش، رواية سلف ذكرها، ص24.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، المصدرالسابق نفسه، ص 54.

إفريقيا لها مثيلا، وهو المجتمع الذي كان بسبب الثورة الجزائرية البطلة، مرشّحا أكثر من غيره لتحقيق ثورة اجتماعية شاملة"[1].

فهل يستغرب المرء عندئذ أن يعنون ابن هدوقة روايته بـــ " الجازية والدراويش" (1983) بعد أن ظهرت مساوئ حكم بن بلّة (1962 -1965) وبومدين (1965-1978) والشاذلي بن جديد (1979 -1991) أي حكم "الدراويش" بكلّ ما يعنيه هذا الرمز من دلالات.

" ترمز الجازية إلى الجزائر. أردت أن أذهب بأسطورة الجزائر إلى بعد فنّي وسياسي من خلال الجازية الروائية. أردت أن أعطيها قاعدة مادية وجدت بالفعل وهي الجازية الشخصية السياسية رمز الجزائر القاصرة"[2].

فهل تراه يعبّر بواسطة هذه الشخصية عن قصور الجزائر الذي لا يمكّنها من المشاركة في "تقرير مصيرها" أم عن استبداد "الدراويش" الذين حصروها، عن طريق الدبابة والايدولوجيا معا، في هذا الدور القاصر؟

لقد اكتسبت صورة المرأة دلالة واضحة في رواية " الجازية والدراويش"، فالجازية/ (الثورة) عبّرت عن الثورة المسلّحة باعتبارها فترة مفصلية في تاريخ الجزائر. ولا شكّ أن ظهورها الذي ربطه الروائي بميلاد الزمن له دلاله خاصة, أفلا يكون ميلاد الزمن هو تاريخ اِندلاع الثورة سنة 1954، وقد تميّزت بعذرية تفرض كبت المصالح الأنانية الضيّقة سواء ما كان منها فرديا أو جهويا أو حزبيا وعبّر عنها زمن الثورة القادة التاريخيون في الداخل أمثال مصطفى بن بولعيد ورابح بيطاط ومحمد بوضياف ومراد ديدوش وفي الخارج أمثال أحمد بن بله ومحمّد خيضر والحسين آيت أحمد وهي

---

[1] محمد الناصر النفزاوي، صورة المرأة في آثار عبد الحميد بن هدوقة، شهادة الكفاءة في البحث، تونس كلية الآداب والعلوم الإنسانية،اشراف الأسود(حسن الصادق)1984، ص7.

[2] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية، أسئلة الكتابة والصيرورة، مرجع سلف ذكره، ص 48.

عذرية حقيقية تختلف عن "العذرية الثورية" التي كثيرا ما تعني بها من كان أقل منهم وطنية ونقصد المستفيدين، دون غيرهم، من الاستقلال، بدليل ما سيحدث زمن الاستقلال من عودة إلى هذا التطاحن الأناني بين حلفاء الأمس الذين لم يتمكّنوا لـــ "دروشتهم" من الارتقاء إلى مستوى الجزائر / الثورة/ الجازية:

" مع ميلاد الزمن،
ولدت الجازية،
والدراويش
و"السبعة"
والرعاة .
والشامبيط
وهكذا بدأت القصّة"[1]

إن الجازية بدوية والثورة الجزائرية ريفية، والريف الجزائري هو المبتدأ والخبر، إنّه ضارب العروق في الأرض لا يقبل (وإن لفترة) من يفرض عليه إيديولوجيات لا تنبع من أصوله الجبليّة الصافية:

"الجازية أخرجت الدشرة من سبات القرون، أعطتها حياة خصبة بدل حياتها الميتة. إذا سكتت هبّ الدراويش لإقامة زردة استرضاء لها واستعطافا !... كانت غريبة الأطوار، لا تستقر على حال، عيونها تعد وتتوعد. بسمتها ترتفع بالنفس إلى البعيد من السدم. لكنّها كالنور قربها محرق !"[2].

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 5.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه،ص 24.

للجازية (الثورة) صفتان متلازمتان هما النور والنار، والنور والنار هما هذه البسمة " ترتفع بالنفس إلى البعيد من السدم" فمن يمكنه أن يقربها "مغتصبا" ؟ إن ذلك ليس ممكنا إلاّ لمن فقد صفة الشرعية النورانية والنارية، فدفعه جهله وقد رأى ابتسامتها البعيدة الغامضة إلى ادعاء امتلاكها حتى يتمكّن من أن ينسب إليه شرعية ثورية يعرف العارفون خلاءه منها:

" كل الشبان يرهبونها ما عدا ابن الشامبيط، لم يكن يريد منها بتولتها كان يريد أن يتوج اسمه بهالة النور التي صنعتها بندقية أبيها ودماؤه ! يريد مسح عار "الشمبطة" عن جبينه، كما يقول السكان".[1] فمن يكون ابن الشامبيط هذا الذي حاول الإستيلاء على الثورة؟ وهل يمكن أن يحيلنا ذلك على التيار الإندماجي الذي كان يؤيّد في وقت ما فكرة اندماج المجتمع الجزائري وذوبانه في الدولة الفرنسية؟ أم على أولئك الذين تسللوا إلى مراكز القرار بمساعدة بومدين ونقصد الضباط السابقين في الجيش الفرنسي؟

ثمّ ألاّ تحيل شخصية الطالب الأحمر – الذي يأتي إلى الجازية /الثورة مغامرا فما أن يقترب منها حتى ينتهي أمره بالموت– على التيار الشيوعي داخل الثورة وهو ما أكده ابن هدوقة حين كتب:

" أمّا شخصية الأحمر فترمز إلى النظرة الشيوعية. ومهما كانت أفكاره جميلة فإذا ما لم يتمسّك بالجذور يموت أو يقتل نتيجة التطرّف. لا يمكن أن تضع مجتمعا مكان آخر. الشيوعية كمذهب اجتماعي واقتصادي ممتاز، لكن الشيوعيين والحكم الشيوعي شيء آخر. هم السلطة الدكتاتورية القمعية. فالنظرة الشيوعية شيء والتسيير شيء آخر. ولا بدّ من التفريق لنأخذ ما ينسجم ومقوماتنا وجذورنا وبين التبعية العمياء. " تقدّمي" لا تعني أنّني أقتل

[1] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه،ص 24.

طبقة في سبيل أخرى. ككاتب فأنا مع الضحايا وكلّ شيء قابل للتغيير حتى الشيوعية ذاتها"[1].

وما سيكون عليه مصير الفكرة الإشتراكية العربية (الناصرية) التي جسّدها بن بلّه الذي عاد إلى الجزائر بأفكار ناصرية دخيلة على الشعب الجزائري وعاداته ومعتقداته؟ وإذا كان ابن بلّه هو صاحب فكرة "الإشتراكية الخاصة" فماذا ستكون عليه علاقاته بالتيار الشيوعي؟

لقد رافقت الفكرة الإشتراكية الثورة في مراحلها المختلفة منذ اندلاعها، ثم في مؤتمر الصومام حتى الاستقلال وبعده، لكنّها لم تلق ما كان ينتظر منها من نجاح رغم ما كانت تحمله من إيجابيات ورغم ما كانت تحظى به من تأييد في بعض الأوساط السياسية.

كتب عبد الحميد براهيمي في ذلك في كتابه " في أصل الأزمة الجزائرية": "يشكّل الخيار الاشتراكي اِمتدادا لإعلان 1 نوفمبر (تشرين الثاني) 1954 ولميثاق الصومام الذي كان يدعو لتأسيس دولة ديمقراطية واِجتماعية ولبرنامج طرابلس الذي يحدّد ملامح سياسية اقتصادية ذات طابع اشتراكي يبدو فيها دور الدولة حاسما في تغيير الوسط الريفي عن طريق الثورة الزراعية وفي إنشاء قاعدة صناعية من شأنها أن تضمن تعميم التقدّم في البلاد. ويبدو أن هذا الإختيار يتوافق مع تطلعات الشعب الجزائري إلى التقدّم والعدالة الاجتماعية قصد الإزالة النهائية للاِستغلال والظلم الوقح اللذين عاناهما في ليل الاستعمار الطويل والشاق"[2].

---

[1] بوشوشة بوجمعة، الرواية الجزائرية العربية: أسئلة الكتابة والصيرورة، مرجع سلف ذكره، ص 45.

[2] عبد الحميد براهيمي، في أصل الأزمة الجزائرية، 1957 – 1999، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2001، ص 100.

وبهذا يقرّر براهيمي أن الثورة واحدة رغم تعدّد أوجهها ومراحلها وهو ذاته ما سيعبّر عنه ابن هدوقة من خلال شخصية "حجيلة" التي تمثّل صورة من صورة الجازية، أي مرحلة جديدة من مراحل الثورة.

الفصل الثاني:

المسألة السياسية.

"الجازية والدراويش"

(1983)

"إن الجازية مغامرة ومغامريتها تجعلها تعيش
في الزمن الذي لم يوجد"

عبد الحميد بن هدوقة، "الجازية والدراويش"، ص179.

تنظر مختلف التيارات السياسية والفئات الإجتماعية في الجزائر إلى الثورة التحريرية، نظرة تصل حدّ التقديس، فقد عدّت المعبر الوحيد والأساسي لإسترداد الحرية، إن هذا الالتئام لم يكن يرتكز على إيديولوجيا معينة وواضحة فـــ" جبهة التحرير الوطني ليست تجمع أحزاب، وإنما هي تجمع أفراد يؤمنون بمثل واحدة تضمّنها إعلان الفاتح من نوفمبر 1954. وبأحكام الميثاق الداخلي (Charte) الذي وضعته الجبهة لنفسها عام 1955"[1] .

ولم تستثن – بذلك– الجبهة أيا من أفراد الشعب، بل عملت على إستقطاب أغلب فئاته من سياسيين ومدنيين و " منذ أواسط 1956، أصبحت الجبهة تضم ممثلين عن عموم قطاعات الشعب الجزائري، بل يمكن القول إنها أصبحت هي الشعب الجزائري"[2] ، وإذا وقع التعبير عن فترة التحرير بكثير من التمجيد غالبا، في محاولة لإخفاء الصراعات الداخلية بين الأحزاب السياسية التي تختلف في النظرة إلى كيفية إستمرار هذه الثورة بعد تحقيق التحرر، فإن هذه الاختلافات ستطفو على السطح بمجرد الحصول على الإستقلال، بل ستؤكد صراعات كبيرة حصلت في فترة الكفاح المسلح، إذ راح كل طرف من الأطراف السياسية وغير السياسية، يطالب بحقه في السلطة، مرتكزا في أحيان كثيرة على التحاقه بالجبهة ومشاركته في عمليات التحرير. ويمكن القول إن مؤتمر الصومام من بين المناسبات الهامة التي أثبتت وجود هذه الصراعات، بل ودعمت ظهورها بجلاء، خاصة أنه كان من نتائجه تغليب الجانب السياسي على العسكري، مما جعل العسكريين الذين يؤمنون بأسبقية الكفاح المسلح على العمل الديبلوماسي والسياسي في الثورة، يردّون الفعل بمحاولة إيجاد توازن آخذين بعين الاعتبار التحاق السياسيين بالجبهة بعد اندلاعها أي سنة 1955، وهم عبان رمضان وبن يوسف بن خدة وسعد دحلب.

---

[1] إحسان الهندي، تاريخ المؤسسات في الجزائر، مرجع سلف ذكره، ص 154.

[2] إحسان الهندي، المرجع السابق نفسه، صص 154-155.

كما أن إقرار أولوية الداخل على الخارج كان يرمي إلى الحدّ من صلاحيات البعثة الخارجية بقيادة أحمد بن بلّه وبوضياف، بعد أن تمكنت من تدعيم الثورة- بشكل هامّ- بالأسلحة. وقد بيّن محمد حربي أن توتر العلاقة بين النشاطات العسكرية والأهداف السياسية يعود إلى غياب التكامل بينهما " فخلف التمييز بين" سياسيين" و " عسكريين" كان يختفي في الواقع صراع بين خطين متخاصمين. الأول ويجسّده عبان رمضان، كان يجد سنده في المدن، فقد كان يعقوبيا وداعيا إلى المركزة. أما الثاني، ويمثله قادة جيش التحرير، فكان عاميا ويستند إلى الطبقات الريفية. كان يهتم قليلا جدا بالمسائل الإيديولوجية، وكان أصحابه يناضلون من أجل مصالح فورية ويجعلون من استقلال منظماتهم رهان المستقبل"[1] ورغم أن سعد دحلب أعاد أولوية السياسي على العسكري إلى طبيعة القضية الجزائرية وهي أساسا سياسية وأهدافها سياسية، إلا أن العسكريين الذين تضرروا من هذا القرار اِعتبروا أنه يخدم مصلحة عبان رمضان الذي ستتمّ تصفيته فيما بعد. وهو ما أفرز تحالفا بين البعثة الخارجية وجيش التحرير الوطني ضدّ عبان الذي اِتهم بسيطرته المطلقة على المؤتمر وسعيه إلى إحكام قبضته على الثورة الجزائرية. لكن تحويل السلطات العسكرية الفرنسية في 22 أكتوبر 1956 وجهة البعثة الخارجية التي كانت تضمّ بن بلّه وخيضر وآيت أحمد وبوضياف ولشرف، سيجمّد إلى حين الصراع المباشر ضدّ عبان ومجموعته. ولئن توقف الصراع بين البعثة الخارجية والجبهة، فإنه سيتواصل بين السياسي والعسكري إلى أن يتمكّن الجناح العسكري من التغلب على الجناح السياسي بعد اِنعقاد المؤتمر الثاني للجبهة في القاهرة في 1957، فيتم عزل عبّان رمضان ومحاصرته ثم التخلص منه بتهمة العمل على تصفية القادة العسكريين. ولم يستأنف نشاط

[1] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني: الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1983، ص 156.

لجنة التنسيق والتنفيذ إلا في أفريل 1958، استئنافا متعثرا، فقد واجهت الجبهة مشكلة توحيد جيش التحرير الوطني وقد تمّ تبني اقتراح كريم بلقاسم تنظيم لجنة عسكرية مقسّمة إلى قسمين يقودان جيش التحرير انطلاقا من الحدود الشرقية والغربية، وهو ما سيمكّن هواري بومدين من الظهور بصفة جلية على مسرح الأحداث، متوليا قيادة اللجنة العسكرية الغربية فيما تولى قيادة اللجنة الشرقية محمد السعيد.

وقد تمكّن بومدين من النجاح بفضل اِستفادته من جهاز بيروقراطي عسكري خوّل للجنة الغربية أن تكون نواة أساسية في تشكيل جيش جديد يتميز بالاِنضباط والاِحتراف العسكري وبقدرة بومدين على إخضاعه له وقد وصفه محمد حربي كما يلي:

" جهاز متراتب ومنظم وممركز أمسكت بزمام قواته بحزم بيروقراطية عسكرية وبوليسية، فكانت روح الخضوع الكلي من جانب كل واحد لقرارات السلطات وهي روح ناتجة لا عن تربية سياسية بل عن تربية اِنضباطية قاسية تهدف إلى تحطيم الأفراد وجعلهم مجرّد منفذين."[1] وبذلك تزايد نفوذ الجناح العسكري الذي أثر على مسار جبهة التحرير تأثيرا إيجابيا توازى فيها نشاطا الكفاح المسلح والعمل الديبلوماسي في الخارج فقد " حققت جبهة التحرير بعد أربع سنوات من الكفاح المسلح ومن النشاط السياسي الديبلوماسي في الخارج نجاحات كبيرة، جعلتها القوة الأساسية في الداخل بعد إزاحتها الحركة الوطنية الجزائرية بقيادة مصالي الحاج، وبعد أن أصبحت الممثل الحقيقي في الخارج المعترف به من قبل الدول العربية والمجموعة الاِشتراكية."[2]

---

[1] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني: الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، ص 182.

[2] رياض صيداوي، صراعات النخب السياسية والعسكرية في الجزائر ...، مرجع سلف ذكره، صص 36-37.

وهو ما دعّم ضرورة تشكيل حكومة جزائرية مؤقتة تكون مشروع دولة الجزائر المستقلة وتؤطر الجبهة، تمّ الإعلان عنها في 19 سبتمبر 1958 (G.P.R.A) برئاسة فرحات عباس كما تمّ الإعلان عن تشكيل " لجنة بيووازية" للحرب تضمّ كلا من كريم وبوصوف وبن طوبال تشرف على جيش التحرير الوطني من خلال جهاز جديد وحّد القيادة، "هيأة الأركان العامة" بقيادة بومدين، الذي عمل على انتداب تلامذة جزائريين يدرسون بمدينة وجدة المغربية وهم مجموعة مثقفة كوّن بومدين بواسطتها مجموعة وجدة التي ضمّت كلاً من عبد العزيز بوتفليقة وبلقاسم شريف وأحمد مدغري، وغرس فيها عصبية عسكرية متميزة مكّنت من الحفاظ على قدسية الواجب والإنضباط وروح التضامن و كانت تتميز بحذرها من قادة الولايات في الداخل ومن سياسيي الحكومة الجزائرية المؤقتة التي انتقدها بومدين بشدة خاصة في مستوى سعيها من أجل إيجاد حل ديبلوماسي للقضية الجزائرية، وقد دعا إلي التشبّث بالخيار العسكري مرتكزا في كل ذلك على جيش أجاد تسييره وتنظيمه وأحكم سيطرته التامة عليه، خوّل له الانتصار بتحالف بن بله معه بعد الصراع الذي نشب بين السياسيين وهيأة الأركان.

يقول بن يوسف بن خدّة عن الصعوبات التي واجهتها الجزائر مباشرة بعد معركة التحرير: " لقد انتهت أزمة صيف 1962 بإنتصار القوى المنظمة من الخارج على القوى الداخلية التي أضعفتها الحرب وأنهكتها، والمؤسسات التابعة للدولة وغيرها، القائمة اليوم هي تعبير عن هذه القوى."[1]

[1] كمال بوشامة، جبهة التحرير الوطني والسلطة (الجزائر، 1962-1992)، مرجع سلف ذكره، ص 24.

ولعلّ ذلك ما مكّن من ظهور مسألة الشرعية التاريخية إلى من يجب أن تؤول المسؤولية في تولي مقاليد السلطة في الجزائر، فقد تجدّد تنازع الحلفاء القدماء الذين اِلتأم شملهم منذ 1954 وعاودهم الحنين إلى الصراع بعد 1962، وذلك هو ما أعاق بومدين عن تسلّم السلطة نظرا إلى صغر سنه أولا، وعدم اِنتمائه إلى المفجرين الأوائل للثورة المسلحة، فترك المجال في البداية لبن بله ومجموعته اللذين كانوا يعتقدون أنه يمكنهم أن يوظفوا الجناح العسكري من أجل التصدي لخصومهم من السياسيين والوصول إلى السلطة، وهو ما يفسر تحالف هيأة الأركان مع البعثة الخارجية ضد الحكومة المؤقتة، وفي 27 ماي 1962 تمّ انعقاد مؤتمر طرابلس الذي فجّر الصراع وأفرز بوضوح القوى المتنافسة، وهو ما جعل الحكومة المؤقتة تعقد اجتماعا في تونس بتاريخ 28 جوان 1962، قررت فيه حلّ هيأة الأركان وعزل قائدها بومدين ومساعديه منجلي وسليمان قايد أحمد، لكن بومدين الذي أحكم سيطرته على الجيش تمكن من الحفاظ على مكانته في الجيش فظهرت بذلك مجموعتان:

1) مجموعة تيزي وزو وتضمّ كريم بلقاسم ومحمد بوضياف تحالفت مع الحكومة المؤقتة وقد انضمت إليها الولايات الثانية والثالثة والرابعة، كما كسبت مساندة فيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، كما تمكنت من دعم تونس وفرنسا.

2) مجموعة تلمسان وتضمّ أحمد بن بله وهيأة الأركان إضافة إلى الولايات الأولى والخامسة والسادسة ودعّمت صفوفها بتحالفات ظرفية مع أحمد فرنسيس وفرحات عباس، بالإضافة إلى دعم مصر.

ورغم انقسام السياسيين والعسكريين إلى مجموعتين واحدة تؤيد مجموعة تيزي وزو والأخرى تساند مجموعة تلمسان، إلا أن جيش الحدود التونسية الجزائرية بقي موحّدا خلف قائده بومدين وقد تمكن من حسم الصراع

بزحفه على العاصمة الجزائرية واِحتلالها في أوت 1962 بعد دخول الحكومة المؤقتة إلى الجزائر واستقرارها فيها عند الإعلان عن الاستقلال في 3 جويلية 1962 وبعد أن شكل أحمد بن بلة مكتبا سياسيا للجبهة في 22 جويلية 1962. لكن تعيين أول حكومة مستقلة كان في 26 سبتمبر 1962 برئاسة بن بله.

إن تمكّن ابن بله من السلطة يؤكد هيمنة الجيش وانتصاره في الصراع مثلما يؤكد فشل الجناح السياسي الذي فشل في السيطرة على الأوضاع ورغم موقف محمد خيضر الأمين العام للحزب آنذاك " ليس لي إلا أن أعطي أوامري للحزب وينزل الشعب إلى الشوارع"[1] فقد تمكّن ابن بله من عزله بدعم من هواري بومدين الذي تمكّن من توحيد جيشه تحت إسم الجيش الوطني الشعبي، سبّب ظهور انشقاقات عديدة تعتبر ردّة فعل معارضة لسياسة بن بله، فقد انشق بوضياف عن الجبهة وأسس "حزب الثورة الاشتراكية" فتم اعتقاله، وحدث الأمر نفسه بالنسبة إلى حسين آيت أحمد الذي أسس " جبهة القوى الاشتراكية"، وأيضا محمد شعباني الذي انشق في الصحراء ثم وقع اعتقاله ومحاكمته وإعدامه. لكن هذا التحالف بين بن بله وبومدين لن يدوم، فأهداف بومدين لم تكن تتمثل في مجرّد السيطرة على الجيش، وإنما يمكن القول أنه امتلك رؤية في كيفية حكم الجزائر، جعله يخطّط ويصبر ويحسن استغلال ما يملكه غيره من شرعية وأحقّية حتى يبلغ غايته، التمكّن من السلطة، وهو ما سيفسر تدهور العلاقة بين حلفاء الأمس وأعداء اليوم، فقد وجد بن بله نفسه وحيدا في مواجهة ضباط بومدين الذي أضحى يعتمد اعتمادا كبيرا على الجيش الذي يضمّ ضباطا سابقين في الجيش الفرنسي والإدارة.

ورغم التوازن الوقتي بين السياسيين والعسكريين في فترة حكم بن بله، فإن هيمنة الجيش على الحزب ستتدعّم بصفة مطلقة خاصة أن بومدين تمكن

[1] رياض صيداوي، صراعات النخب السياسية والعسكرية في الجزائر...، مرجع سلف ذكره، ص 42.

من الاستيلاء على جزء كبير من أجهزة الدولة ووزاراتها القوية في إطار اقتسام للسلطة بينه وبين بن بله، وقد سعى في غضون ذلك إلى نشر الجيش الشعبي في كل مكان وتحويله إلى جيش كلاسيكي مستعينا في ذلك بضباط جزائريين عملوا سابقا في الجيش الوطني الفرنسي.

وقد واجه بومدين من أجل ذلك انتقادا بالغ الأهمية في مؤتمر جبهة التحرير الوطني 17 أفريل 1964، فقد هاجمه المدنيون الذين عارضوا ذلك بشدّة، وقد برّر بومدين ذلك بحاجة الدولة الماسّة في فترة البناء إلى إطارات وكفاءات. ولعل ذلك هو ما مكّن من ظهور صراع علني بين بن بله وبومدين من جديد، فقد كان الأول يحتمي بالحزب والثاني بجيشه " تضاعفت [بذلك] الدسائس ضدّ بن بلة والإشاعات وتميزت الخمسة أشهر الأولى منذ عام 1965 بهيجان غير عادي ينبئ بضربة قوية وشيكة لصالح إحدى المجموعتين إلا أن دور الجيش الذي يسيطر عليه قدماء الجيش الفرنسي سيكون حاسما"[1] .

ورغم سعي بن بله إلى ضرب بومدين ومجموعته بعزل مدغري وبوتفليقة اللذين يمثلان إلى جانب شريف بلقاسم النواة الصلبة لمجموعة وجدة، وجمعه مناصب عديدة في يديه: رئاسة الدولة ورئاسة مجلس الوزراء، والأمانة العامة للحزب ووزارة الداخلية ووزارة الإعلام، في محاولة لاختراق الجيش عند سفر بومدين، إلا أن هذا العسكري سيتمكّن من اعتقاله وسجنه بعد عودته وسيتمكّن من السلطة في 19 جوان 1965 تاريخ انقلابه الشهير.

لقد كان بومدين مقتنعا بأن الجيش هو المؤهل الأول للمسك بزمام الدولة وإدارتها، فطموحه الشخصي في الوصول إلى السلطة جعله يعمل على خلق عصبية عسكرية قادرة على مواجهة المتغيرات السياسية، ويمكن القول

[1] عبد الحميد براهيمي، في أصل الأزمة الجزائرية، 1997-1999، مرجع سلف ذكره، ص 103.

إن بن بله الذي يمتلك الشرعية التاريخية في الجبهة يعدّ بمثابة الورقة الرابحة التي اعتمدها بومدين في تحقيق أهدافه فقد كان يتفق معه في مشروعه الاشتراكي الذي سيعمل على تجسيده في فترة حكمه التي جمّد فيها دور الحزب بالرغم من اعتماده نظام الحزب الواحد والتطبيق الاشتراكي. وإذا كانت مميزات هذه الفترة تعبّر عن " دكتاتورية" بومدين فكيف سينظر المثقف إلى مجمل هذه الأحداث؟ وإذا كان ابن هدوقة يمثل أحد التيارات السياسية في الجزائر آنذاك، ممثلا في التيار الإصلاحي، فكيف سيقيم هذه السياسة؟

زمن الاستقلال وفي الفترة البومدينية خاصة " الجازية أصبحت الجازية، بقصة جديدة وأغاني غنتها الدشراويات والرعاة."[1] الذين بإمكانهم، وحدهم أن ينفذوا، لصفاء طويتهم، إلى حقيقتها العميقة وهي "الملثمة" التي لم يتمكن أحد من رؤية وجهها الحقيقي ومع ذلك سعت مختلف التيارات الفكرية السياسية التي طفت خلافاتها على السطح بعد فترة الثورة والإجماع على مطلب الاستقلال السياسي الفضفاض إلى امتلاكها فتكاثر "خطاب يدها" وكلهم "دراويش" فيهم من سمع عنها من بعيد وانبهر " بهالتها" وفيهم من لا ماضي تاريخيا ونضاليا حقيقيا له، وفيهم من كان أبوه زمن تمرّد أبيها واِستشهاده وهو "ابن الشامبيط" خادما للاستعمار.

وسوف لن تقبل الجازية بأي واحد من هؤلاء زوجا لها على الرغم من أنها كانت الأكثر ميلا إلى الخطيب " الأحمر" لقوله بفكرة العدالة الاجتماعية التي ترى فيها الجازية أحد الأسس التي يقوم عليها وجدانها البربري– العربي الأصيل وما ذلك إلا لأنها وهي التي منعتها القوّتان، القوة العسكرية والقوة الإيديولوجية ممثلتان في الجيش البومديني وإيديولوجية الحزب الواحد، حزب جبهة التحرير الوطني، من تقرير مصيرها بنفسها: "مأساتي أنني لن أتزوّج زواجا حلالا في وقت منظور... جاءت إلى البيت وأنا صغيرة، إمرأة غريبة

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 145.

الأطوار، تقرأ اليد، أنبأتني أنني آكل عشبة تنبت في جبالنا لا يعرفها أحد تبقيني صغيرة حتى اليوم الذي أتزوج فيه زواجا حلالا، وأن أزواجي الأولين لن يكونوا شرعيين، سيكونون أزواجا حراما، وأن كل واحد منهم يلاقي حتفه عندما يظن أن الحياة اِستوت له... ثم يمرّ زمان لا شمس فيه يشبه الليل وليس ليلا. أعيش أزماته واحدة واحدة، ثمّ أتزوج زواجا حلالا يشهده كل دراويش الدنيا."[1]

إن الشاهد سالف الذكر يلخص تقريبا كل رواية " الجازية والدراويش" ولكننا نودّ أن نفصل الموضوع تفصيلا يحافظ على التوازن بين الفصول وذلك بتتبع علاقة الجازية (الجزائر) بمختلف " الخطّاب" فأول من ادّعى امتلاك الجازية هو النظام العسكري البومديني الذي لم تختره الجزائر ولكن فرض نفسه بقوة الجيش الذي كان مرابطا زمن الثورة على الحدود التونسية أي الشرقية (أي في الخارج) بعد أن عقد حلفا مع ابن بله الذي كان سجينا في فرنسا (أي في الخارج أيضا) ومع ذلك فإن حكمها على هذا النظام يكاد يلين عندما يتعلق الأمر بهؤلاء " العائدين" الذين التفوا حولها في ستينات القرن العشرين وسبعيناته ولكن جهلهم بتاريخها من ناحية وواقعيتهم من ناحية ثانية أبعدتهم عن روحها إذ هي " تعيش باستمرار في الزمن الذي لم يوجد."[2] ذلك أننا إذا اعتبرنا فيما يتصل بالثورة أن المخرج الوحيد أمام الشعب الجزائري [سنة 1954] كان حسب ما قاله الأخضر بن طوبال هو "تسريع التفجير المسلح للثورة، دون انتظار دراسة دقيقة ومحددة يجري اتباعها، ودون انتظار البلورة الكاملة لبرنامج عمل ولتنسيق كل المستويات، كان ثمّة حلان أمام مجموعة 22 " إما التنظيم أولا والتفجير فيم بعد... كنّا مضطرين لااختيار

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 71.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 179.

الحل الثاني" [1] لذلك أطلق على الثورة منذ اِندلاعها في نوفمبر 1954 تسمية جبهة التحرير الوطني وكانت تمثل الإدارة الجزائرية، فقد جعل غياب التنظيم والتنسيق من الثورة " الحزب الأمة قبل أن تكون الدولة الأمة."[2]

إن من يمثل هؤلاء، في الجازية والدراويش، هو ذلك المهاجر الذي جاء يبحث عنها من " آخر الدنيا" حتى إذا اِقترب منها لفحته نارها ونورها فاختار بديلا عن "الجازية المثال" ، " حجيلة الواقع".

من هو هذا الآتي من بعيد الذي اقتنع في النهاية أن الجزائر يجب أن تصنع على هيأة جديدة، واقعية منه، أفلا يكون بومدين الذي اِلتحق بالثورة التحاقا وحاول أن يتبنّى مبادئها لكنه في نهاية الأمر فضّل عليها " حجيلة" أي الجزائر الوليدة؟

"رفعت الجازية رأسها في كبرياء. شعر عايد أنها كهالة من نور تملأ الدنيا. لا يستطيع النظر مواجهتها. حاول مع ذلك أن يملأ نظره منها. أليست هي الجازية التي جاء من أجلها ؟ ألم يقض ما يقرب من يوم أمام دار أحد الرعاة ليراها...رأى وجهها شفافا بشكل بديع، حتى لترى من ورائه جدران البيت كما لو أنه من بلّور. لكنه جزم في نفسه أن الجازية لم تخلق له الجازية حلم والأحلام لا تتحقق لجميع الناس."[3]

لا يبدو إذن، حسب ما فهمنا من الرواية، أن إدانة عبد الحميد بن هدوقة الفترة البومدينية ، هي إدانة كاملة حتى وإن كان يتعرّض أثناء هذه الفترة لأحد

---

[1] رياض صيداوي، صراعات النخب السياسية والعسكرية في الجزائر ....، مرجع سلف ذكره ، ص 23.

[2] رياض صيداوي، المصدر السابق نفسه، ص 23.

[3] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش،رواية سلف ذكرها، ص 196.

ممثلي خطاب الجازية ممن حاربوا أباها وخدموا الاستعمار ثمّ تمكنوا زمن الاستقلال، وبعد أن " خنسوا" لفترة قصيرة من أن يعودوا، بفضل مالهم وتعليم أبنائهم، إلى النفاذ في مسام سلطة القرار، ونقصد هنا الضباط الفارين من الجيش الفرنسي، الذين اعتمد عليهم بومدين في الوصول إلى السلطة، ثم في مرحلة البناء، والذين أصبحوا فيما بعد، بعد أن استطاعوا أن يكسبوا وزنا هاما في مستوى المشاركة في قرارات السلطة أو التحكم في الإدارة .

ولذلك فحكم ابن هدوقة (والجازية) حكم قاطع على أبناء الشنابيط فابن الشامبيط "لم يكن يريد منها [أي لا من الجزائر / الجازية] بتولتها [1] فقط. كان يريد أن يتوّج إسمه بهالة النور التي صنعتها بندقية أبيها ودماؤه، يريد مسح عار " الشمبطة" عن جبينه كما قال السكان."[2]

ألم تمل الجازية / الجزائر وهي الأنثى الكاملة جسدا ونفسا وعقلا إذن إلى أي خطيب؟

بلى، لقد مالت إلى الخطيب " الأحمر" (الشيوعي) لتعلقه بفكرة العدالة الإجتماعية التي هي من الأسس الثلاثة التي يقوم عليها " الوجدان المغربي": البساطة التي يعبر عنها الجبلي والتعلق بالحرية والإسلام[3] ولكن غياب الأساس الثالث منع انعقاد الزيجة بينهما: "جرّها الأحمر إلى الرحبة وسط الدراويش، لم يتمكن من رؤية وجهها.هم بنزع اللثام عن وجهها لكنها منعته،

---

[1] البتول: عذراء نذرت نفسها لعبادة الله وانقطعت عن العالم بالامتناع عن الزواج.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص24.

[3] انظر رسالة زميلتي جليلة المؤدب، ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية: الحبيب ثامر (ت 1949) وعلى الحامي (ت 1949) ومحمد أحمد بن عبود (ت 1949) ،إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2006 (غ.م).

قدم لها منجلا فلعقته راقصها فراقصته، يالها عقول القرويين كادت تطير من رؤوسهم."[1]

لقد كاد التقارب بين "الأحمر" و"الجازية" يبلغ حدّ التمازج: " الجازية والأحمر يزدادان حماسا. رقصهما يتخذ حركات غريبة لم تر القرية مثلها قط وينهمر المطر..."[2] لكن الشيوعية (والنظرية المادية التاريخية) وليدة الحضارة الحديثة في البلدان المصنعة لا يمكن أن تنبت في " قرية" هي مثال مصغر لعالم الريف الجزائري الراسخ في عاداته وتقاليده التقليدية ما قبل الرأسمالية، فكيف يمكن للجازية / الجزائر أن تقفز فوق العصور؟

لقد أحب الأحمر (اليسار الجزائري) الجازية (الجزائر) حبّا لا يشكك فيه إلا خصومه ممن سبق أن عددنا الأمثلة عليهم ولكنه ارتكب خطأ تاريخيا يعاقب عليه القرويون (أومن يدعون أنهم يعبرون عن طموحاتهم) بالقتل وتلك ليست مأساة الأحمر في الجزائر فحسب ولكن كذلك في تونس (وإن بحدّة أقل) وفي المغرب الأقصى (وإن بحدّة أكثر).

" في النهاية وجدوه قتيلا أسفل عين المضيق."[3]

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 83.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها ، ص 84.

[3] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 154.

الفصل الثالث:

المسألة الاِجتماعية

" عندما لا يكون المرء عنصرا في المأساة، ولا ممثلا لدور،

فهو متفرّج غبي !"

عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، ص 114."

"الشعوب الجاهلة لا تستفتي، وإنما تلقّن"

عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، ص 68.

بعد الحصول على الاستقلال أصبح الهمّ السياسي والاجتماعي الشاغل في الجزائر، هو البحث عن السبل الكفيلة ببنائها، ولن تكون عمليات البناء يسيرة في ظل الصراعات التي تدعّمت في فترة الاستقلال الأولى، لذلك كان لزاما على مختلف الأطراف السياسية الخروج من مأزق الخلافات، لكن ذلك لن يكون برضى جميع الأطراف وإنما ستفرض السلطة العسكرية نظام الحزب الواحد وترفقه بمشروع التيسير الذاتي الاشتراكي، وقد " تمّ تكليف الجبهة بوضع تصوّر لسياسة البلاد والسهر على تطبيقها وتوظيف طاقات الجماهير وتأهيل المناضلين الذين يجنّدون بدورهم كل الإمكانيات في خدمة الثورة."[1]

وستعتمد السلطة وخاصة في الفترة البومدينية على إدارة موروثة من الجهاز الاستعماري، وضباط فارين من الجيش الفرنسي وهو ما سيسمح ببروز فئتين مختلفتين اختلافا كليا في المجتمع، الأولى تتمثل في أقلية بيروقراطية وتكنوقراطية مهيمنة، تعمل على تبني مختلف مشاريع الدولة، وتساهم في القرارات السياسية والاقتصادية وتحاول تكييفها ما أمكن مع مصالحها الخاصة، وفئة ثانية تتمثل في الأغلبية الساحقة للمجتمع التي كان مشغلها الأهم حصولها على الحرية، أما بالنسبة إلى عمليات البناء فلم تتميّز مواقفها بشأنها بكثير من التجاوب.

وقد تميّز الوضع الاجتماعي بعد الاستقلال مباشرة بحالات تهميش لأغلبية الفئات الكادحة من عمال وفلاحين فيما سيطرت على الوضع الطبقة البورجوازية من بيروقراطيين وتكنوقراطيين، وهو ما ساعد على ظهور قوتان دعمتهما الدولة آنذاك، قوّة الإدارة وقوّة الجيش ورغم أن مراسيم مارس 1963 التي أعلنت عن الإصلاح الزراعي والتسيير الذاتي، كانت تدعي أنها تعتمد على العمال والفلاحين إلا أن ذلك لم يكن في واقع الأمر إلا غطاء يخفي

[1] كمال بوشامة، جبهة التحرير الوطني والسلطة (الجزائر 1962-1992)، مرجع سلف ذكره،25.

سيطرة الموظفين والضباط الذين كانوا يؤمنون بعجز الشعب عن تسيير شؤونه بنفسه مقتنعين بأنهم المؤهلون الوحيدون للتسيير.

فـــ"زاد التماسك على صعيد الموظفين المتضامنين فيما بينهم بفعل وظائفهم ومفهومهم للسلطة وقناعتهم المشتركة بشأن عجز الشعب عن أن يسيّر بنفسه شؤونه."[1]

وقد يكون لذلك ما يبرره خاصة أن الوضع الاجتماعي العام بعد الاستقلال مباشرة كان يتميز بالضعف" فبعد ثلاثة أشهر من التمزق والحيرة، أصبح في وسع الجزائريين أخيرا أن يقولوا إن الحرب انتهت. كانت القوى الاجتماعية التي ساندت الثورة قد تعرضت للنزف الشديد وكان الوضع الاجتماعي مأساويا."[2]

لذلك لم تكن الفئات الشعبية التي ادعت السلطة الاعتماد عليها مؤهلة حقا لتحمّل مسؤوليات التسيير الذاتي وذلك ما يمكن أن يفّسر عدم إقبال نسبة هامة من الشعب على الثورة الزراعية ما عدا الطلبة المتطوعين بطلب من السلطة وبدفع منها، وأصحاب النظرة الاشتراكية. ويمكن الإشارة إلى أنه كان يوجد تياران شيوعيان، الأول هو الحزب الشيوعي الجزائري و " يعرف الحزب الشيوعي الجزائري الذي هو امتداد للحزب الشيوعي الفرنسي بإخلاصه للاتحاد السوفياتي وبتقيده بأطروحاته التي لا صلة فعلية لها بحقائق البلد. ونظرا لحسن هيكلته فهو حاضر في أهم المنظمات الجماهيرية التي يقودها وهي: الإتحاد العام للشغيلة الجزائريين (UGTA) والإتحاد الوطني للطلبة الجزائريين (UNEA) وشبيبة جبهة التحرير الوطني (J.F.L.N)."[3]

---

[1] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، ص 310.

[2] محمد حربي، المرجع السابق نفسه، ص 308.

[3] عبد الحميد براهيمي، في أصل الأزمة الجزائرية: 1957-1999، مرجع سلف ذكره، ص 98.

أما التيار الثاني فيمثله مناصرو التسيير الذاتي" ذووا التكوين الماركسي والمختلفون عن الحزب الشيوعي الجزائري الذين عملوا على أن يوجهوا حركة التسيير الذاتي محاولين " تنظيرها" وتنظيمها"[1].

وهذه الفئة من الشعب ستعتمد عليها السلطة العسكرية والحزبية باعتبارها ممثلة للشعب في إطار التطبيق الاشتراكي، تساهم بدفع من الدولة في تنمية وعي غيرها من الفئات الاجتماعية وإقناعها بضرورة مساندة الثورة الزراعية، من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية التي كانت تتخذ منها الدولة شعارا في ظل الحزب الواحد وتحت سيطرة الإدارة والجيش، مؤكدة على ضرورة استمرار الثورة في شكلها الجديد، وهو مرحلة البناء اعتمادا على النموذج الاشتراكي دون أن تعترف بتوقيت عمل الثورة في ظل هذه الظروف التي حتمت تحكم فئة قليلة فقد كان " توزيع المهام في وزارة جدّ إستراتيجية كوزارة الدفاع يسيطر عليها مباشرة بعد الاستقلال الحضور القوي " للفارين " من الجيش الفرنسي أعلن عن نهاية الثورة باعتبارها تعبيرا عن الأمل وعن طموحات الشعب المتمثلة في الحرية والأخوّة والعدالة الاجتماعية."[2]

لقد سعت الدولة إلى بناء الجزائر بمساندة البيروقراطية التي تختلف مواقفها الماضية وتلتقي مصالحها وهي الإدارة الموروثة من الاستعمار، ولجأت إلى الموظفين الجزائريين ذوي التكوين الفرنسي إضافة إلى الجهاز الإداري للحكومة المؤقتة على الرغم من أن " البيروقراطية غير المجهزة ببنيان متكامل، وضعيفة التمايز، والمحرومة من أي دعم جماهيري، لا تمتلك إرادة الإشراف بطريقة ثورية على الدولة الموروثة من الاستعمار، ولا الوسائل التي تسمح بذلك. فهي قد جلبت معها إلى البناء الجديد الجيش،

---

[1] عبد الحميد براهيمي، المرجع السابق نفسه ، ص 90.

[2] عبد عبد الحميد براهيمي المرجع السابق نفسه، ص 90.

ومصالح الأمن العسكري، والديبلوماسية والإعلام وفي قطاعات الإدارة الأخرى، اكتفت بفرض رجالها قبل أن تخلق أنماطها الخاصة بها."[1]

وقد برّرت السلطة اعتمادها على هذه الفئات بحاجة الدولة إليها من أجل إنجاح مشاريع تهدف في أساسها إلى تحقيق ترقية اجتماعية ونهوض اِقتصادي وهو ما أعلنه بومدين : " إن بناء أي اقتصاد وطني مستقل يستلزم سنوات عديدة ويتطلب عملا متواصلا لا هوادة فيه وهذا ليس فقط لأنه يستوجب مبالغ مالية هائلة ولكن لأنه يفترض وفرة في الإطارات والفنيين، وبدا عاملة تمتاز بالكفاءة والوعي ويستلزم تنظيما عمليا للعمل وزيادة الانضباط في آداء الواجب وتغييرا جذريا في العقلية والسلوك، واعتبارا أدق لعامل الزمن في إنجاز أعمالنا ومهامنا بروح جديرة بالجدية التي كانت طابع أعمالنا الثورية أيام كفاحنا التحريري."[2]

وتؤكد السلطة أن اعتمادها على النخب المثقفة مهما كان مصدرها يحاذيه اعتمادها على الشعب في التطبيق الإشتراكي، وأهمية مساهمته على أساس أن الهدف الأساسي يتمثل في تحقيق ثورة شعبية تساعد على تقدم المجتمع الجزائري اِعتمادا على جميع أفراده دون استثناء فلقد تبين [للسلطة] أن الجزائر تملك قاعدة نضالية واسعة، وأن هذه القاعدة تستطيع أن تلعب دورا هاما عندما تتاح لها الفرصة، وأنها مستعدة دائما لتلبية نداء الثورة والتفاعل مع مهامها الكبرى."[3]

إن الشعب الجزائري الذي أنهكه الاستعمار والذي كان هاجسه الأكبر الحصول على الحرية والأمن، لم يكن مؤهلا لمناقشة المشاريع التي أعلنت عنها السلطة، خاصة أن الأغلبية الساحقة كانت تفتقر إلى العلم ما عدا نخبة

[1] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، ص 309.

[2] خطب الرئيس بومدين، 9 جوان 1965– 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره، ص 93.

[3] خطب الرئيس بومدين،9 جوان 1965– 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره ، ص 94.

قليلة لم يمن باستطاعتها الرفض وإنما الانتقاد المضمّن، وذلك شأن ابن هدوقة في روايتيه اللتين تناولهما بالدراسة، يقول: "أحاول أن آخذ من الواقع جزئيات متأزمة وأبني منها واقعا فنيا لا يختلف عن الواقع المعيش."[1]

ولم تكن مواقف ابن هدوقة السياسية واضحة تماما فقد كان يحاول أن يضعها في إطار حضاري وثقافي عام فيقول عن علاقة الأدب بالسياسة والأديب بالسلطة:" إن الممنوعات هي التي تنبع من اللاوعي.سواء أكانت اجتماعية أم دينية أم سياسية، وعملية الكتابة رفض لواقع معين."[2] فما الذي ستكون عليه نظرة ابن هدوقة إلى الفترة البومدينية؟

إن من يقرأ روايات عبد الحميد بن هدوقة يستطيع أن ينتبه بيسر إلى ميله إلى الأفكار الاشتراكية وتبنيه لها ، فمجمل أبطال الروايات وحتى لا نعمم نذكربعض شخصيات "الجازية والدراويش" و " نهاية الأمس" ذوو توجه اشتراكي يؤمنون بالعدالة الاجتماعية. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الهم الذي شغل ابن هدوقة في روايتيه هو حقيقة الوضع في الجزائر أيام بومدين والتسيير الذاتي ومدى تقبل عامة الشعب التطبيق الاشتراكي خاصة فيما يتعلق بالمسألتين الزراعية والثقافية (التعليم) وحقيقة الصراع بين المؤيدين لهذه المشاريع والرافضين لها

ميزت الفترة البومدينية ثلاث مسائل هامة وهي تكريس سياسة الحزب الواحد والاعتماد على البيروقراطية والتكنوقراطية في عمليات البناء إضافة إلى أهمية الثورة الزراعية وتأثيرها في مختلف الفئات الاجتماعية. ورغم أن ابن هدوقة لا يعلن عن موقفه من الفترة البومدينية بشكل صريح إلا أن ما يمكن إثباته هو أنه مساند للتسيير الذاتي وذلك من خلال توظيفه شخصيات

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية، ... مرجع سلف ذكره، ، ص 39.

[2] بوشوشة بن جمعة،المرجع السابق نفسه، ، ص 40.

ذات توجه فكري اشتراكي تتمحور حولها الأحداث وتصارع من أجل البقاء ومن أجل تجسيد نظرتها في المجتمع وتحاول أن تكون الفاعلة والمنظّمة، فهي تتفاعل مع مجمل الأحداث والوضعيات تفاعلا يجعلها لا تخضع إلا للفعل الإيجابي. ولعلها نظرة ابن هدوقة ذي النزعة الإصلاحية التي لا تتعارض مع بعض مبادئ الفكر الشيوعي واليسار الجزائري الذي لم يكن حرّا إبان الإستقلال، وهو أمر طبيعي في ظل نظام الحزب الواحد الذي لم يكفّ ابن هدوقة عن انتقاده حتى أن الجزائر بدت لعينيه سجنا كبيرا تكبت فيه الآراء ولا توظف فيه القوى البشرية إلا لخدمة مصالح السلطة والطبقات المتحكمة في القرارات تحت غطاء ما سمي "بالاشتراكية الخاصة". وذلك ما رمز إليه ابن هدوقة من خلال سجن الطيب وهو إحدى شخصيات رواية " الجازية والدراويش" تعبّر عن المثقف السلبي الذي يراقب الأحداث ولا يكون فاعلا فيها يقول:

" الأبرياء والشعراء يسجنون ! لكن من قال بأني بريء؟ أنا وحدي أدّعي البراءة" [1] وقد اتهم بجريمة قتل لم يقترفها وإنما كانت العادات والأعراف تقتضي تحمّله مشقّة السجن ما دامت القضية تتعلق بالشرف. لكنه يستيقظ في سجنه ليعيد ترتيب الأحداث وتقييمها من جديد فيقول في شبه اقتناع برجوع كفة القائلين بنظرة دائرية إلى الدين تعادي فكرة التطور:

" المستقبل هنا هو النظر إلى الوراء !"

على الجدار المقابل لسريري نقشت أرقام وصور وعصي صغيرة كالألفات. معلّم الكتاب قال لنا ذات يوم : الألف عصا لمن عصى ! "[2] وتلك حقيقة الوضع في الجزائر وخاصة في فترة بومدين التي كانت السيطرة فيها

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة ، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 7.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها ، ص 8.

للجيش والإدارة: "يضع الدركي القيد في يدي ويقول:" القانون" ! القيد قانون !"[1]

وقد انتقد الفترة البومدينية سياسيون ذوو توجهات فكرية مختلفة منهم فرحات عباس الذي فسّر تردي الوضع في الجزائر على النحو التالي:

"إن التعسف والبيروقراطية والتبذير ومحاباة الأقارب هي المرض الخبيث الذي يصيب الشعوب المتخلفة وخاصة منها تلك التي تخضع للحزب الواحد.

فعندما يصيب هذا المرض بلدا من البلدان فإنه يستغرقه وينتهي بتآكل كل الجسم الاجتماعي. ولقد بثّ هذا المرض في بلدنا المجيد بن بلّه وفاقم بومدين هذا المرض[2]

هذه الفترة تميزت بمنع نقد ثلاثة أقطاب وهي السياسة والجيش والإدارة وهو ما نتبيّنه من الحوار التالي بين الطيب والشاعر في سجنهما . يسأل الشاعر الذي تختلف أسباب دخوله السجن عن الطيّب:

" – وأنت لماذا سجنت؟

– حكاية طويلة، سأحكيها لك ذات يوم.

– هل شتمت موظفا كبيرا؟

– لا

– قدحت في ضابط؟

– لا

– هل انتقدت سياسيا؟"[1]

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 9.

[2] Farhat Abbas, l'indépendance confisquée, op. cit, p. 175.

ويؤكد محمد حربي سيطرة هذه الفئات واستحواذها على أجهزة الدولة إذ: "تميز المرحلة ما بين 1962 و 1979 السلطة المطلقة لبيروقراطية الدولة على المجتمع المدني، وصعوبة بناء حزب، وبروز مجتمع طبقات جديدة"[2] سيتقلد مهام التسيير وسيصادر قدر المستطاع الحريات وخاصة محاولات المثقفين فضح ممارسات هذه الطبقات اللامشروعة يسأل الطيب رفيقه في السّجن:

- " هل للشعراء نقابة؟
- بسببها أنا هنا، يمنعني لساني من الصمت، والكلام ممنوع...لأن النقابة ترى أن ضميري جزء من الضمير المسيّر ! حاولت أن أفهمها أن الشارع مكتظ بالنشالين الذين ينشلون مستقبل أجيال كاملة. قالت : وما دخلك ، أنت تدافع عن النقابة أم عن الشارع؟ رفضت، أرسلتني إلى ما وراء الطبيعة."[3]

والواقع أن الطبقات البورجوازية التي جعلت منها دولة الاستقلال " الطبقة المدللة" سعت منذ فجر الاستقلال إلى الاستحواذ على المناصب والأملاك و " لقد أدى نضال الشغيلة الاجتماعي إلى مصادرة أملاك البورجوازية الأوروبية لكن لصالح البيروقراطية التي وسعت قواعدها الاجتماعية بشكل كبير وحصلت على إمكانية إخضاع السيرورة الاقتصادية لأهدافها الخاصة بها."[4] وقد تختلف أسباب تمكّن هذه الطبقات من الارتقاء اجتماعيا لكنها تلتقي في الأهداف والمطامح نفسها وذلك هو شان شخصيتي " "الشامبيط " في رواية الجازية والدراويش و " ابن الصخري" في رواية " نهاية

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 175.

[2] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني : الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، ص 309.

[3] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 118.

[4] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني: الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، ص310.

الأمس" أما الشامبيط فيكشف ابن هدوقة عن طبيعة وضعه في قريته ووزنه بالنسبة إلى الحكومة:

" كانت مشاريع "الشامبيط" أعرض من حياته. لم يفكر في الموت. لماذا يفكر فيه والحياة تفتح أمامه آفاقا لأحلام زرقاء لا تراود حتى الشعراء ! لم ينج بحياته وأمواله فقط من الحرب، نجا بأحلامه أيضا! ذكاؤه مكّنه من اللعب على كل الحبال في الوقت الذي كان يفترض فيه أن يكون ملتقى للسهام. استطاع هو أن يكون موزع الورقات الأخيرة! عندما تتسدّ السبل بأصحابها يمرون به.

الأزمنة لم تكن لديه منفصلة. كانت تشكل إطارات ملائمة لإنجاح أعماله. الاشتراكيون والرجعيون، الدراويش والعقلاء الرعاة وأرباب المناصب... كلهم يجدون لديه تفهما وتعاطفا إن احتاجوا إلى تعاطف. كان يتعذر عن المستعذر!

طبعا، ذلك لا يعني أن الناس كانوا يحبونه، إنما كانوا يحتاجون إليه. وكانوا يعرفون أن مكانه لن يبقى شاغرا...إن ذهب هو سيأتي من يخلفه! الشنابط يتعاقبون على الشمبطة أكثر من الأولياء على الولاية، وهو كان يعرف كل ذلك... لم يكن في حاجة إلى حبّهم. ما يهمه منهم أن يكونوا سدى للحمته ينسج عليهم اللون الذي يريد، والثوب الذي يريد. ذلك هو المهم في نظره! "[1] ولعل هذه الشخصية تحيلنا على صورة الضباط الفارين من الجيش الفرنسي الذين استطاعوا بدعم من بومدين الحصول على مناصب هامة في الدولة رغم معارضة عدد من التيارات السياسية وذلك رغم رفض الشعب الذي لم يخضع لهذا الواقع الجديد إلا مكرها، لأن السلطة الحاكمة هي التي مكّنتهم من هذه المواقع الحساسة وجعلتهم يؤمنون بأهمية مساهمتهم في المشاريع المطروحة وبأحقيتهم في المشاركة في سلطة القرار حتى آل أمرهم إلى الاعتقاد أن الفرصة مناسبة لادعاء تبنى مبادئ الثورة والتأكيد على استمرارها اقتداء

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، صص 186-187.

بالسلطة، وقد وجدوا في هذا المسلك وسيلة لمسح عار "الخيانة" الذي التصق بهم حين كانوا منخرطين في الجيش الفرنسي، فما دامت السلطة تؤكد على استمرار الثورة في ثوبها الجديد باعتبار هالة القداسة التي ميزتها لدى الشعب، وعلى أساس أنها الورقة الرابحة بالنسبة إليها لكسب تأييده، فقد عملت هذه الفئة على الظهور بمظهر راعي هذه المبادئ وهو ما عبّر عنه ابن هدوقة حين يتحدّث عن الشامبيط الذي نصح بتزويج ابنه من الجازية / الثورة على النحو التالي:

" لكن النصيحة كانت تغلف أمرا لا مناص من تنفيذه ! ساوره الخوف... ثم شيئا فشيئا استجلى" النصيحة" ... إنه حلم العمر يتحقق، ! ابنه وأحفاده من بعده سوف يصبحون في الأفواه والأفكار حفدة أكبر فاعل في التاريخ."[1] لكن الشامبيط مهما فعل لن يستطيع مسح عار " الشمبطة " تماما " الناس لا يحبونه ولكنهم يخشونه. له أنصاره حتى خارج الوطن. حتى الآن، الجازية رفضته والعجوز عائشة رفضته ... لكنه خبيث ذو أحابيل ولعل مساعيه لتبنى قرية جديدة في أرضه ويبنى سدّ في سفح الجبل، يدخل في برنامجه المتعلق بالجازية. لو نجح كل شيء لضاع وأصبح جهاد المجاهدين عبثا من العبث!"[2]

ولكن رغم وعي عامة الناس يظل الشامبيط سلطة قوية عليهم مادامت السلطة تدعمه وهو ما يمكن أن نستجليه من خلال موقف عايد المهاجر العائد إلى الدشرة في الرواية الذي جاء حالما بالجازية:

" أنا لم أفهم سكان هذه الدشرة! ومن جهة لا يحبون الشامبيط، ومن جهة يرحبون به، ويتملقونه!

قالت الأم:

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، 188.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 68.

- لأنهم يخافونه!
- لماذا يخافونه؟ يستطيعون أن يطلبوا تبديله.
- ممن يطلبون تبديله؟
- من الحكومة

ضحكت هادية بأسى:

- هو الحكومة ! من يطلب من الحكومة أن تبدّل نفسها؟ إن أنصاره في كل مكان!"[1]

إن تبني الشامبيط مشروع بناء السدّ ونقل القرية سعيا منه إلى الظهور في مظهر من يساعد أهل الدشرة على الانتقال إلى قرية تسهل فيها الحياة الحديثة، ليس إلا وسيلة لدعم مصالحه الذاتية ولعلّ ذلك يذكرنا بسعي البيروقراطية منذ 1967 إلى المزيد من تركيز سلطتها وخدمة مصالحها " ولتصل البيروقراطية إلى أهدافها سوف تعمل على إشاعة الاعتقاد بأن المجتمع الطبقي الجديد [هو] مجتمع قائم على المساواة، وعلى توجيه حقد المستغلين الاجتماعي ضدّ الإمبريالية والبورجوازية الخاصة، وإثارة الحماس لمشاريع جرى تصورها من خارج المواطنين، وتشجيع مشاركة الشغيلة بمقدار ما تساعد أهدافها على التقدم وكبح تلك المشاركة في كل مكان تخاطر فيه بالوصول إلى تقاسم السلطة. في وقت قصير نسبيا خلقت البيروقراطية الجزائرية، بشكل مصطنع، اقتصاديا موجها مع بنية استبدادية للسلطة ثمّ تكاثرت الشرائح البيروقراطية، الاقتصادية والعسكرية والبوليسية على خلفية تسيطر عليها حركية اجتماعية كبرى وترييف للمدن، وهما ظاهرتان ملائمتان للتلاعب بتطلعات الشعب ولسلطة الدولة المالكة غير الخاضعة للرقابة"[2]

إن ما سبق يلخصه ابن هدوقة من خلال موقف عايد من تصرف الشامبيط:

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 143.

[2] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني : الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، صص 310-311.

" ما كان يخشاه عايد هو أن معرفة الشامبيط بعقلية السكان وتملقهم إياه، قد يسهل عليه مهمته !

أليس من ذكاء الشامبيط ومعرفته بخفايا الدشرة أن يبدأ مشروعه بما تبدأ به الدشرة حياتها، بالزردة ؟ سوف يرشو الجميع ويخوّف الجميع حتى ينال مقصوده. من ذا يستطيع أن يردّه عنها."[1]

إن الشعب الجزائري لن يستطيع ولن يتمكن من قبول أو رفض أي من قرارات السلطة، بل سيعمل في كثير من الأحيان على تهيئة الأسباب المناسبة لإنجاح مساعيها وتصديق ما تدّعيه من رغبة في تحقيق تقدم المجتمع الجزائري. إن هذا الأمر سيخدم طبقة أو طبقتين من المجتمع فحسب، حققت ما هي فيه بفضل التحايل على الحقوق العامة للشعب منذ خروج الأوروبيين من الجزائر بموجب اتفاقيات إيفيان، بعد الاستقلال فــ" تحت تغطية أوراق رسمية، وأحيانا من غير تغطية سوى تغطية التغاضي والمجاملة، راح ألوف من البورجوازيين الصغار يغتنمون ويحتكرون ويكتنزون ويصبحون ملاكا للعقارات والمساكن. إن الفرصة سانحة، والفيلات الفخمة الأنيقة تباع بألف فرك، والسيارات بخمسمئة فرنك."[2]

وقد حدث ذلك في كثير من المدن الجزائرية حسب عبد الحميد براهيمي فــ" في قسنطينة، انعدم الأمن وأصبحنا في وضعية وجدنا فيها مقاومين ممن لم يعيّنوا بعد في وحدات أعيد تنظيمها مؤخرا يقومون بتجاوزات من شتى الأنواع. فقد سمح بعضهم لأنفسهم بأن يحتلوا بدون ترخيص إداري شققا وفيلات تركها أوروبيون، وبعضهم استولى بطريقة غير قانونية على محلات تجارية تركها مالكوها الأوروبيون الذين غادروا الجزائر بصفة نهائية ."[3]

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، صص 156-157.

[2] شاليان جيرار، مصاعب الإشتراكية في الجزائر، مرجع سلف ذكره، ص 32.

[3] عبد الحميد براهيمي، في أصل الأزمة الجزائرية 1957-1999 ، مرجع سلف ذكره، ص 86.

إن هذه الطبقات المهيمنة التي ستجد سندا لها في البيروقراطية ستعمل على حماية مصالحها التي تعارض المصالح العامة ، فالإقطاعيون مثلا سيعملون على تعطيل الثورة الزراعية وتلك هي حال " ابن الصخري" وهو إحدى شخصيات رواية " نهاية الأمس " الذي يصفه "بوغرارة" وهو أيضا شخصية من شخصيات الرواية على النحو التالي:

" ماذا يعمل ! هل هو في حاجة إلى العمل؟ إنه ملاك، هو أغنى سكان هذه الناحية. الفقراء أمثالي يعملون وهو يجني الثمر."[1] إنه معمر جديد يستغل غيره ليزيد من تبرجزه، يواصل بوغرارة الحديث فيقول للبشير: " أرأيت ذلك الواقف إلى فأسه هناك، إنه عامل بالبستان وحارس. هذا عمله طوال السنة. حتى أكله لا يستطيع تناوله مع أهله. ولو سألته كم يتقاضى عن عمله هذا وسجنه الدائم لضحكت مرارة. على أكثر تقدير يتقاضى قنطارا من البرّ ومائة دينار أو أقل في الشهر" [2]، وذلك ما يعزز عمق التفاوت الطبقي في الجزائر زمن الثورة الاشتراكية والتسيير الذاتي فـــ" دار ابن الصخري لا تظهر من القرية ولا من المدرسة، تقع في مكان منخفض يبعد عنهما بنحو ثلاثة كيلومترات، وإذ وصل البشير ورفيقه إلى ربوة مشرفة عليها اندهش لما يرى: بناية ضخمة ناصعة البياض بقرميد أحمر قان. بستانا واسعا أمامها على بضعة هكتارات أشجار كثيفة متراصة تحفّ الطريق المؤدية إليها. أبقار عديدة من النوع الحلوب ترعى في مرج بالبستان الشاسع. وقال لصاحبه بتعجب:

- أيوجد مثل هذا البناء في قرية بائسة؟
- ولم لا؟ المال والماء والأرض الطيبة...إن الأراضي الفقيرة يملكها الفقراء يا صاحبي."[3]

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، رواية سلف ذكرها، ص 113

[2] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 113.

[3] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 193.

إن سلوك هذه الطبقة البورجوازية سيتميز بممارسات تذكّر بممارسات الاستعمار ولكن في ثوب جديد، إذ ستجتهد في تكديس أموالها وممتلكاتها بطرق مختلفة وذلك ما كان يحدث خاصة في الريف الجزائري حيث يعمد الإقطاعي إلى الاستيلاء الفاضح على ممتلكات فقراء الفلاحين ، يصف ابن هدوقة ذلك في حوار بين البشير وابن الصخري:

" في الربيع عندما تطول الأيام وتفرغ المخازن والبطون وتهون في سبيل الخبزة حتى الحياة، يأتي الرجل ليشتري البرّ أو الشعير دينا. من يدينه؟ هل الفقير مثله؟ طبعا لا ."[1] فيعلق البشير قائلا:

- " ابن الصخري...
- نعم ابن الصخري، هو الذي تمتلئ مخازنه بالقمح والشعير ، يبيع قمحه أو شعيره دينا لكن بشرط....
- ما هو هذا الشرط؟
- أن يرهن له المدين قطعة أرض أو بستانا كضمان لدينه وعندما يحين أجل الدين لا يجد الفقير ما يسدد به دينه فيستولي هو على الأرض المرهونة."[2] ويفصّل البشير أكثر طريقة الاحتيال عندما يقول:

" – إذا كان القنطار يساوي مائة دينار معجلا هو يبيعه له بمائتين مؤجلا.

- هو ذاك تماما !
- حتى إذا حان الحصاد وهو أجل تسديد الدين عادة، وعندئذ إما تكون السنة جدباء وهو الغالب فلا يجد ما يسدد به دينه بل يظطر إلى دين جديد لقوت عياله، فتذهب أرضه المرهونة، وإما أن تأتي السنة خصبة فترخص الأسعار فإذا القنطار الذي كان يساوي مائة دينار

[1] عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، رواية سلف ذكرها، ص 114

[2] عبد الحميد بن هدوقة،المصدر السابق نفسه، ص 114.

يصبح لا يتعدّى الخمسين، فيبيع غلّته لتسديد الدين واسترجاع أرضه، ثم لا تنقضي أسابيع أو شهور حتى لا يجد سبيلا للحصول على القوت إلا عن طريق ابن الصخري...وهكذا إن لم تذهب الأرض في المرّة الأولى ذهبت في الثانية. أليس كذلك؟

- هو ذلك بالضبط. قل لي، من أين تعرف هذا؟
- من المعمرين، كانوا هكذا يعملون، وابن الصخري ماهو إلا معمّر من المعمّرين."[1]

إن مكانة الطبقة البورجوازية الاجتماعية ستمكّنها من التحالف مع بقية الطبقات ذات التأثير في المجتمع وخاصة البيروقراطية التي كانت تتغاضى عن هذا الواقع فلا تطبق ما يوكل إليها من قرارات تصدرها الدولة لصالح عمليات البناء وذلك هو شأن "سي قدور"، ابن الصخري في الرواية، وهو كاتب عام في البلدية حاول أن يعرقل مشروع نقل الماء إلى المدرسة:

"إن رئيس الدائرة أعطانا التعليمات لنقل الماء إلى المدرسة. صعق ابن الصخري من مفاجأة النبأ فجلس وقال:

- وكيف العمل؟
- لا نستطيع أن نعمل شيئا. إن وزارة الداخلية أعطت التعليمات بنقل الماء إلى المدرسة في أقصر وقت ممكن. فلا أحد يستطيع أن يمانع أو يماطل. إن رئيس المجلس البلدي وبّخني على أنني السبب في تعطيل المشروع قبل اليوم."[2]

نعم لقد وجدت فئة قليلة تصدت لعمليات الاستيلاء على الأملاك العامة وساندت التسيير الذاتي والثورة الاشتراكية وحاولت الحدّ من الاستغلال بالإقبال على المشروع الإشتراكي وتنمية الوعي الاجتماعي بقيمته وجدواه في

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس ، رواية سلف ذكرها. صص 114-115.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 194.

الحدّ من التفاوت الطبقي وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية وتجاوز مشكلات الفقر والجهل ولكن هذه الفئة لم تتمكن من التأثير الحاسم في سير هذا الصراع، وقد نسب ابن هدوقة وهو الإصلاحي الذي يأخذ بالتاريخية العقلانية، إلى هذه الفئة نظرة ثورية تستمد مقوماتها من التيار المادي التاريخي أي الشيوعي الذي يعتبر أن تحقيق ثورة اجتماعية، لا يكون إلا بالاعتماد على الشعب أي على الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين... ويمثل هذه النظرة في رواية " الجازية والدراويش" الطالب " الأحمر" ، والحمرة تحيلنا على التيار الشيوعي، أما في رواية "نهاية الأمس" فتمثل هذا التيار شخصية "البشير" الذي يتّقد حقدا طبقيا، وإيمانا ثوريا يدفعه إلى النضال المستميت من أجل بذر أفكاره وتصوراته.

إن التيار اليساري بصفة عامة سيعمل في الجزائر على تدعيم الثورة الزراعية وذاك أمر طبيعي ما دامت هذه الثورة مطلبا من مطالبه حتى قبيل الحصول على الاستقلال، وإذا كان هذا التيار لم يلق دعما غير مشروط من السلطة، فإنه سيستغل مع ذلك استنادها عليه في تحقيق مشروعها لتغيير عقلية المجتمع الجزائري وتنمية وعيه الثوري، فإذا كانت"الجازية" ترمز إلى الثورة فإن "حجيلة" قد ترمز إلى جزائر الاستقلال، جزائر الإصلاح الهادئ التي تفتح ذراعيها لتحقيق إنجازات جديدة لكل ما يفد عليها ويعدها بتغيير الأوضاع، فحجيلة تعجب بالطالب " الأحمر" لكنه يموت، ثم تعشق عايد العائد من المهجر وتر فيه السبيل إلى الانعتاق من سجنها الموروث عن الإستعمار ونقصد سجن التخلف والفقر والجهل فنحن إذن بإزاء نموذجين تغييريين يقولان معا بفكرة التقدم ولكن أحدهما الممثل في الأحمر يدعو إلى التغيير السريع، وثانيهما التغيير البطيء.

يستعيد الطيب الحوار الذي دار بين " الأحمر" وحجيلة:

"– أنت النموذج الأمثل للهدم وأخوك النموذج الأمثل للصيانة (...) أختي راقها التعبير، قالت مؤيدة:"ينفجر كل شيء، المساكن، الحيوانات، السكان، العين،

الصفصاف، الجبل...كل شيء وتعلو نار حمراء تحمر منها الآفاق المحيطة بنا، ويرى لهبها من آلاف الأميال! حتى يعلم الناس في كل مكان أنه وقع انفجار ضخم لا تعرفه الدنيا! ما أجمل أن ترى العين ذلك"!

قلت لها:" ستكونين أنت أولى أجزاء تلك النار"!

لم تخجل مني ولم تتردّد، قالت:" ولم لا؟ "[1]

إن " الأحمر" الذي يقول بالنظرة الراديكالية، لن يبقى إلا فكرة، إذ سيموت لتحل محله النظرة الإصلاحية التي ترى أن للمجتمع الجزائري خصوصيات لا تسمح بأكثر من تبني " اشتراكية خاصة" ومثل هذه النظرة عبرت عنها شخصية "البشير" في رواية " نهاية الأمس":

" إن بناء الاشتراكية يؤذيه التأييد المطلق غير المشروط. إن موقف التقدمي من كل ثورة اشتراكية هو من حيث المبدأ موقف التحالف والتأييد مع النقد."[2]

إن هذا الموقف هو تقريبا موقف ابن هدوقة الذي عبّر من خلال شخصية "البشير" المتزنة التي تنظر إلى مختلف أوجه القضايا المطروحة على جزائر الاستقلال وتقيّم الواقع بالاعتماد على أسلوب عقلاني تحليلي وتدريجي على عكس شخصية "الأحمر" المغرقة في الإندفاع نحو التغيير الجذري. فالبشير الذي يعود إلى القرية بعد أن عايش تجارب مختلفة، لن ينسلخ عن ماضيه بل سيحاول الانطلاق منه والبناء عليه وهو المنهج الذي سلكته السلطة حين قررت المشروع الاشتراكي وأدرجته في إطار استمرار الثورة. ومنذ البداية سيواجه البشير صعوبات عديدة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وهو ما يبّينه خاصة حوار البشير مع سائق السيارة الذي يقوم بنقله إلى القرية التي سيضطلع فيها بمهمة التعليم:

" – هذه الطريق... أترى سيارة " دس" الكترونية تستطيع السير معها؟

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 122.

[2] شاليان جيرار، مصاعب الاشتراكية في الجزائر، مرجع سلف ذكره، صص 8–9.

- كلا يجب لها سيارة شحن أو " لاندروفير" مثل هذه ...كذلك مدرسة هذه القرية يجب لها معلم " لاندروفير"!

ابتسم البشير لهذا التشبيه الطريف! وقال في نفسه" قد أكون أنا هذا المعلم لاندروفير..."[1]

إن هدف البشير من السفر البعيد إلى القرية يكشفه ما يلي:" لم يقدم على المجيء إلى القرية من أجل تعليم الأطفال القراءة والكتابة فحسب بل بدافع أعمق من هذا ولغاية أبعد من التعليم. إنه جاء ليحرّض الناس أن يثوروا على أوضاعهم، جاء ليحدث انقلابا في حياة هذه القرية النائمة، جاء ليقول لهم إنهم يعيشون خارج الزمن وخارج التاريخ، وخارج التطور البشري. سوف يكلم المرأة والرجل ويكلم الصغير ويكلم الكبير ويقول لهم أفرادا وجماعات: إننا مازلنا مجتمعا بدائيا، لم نبتعد كثيرا في تطورنا عن العجماوات. إن حاضرنا هو أمس البشرية الدابر. إن حظوظنا من التخلف تفوق حظوظ الأمم الراقية في الرقي.إننا في المدن وفي القرى مازلنا نحيا حياة غيبية ما ورائية بلا زمن."[2]

فنظرة البشير مثلما يدل عليه الشاهد هي نظرة تاريخية عقلانية تقول بفكرة التطور وتعادي النظرة الدائرية إلى الزمن، التي عبّر عنها الشاعر القديم عندما نظم :" وآخرها بأولها نسبيه" ولذلك ستلقى مثل هذه النظرة مقاومة " غريزية " ريفية لأن هذا المجتمع مازال " يحيا حياة غيبية [أي يعتمد نظرة لا تاريخية إلى الزمن] ما ورائية بلا زمن" مما سيضطر الآخذين بفكرة التطور وإن بشكل بطيء إلى نهج سياسة التطوير القسري للمجتمع:

" إن المجتمعات الجاهلة تساق إلى المستقبل بالركل وأعقاب البنادق. لن يأتي إصلاح عن طريق الديمقراطية في شعب جاهل... لم تكن ولن تكون

[1] عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، رواية سلف ذكرها، صص 7-8.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نقسه، ص 28.

الديمقراطية في يوم من الأيام صالحة لبناء الاشتراكية في شعب جاهل... الانتحار الحقيقي لكل إنسان أن يعيش راضيا وسط شعب متخلف أو مجاملا لثلة من المنافقين. الثورة الدائمة هي الكمال للإنسان."[1]

ورغم أن ابن هدوقة ينتصر في هذه الرواية للتيار الاشتراكي ليجعل من البشير شخصية نموذجية استطاعت أن تحقق أهدافها ولو نسبيا فقاومت البورجوازية عقلية المجتمع التقليدية القائمة على العادات والتقاليد والتي ترى في الحداثة الوافدة عليها حيدا عن الشريعة الإسلامية، فإنه لم يخرج في نهاية التحليل، عن "إصلاحيته" المستندة إلى نظرة تاريخية عقلانية إلى الأشياء، تميل على عكس النظرة التاريخية المادية، إلى " الأخذ من كل الأشياء بطرف" وهو أمر يفسر موقفه المعتدل من فترة الاستقلال، وهو موقف يناقض، مثلا موقف بعض من تشددوا مثل محمد حربي، في الحكم على النظام الجزائري زمن الإستقلال:

" ليس النظام الجزائري إذا نظاما اشتراكيا ولا هو نظام انتقالي نحو الاشتراكية. إنه نظام بيروقراطية رأسمالية. لقد كان دور الدولة حاسما في تكوين المجتمع، إذ خلقت بشكل مصطنع بورجوازية وطبقة عاملة جديدتين واستوظفت الأنتلجنسيا. كل الطبقات ألحقت بها، فعناصر الطبقات المدينية، لاسيما المنبثقة من الأرياف لم تتجذّر بعد في بيئاتها الجديدة ولا تزال مطبوعة إلى حدّ بعيد بالثقافة الفلاحية."[2]

يشير محمد حربي في الشاهد المتقدم إلى مسألة على غاية من الأهمية، هي المسألة الثقافية التي ستكون موضوع الفصل التالي.

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة،المصدر السابق نفسه، ص 128.

[2] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني: الاسطورة والواقع، المرجع السابق نفسه، ص 312.

الفصل الرابع:

المسألة الثقافية

" إن من يعمل على تحرير الآخرين يجب أن يكون أولا حرا"

عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، ص 67.

" الناس متفقون على لفظ الثورة لا على معناها، فهي عند البعض رجوع إلى الماضي وإقتفاء آثار الآخرين، وهي عند البعض الآخر الأخذ من هذا الماضي بما يتفق مع شخصية عربية إسلامية لجزائر ناهضة متفتحة، وهي عند قوم إنطلاق من الصفر، وضرب بكل مخلفات الماضي عرض الحائط."

عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، ص 68.

ارتبطت المسألة الثقافية في الفترة البومدينية بالثورة الزراعية والتسيير الذاتي، ويمكن القول إنها كانت انعكاسا لسياسة الدولة والمشاريع الاقتصادية، فقد تمّ إرساء مخططات جعلت كل تحول في المجتمع اقتصاديا وثقافيا مرتبطا بتأثير سياسة الدولة في البنى الاجتماعية، ويذهب البعض إلى وصف التجربة الاشتراكية بالفشل، الذي بدا خاصة على المستوى الثقافي، وقد يعود ذلك إلى عدة مسائل هامة أثرت تأثيرا واضحا في تحقيق ثورة ثقافية شاملة، وأهم هذه المسائل، المسألة الإسلامية في علاقتها بالفكرة الاشتراكية والتعريب وقضية المرأة.

إثر الاستقلال كان المجتمع الجزائري مثل لوحة فسيفساء تختلط فيها ثقافات مختلفة، العربية الإسلامية والبربرية والرواسب الاستعمارية متمثلة في تغلغل اللغة الفرنسية في النسيج الاجتماعي والثقافي الجزائري، إضافة إلى وجود ثقافة سياسية بلورتها مائة وثلاثون سنة من الاستعمار وثمانو سنوات من الكفاح المسلح، ولم يكن من السهل على الفرد الجزائري الذي تتفاعل فيه جميع هذه الثقافات، الانتقال من زمن الاحتلال إلى زمن السياسة الوطنية الذي تتبلور فيه تصورات جديدة لذات جزائرية تبحث عن خصوصية تخرجها من دائرة الاستلاب والتهميش اللذين كرستهما السياسة الاستعمارية وعمل عدد من الفئات الاجتماعية الجزائرية على توظيفهما حتى بعد حصول الجزائر على استقلالها.

إن بناء الجزائر لم يكن ممكنا بغير الوصل بين ماضيها وحاضرها فمرحلة الاستقلال تعدّ إذن حلقة مفصلية من حلقات تاريخ الجزائر وقد عمل بومدين على المزيد من التمكين لفكرة الوصل هذه، فاعتبر أن فترة الثورة الاشتراكية هي امتداد للثورة المسلحة. ذلك أن اختيارات السلطة البومدينية آنذاك كانت تهدف إلى تجذير الهوية الوطنية، " ولعل [ذلك هو] ما يفسر أن البعد الثقافي كان دائما في عهد بومدين، مكمّلا ومتمّما للاختيارات الاقتصادية

والتنموية والتكنولوجية التي تبنّتها السلطة آنذاك لتدعيم الهوية الوطنية من جهة، والانتماء العربي الإسلامي من جهة أخرى، فجاءت الثورة الثقافية بمدّها التعريبي، لتؤكد الاختيارات السياسية وتدعّمها وتعطيها بعدها الشعبي."[1] وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الهوية الجزائرية تقوم على العروبة والإسلام.

لقد غدا التطبيق الاشتراكي في الجزائر زمن بومدين طريقا أمثل إلى إرساء ثقافة وطنية جزائرية مستقلة، وقد عمل بومدين منذ اِنقلاب 19 جوان 1965 على الإبقاء على نظرة واحدة إلى الثورة وتصور واحد لها، ويمكن القول إن من خصائص الشعب الجزائري ذي الثقافات المختلفة أنه لم يكن من الممكن توحيده أو دفعه نحو تقدم حضاري " قسري" إلا بإخضاعه لتوجيه حزب واحد، وهو حزب جبهة التحرير الوطني، فلقد كان بومدين يرى في الجزائر دولة ذات سيادة وطنية عربية إسلامية "اشتراكية". لكنّ هذا التصور لم يكن من اليسير على كل الطبقات تقبّله. فكما كان هناك اندفاع نحوه بتوجيه من السلطة، كانت هناك أيضا محاولات عرقلة وإحباط سواء من أطراف سياسية معارضة أو غير سياسية كانت ترى في الثورة الزراعية والتسيير الذاتي مساسا بمصالحها ومكانتها في المجتمع. فالإسلاميون كانوا معادين للاشتراكية لأنها كانت في نظرهم تتعارض مع الدين، والمتفرنسين كانوا يرفضونها لأنها كانت تقترن بمشروع التعريب، أما البورجوازيون فكانوا يرون فيها ضربا لمصالحهم ومكانتهم الاحتماعية .

هذه الاختلافات أوجبت أن يكون دور المثقف هو نقد هذا الواقع المتأزم، أي محاولة تصحيحه من خلال نظرة موضوعية تعمل على تسجيل هذا الواقع وتحليله، وذلك هو شأن عبد الحميد بن هدوقة في روايتيه" الجازية

[1] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي،مرجع سلف ذكره، ص 204.

والدراويش' و" نهاية الأمس " فهذا الكاتب الذي تحكمه نظرة سياسية سلف أن تعرضنا لها، فقلنا إنها مشبعة بفكرة العدالة الاجتماعية، كان يؤمن بأن " الأدب في اعتقاد [ه] محاولة لإبراز الواقع من وجهة نظر معينة وتحقيقه فنيّا. هو نقل الواقع المعيش بمصفاة اللاوعي التي تختزن المكونات الاجتماعية والثقافية والنفسية للكاتب والواقع المتأزم هو الذي يهمّ [ـــه] في الكتابة، وحيثما تكون هناك زوايا مظلمة فهي التي تلفت نظره."[1] وعلى هذا الأساس فإن مواقف ابن هدوقة لن تكون مواقف السياسي الذي يحمل تصورا سياسيا خاصا، وإنما هي مواقف مثقف يملك رؤية وتصورا حضاريين: " لقد تفاعلت عوامل اجتماعية وثقافية ونفسية جعلتني أنظر هذه النظرة للواقع". [2] وفي موضع آخر يؤكد ابن هدوقة على أن نظرته هذه هي نظرة مثقف بلور رؤية شاملة لعصره:" أعتقد أن الكاتب إذا تحزب انتهى حتى وإن كنت شيوعيا أحاول أن أفرق بيني وبين الشيوعي. فضرورات الحزب غير ضرورات الكتابة"[3]

ولعله هاهنا يحاول إثبات أن نظرته إلى الجزائر زمن الاستقلال هي نظرة تجتهد قدر المستطاع حتى تكون موضوعية أي فاترة الصلة بالمواقف الشخصية على عكس الطاهر وطار الذي ينتمي إلى اليسار الجزائري ويؤكد انصهاره فيه حتى النخاع. لكن ابن هدوقة كان مع ذلك يرى في الاشتراكية سبيلا لتحقيق نهضة الجزائر الحضارية:" لا بد من تغيير جذري إقتصادي إذ لا بد لمجتمع متخلف كالجزائر وفقير ذهنيا أكثر منه اقتصاديا أن يعيد النظر في البنى الاقتصادية التي لا بد أن تكون اشتراكية لتحقيق حدّ أدنى من المساواة بين الناس في التعليم والصحة والعمل. والاشتراكية ليست المرحلة

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية...مرجع سلف ذكره ، ص 44.

[2] بوشوشة بن جمعة، المرجع السابق نفسه، ص 31

[3] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية...مرجع سلف ذكره ، ص 37.

العليا التي هي مرحلة الاقتصاد الحر حيث يصبح الفرد قادرا على الدفاع عن نفسه ."[1]

وبذلك يقول ابن هدوقة أن الإمكانية الوحيدة المتوفرة زمن الاستقلال (لتحصين) المجتمع الجزائري وتدعيم هويته الخاصة ، تكمن في الحل الاشتراكي، لكن الاشتراكية ستصدم بعدد من العراقيل لعدة أسباب أهمها على الإطلاق أنها تصور لم ينبع من داخل المجتمع الجزائري ذي المستوى الحضاري المتدني الذي تغلب عليه النظرة التقليدية ما قبل الرأسمالية إلى الأشياء، وإنما تم استيراده و " إسقاطه" عليه وذلك هو بالذات ما سيستغله عدد من الأطراف لمحاربة "الاشتراكية الخاصة" على أساس أنها تعتبر بمثابة استعمار ثقافي جديد، وذلك بالرغم مما حاولت الدولة أن تؤكده من أن هذه الاشتراكية الخاصة لا تمس بالمقومات الدينية الإسلامية للجزائر. لقد اعتبر معارضوها أن " أخطر ما يواجهه المجتمع الجزائري بعد الاستقلال هو خطر التغريب والغزو الثقافي الذي راهن عليه الإستعمار ليبقي الجزائر في فلكه حتى بعد خروجه منها، وقد وجد هذا الغزو الجو المناسب في ظروف جزائر ما بعد الاستقلال الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وفي الظروف الحضارية التي يعيشها العالم الإسلامي ككل، فوقع استيراد الحلول والمناهج الغربية التي لا تنسجم مع ثقافتنا وذاتيتنا الإسلامية".[2]

لقد كان على السلطة، أمام هذا الرفض للاشتراكية أن تعبئ الجماهير تعبئة ذهنية لتقبل الفكرة الاشتراكية، خاصة أنه يصعب على الفرد الجزائري الذي يحكمه تراث ديني صارم هضم توجه يخالف– حسب ما كان يصرح به الدعاة الدينيون وهم الأكثر تأثيرا فيه– معتقداته. إن ذلك هو ما يفسر تحفظ

---

[1] موسى بن جدو، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، الجزائر، جامعة الجزائر، معهد اللغة والأدب العربي ، 1989–1990، ص11.

[2] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية ...، مرجع سلف ذكره، ص44.

الفئات الاجتماعية إزاء الثورة الاشتراكية وقد أكد المنصف وناس على أن ذلك يعود إلى " عدم استعداد البنى الذهنية الجزائرية بما فيه الكفاية لتقبل الاشتراكية بدليل أن من أسباب فشلها الرئيسية تعامل الجماهير معها تعاملا سلبيا باعتماد سياسة اللامبالاة"[1]

يمكن الإشارة إلى أن نص ابن هدوقة لم يعالج جميع القضايا المتعلقة بالمسألة الثقافية وإنما اقتصر على الظاهرة الإسلامية لعلاقتها بالمشروع الاشتراكي ومسألة الثورة الزراعية والتعليم ومكانة المرأة في المجتمع، وهو ما سنحاول بيانه من خلال تحليلنا.

لقد سعت السلطة إلى اعتماد الإسلام إطارا مرجعا حتى تضفي على الاشتراكية سمة الشرعية و"رغم العلمنة المرتبطة بالاشتراكية، فإن مرحلة البومدينية تميزت بتوظيف الإسلام توظيفا دائما بهدف خلق إجماع وطني وشعبي عارم حول اختيارات بومدين الاشتراكية"[2]، إلا أن الفئات الاجتماعية لم تستطع استيعاب الفكرة الاشتراكية باعتبار أنها تعارض في نظرها مبادئ الإسلام. هذا الموقف مردّه الأساسي إلى ضيق الأفق الفكري عند فئات المجتمع الريفي الذي يمثل الأغلبية ذات الثقافة والوعي التقليديين المتحفظين إزاء ما يفد من نظريات وتصورات حديثة، فلم يكن من اليسير إذن تقبل ما سمي بـــ"الاشتراكية الخاصة" في الجزائر رغم عمل الدولة على تأكيد اِختلافها مع "الاشتراكية العلمية" في مسألتي الدين والقومية منذ فترة حكم ابن البله. وستستغل الطبقات البيروقراطية والتكنوقراطية والبورجوازية الصغيرة التي يدعّمها رجال الدين والتراث الإسلامي لمحاربة الاشتراكية فتضطر الدولة بدورها إلى الاستعانة باليسار الجزائري والطلبة من أجل توعية عامة الناس بأهمية الثورة الزراعية والتسيير الذاتي، فأصبح عامة الناس نتيجة ذلك

[1] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية، في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره، ص 44.

[2] المنصف وناس، المرجع السابق نفسه ، ص 104.

واقعين بين مطرقة الدولة " اليسارية" خطابا على الأقل و"سندان" تكتل المحافظين.

لقد كانت مهمة إعادة صياغة الوعي الجماعي من أجل التخلص من التبعية شاقة، خاصة أن ما يعيقها إنما هو تراث المجتمع الجزائري التقليدي الذي ما زال يقوم على الأحباس والإفتاء والتشاريع الإسلامية أي ستعثر فيه الطبقات المتميّزة على مرتكز هام يساعدها على إحباط المشروع الاشتراكي، وذلك ما نتبينه في رواية " الجازية والدراويش" من خلال دور " الشامبيط" الذي يمثل الطبقة التكنوقراطية التي أصبحت تحلم بالاستيلاء على الجزائر بعد أن لقيت حظوة من الدولة لحاجتها إليها " أو ابن الصخري في رواية "نهاية الأمس" وهو يمثل البورجوازية الصغيرة التي تسعى إلى حماية مصالحها وممتلكاتها بطرق مختلفة.

لقد كان يدعم الثورة الاشتراكية خاصة، اليسار الجزائري الذي يعتبرها سبيلا إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وقد مثل هذا الاتجاه شخصية " الأحمر" في رواية "الجازية والدراويش" إذ كانت أحلامه أكبر من الدشرة والسكان والدراويش وجامع "السبعة" و"الشامبيط" ومشاريعه جادة وحالمة يرى فيها تحقيق حاجة الجازية الحقيقية إليها:

"عندما جاء الأحمر، الطالب المتطوع صاحب الحلم الأحمر، لم يتحدث أمامها (الجازية) عن حبه، تحدث عن عيون تسيل إلى أعلى ، عن شموس تخرج من الأرض، عن مناجل تحصد الأشعة عن مستقبل يتجه كلية إلى المستقبل... "[1] إلا أن هذه المشاريع التي لم تنبع من الدشرة / الجزائر ذاتها، لا يمكن أن تلقى قبولا مهما كانت جدواها فالمستقبل لا يمكن أن يبنى إلا انطلاقا من الماضي، فـ"الطالب الأحمر صاحب الحلم الأحمر أراد أن يبذر

[1] عبد الحميد بن هدو قة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص 17.

أحلاما حمراء في رؤوس تبنت الماضي"[1]. ولعل أهمية العلاقة التاريخية والثقافية والحضارية بين الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة إلى أي مجتمع، تثبتها نظرة ابن هدوقة الإصلاحية التي لا تقول بالقطع الجذري مع الماضي والتراث وإنما تعتمد عليه لبناء الحاضر والمستقبل، يقول عن شخصية "الأحمر": "شخصية الأحمر ترمز إلى النظرة الشيوعية ومهما كانت أفكاره جميلة فإذا لم يتمسك بالجذور يموت أو يقتل نتيجة التطرف. لا يمكن أن تضع مجتمعا مكان آخر. الشيوعية كمذهب اجتماعي واقتصادي ممتاز. لكن الشيوعيين والحكم الشيوعي شيئا آخر. هم السلطة الدكتاتورية القمعية فالنظرة الشيوعية شيء والتسير شيء آخر ولا بد من التفريق لنأخذ ما ينسجم ومقوماتنا وجذورنا وبين التبعية العمياء".[2]

فهل أن هذا الموقف يمكن اعتباره موقفا مساندا لتوجه السلطة التي قالت باعتماد بعض المبادئ الاشتراكية التي لا تعارض خصوصية المجتمع الجزائري العربي الإسلامي والبربري؟

إن استنبات الاشتراكية في بيئة عربية إسلامية يتطلّب دربة ذهنية وسياسية طويلة وقدرة تنظيمية على التعبئة وثقافة سياسية مؤثرة".[3] وذلك هو بالذات ما افتقده الطالب "الأحمر" الذي ذهب إلى الدشرة بتصور يعارض هويتها، لذلك تعاضدت جملة من العوامل لمعارضته وأهمها عقلية السكان الريفية التقليدية، واعتماد "الشامبيط" عليها في البداية لحث السكان على الانتقال إلى قرية جديدة ، من أجل تحقيق مطامحه.

إن عقلية تقليدية محافظة لا تستطيع الانسلاخ عن تاريخها وماضيها يصعب عليها احتضان ما يرد عليها بسهولة، وتلك هي حال سكان الدشرة /

---

[1] عبد الحميد بن هدو قة،المصدر السابق نفسه، ص 22.

[2] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية ...، مرجع سلف ذكره، ص 48.

[3] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره، ص 53.

المجتمع الجزائري وهو ما يعبّر عنه موقف الطيب ابن الجبايلي من أبيه: " أبي قال ذات يوم ونحن نتحدث عن القرية الجديدة: " لو أكون في السماء لكفاني أن أغمض عيني لأجد نفسي هنا في الجبل ! أنت وأمثالك لا تفهمون شيئا لحياتنا... للإنسان جذور تربطه بالأرض كالشجرة. هل يمكن لشجرة أن تحيا بلا جذور"[1] ورغم أن الجزائر ممثلة في السلطة أرادت إنجاح المشروع الاشتراكي، إلا أنها لم تراع طبيعة المجتمع الجزائري الذي يستميت في تمجيد ماضيه وتاريخه، " ما أغبى الجازية /(الجزائر) ! تحلم بمستقبل في أرض زمانها ماض مستمر؟ ينبغي إغراق الماضي أولا. إغراق الدراويش، إغراق " السبعة"، إغراق القرية بسدّ تبنيه الأيدي العارية، لكي تبدأ حياة أخرى في قرية أخرى تلد رجلا جديدا من الصفر. لا يعرف الشامبيط ولا قيد الحركي ولا الدراويش".[2]

إن البناء الجديد والبدء من الصفر يعني القطع مع الماضي نهائيا وذلك ما لا يمكن أن يتحقق في جزائر عاشت أزمات مختلفة ومحاولات سلب لهويتها وشخصيتها دفعتها ردة فعل منها إلى أن تتشبث أكثر بوحدتها ومقومات شخصيتها وتاريخها ولعل النظرة الشيوعية التي حملها "الأحمر" ستمثل حلقة أخرى من حلقات تاريخها وثقافة أخرى تنصهر ضمن ثقافاتها المختلفة. ولئن كان من شبه المستحيل هضمها في الزمن الحاضر، إلا أنها ستمثّل عنصرا إضافيا من عناصر تطور صورتها، فرغم الصدّ والرفض فـــ "الأحمر" لم تذهب حياته سدى قال : "أنا فكرة والفكرة لا تموت". لقد أصاب سوف يبقى حيا لدى كل من عرفه أو سمع أفكاره ".[3] إن ذلك هو شأن

---

[1] عبد الحميد بن هدو قة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص14.

[2] عبد الحميد بن هدو قة،المصدر السابق نفسه، ص 11.

[3] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها ،ص167.

الاشتراكية في الجزائر التي ستبقى بصمة لن تمحي في تاريخ بحثها عن هويتها الخاصة وشخصيتها المتميزة.

إن رواية "الجازية والدراويش" عبّرت عن تسارع الأفكار أكثر مما عبّرت عن الواقع بمعنى أنها اقتربت من أن تكون رواية فكرية سياسية صرفة، فقد كانت رامزة إلى اختلاف الآراء بشأن التطبيق الاشتراكي، لكن رواية "نهاية الأمس" ستكتسب أبعادًا واقعية، إذ تروي حكاية معلم هو "البشير" ارتحل إلى القرية من أجل مهمة التعليم، ذي فكر اشتراكي واضح سيتعرض – أثناء حلوله بالقرية – لعدة صعوبات أهمها محاولات "ابن الصخري" الذي يمثل الطبقة البورجوازية عرقلة نشاطه بالاعتماد على المؤثر الديني،لقد خلّف الاستعمار فجوة علمية ومعرفية كبيرة في المجتمع الجزائري فقلّة هم الجزائريون الذين حصلوا على قدر معتدل من التعليم وكان أغلب هؤلاء ذوي ثقافة فرنسية، لذلك كان على الدولة الجزائرية استنباط السبل التي تمكّنها من ترسيخ مقومات الهوية الوطنية الجزائرية الخاصة. ولمّا كانت العروبة أحدها، فقد اهتمت الدولة بمجال التعليم العربي فكان التعريب من أهم القرارات التي اتخذتها الدولة فــ"على صعيد التعليم يخاض التعريب وهو التطلع العميق لغالبية السكان، بصورة ديماغوجية، ويوجه النظام المدرسي المكلف وغير الفعّال أولاد الطبقات الفقيرة نحو التعريب وأولاد ذوي الامتيازات نحو ثنائية اللغة"[1].

إن الطبقات البورجوازية لم تلتزم بمبدأ التعريب التزاما تاما فراحت تؤكد طبقية الثقافة والتعليم وكانت تعتبر التعريب موجها خاصة إلى طبقة البلوريتاريا رغم عمل الدولة على إرساء مخطط التعريب وتعميمه ليس بالنسبة إلى الأجيال الجديدة فحسب، إذ شمل أيضا الإدارة والموظفين يقول بومدين: " وحرصنا هذا على مكافحة الأمية ونشر التعليم، وتكوين الإطارات،

[1] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، الاسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، ص 314.

يصحبه عزمنا الوطيد على تعريب التعليم لدينا، هذا التعريب الذي لا يقل أهمية في نظرنا عن مشاريعنا الثورية الأخرى كإعادة تنظيم أجهزة الدولة وتصنيع البلاد وإنجاز الثورة الزراعية وغيرها من مشاريعنا القومية الكبرى وذلك أن لغتنا هي أحد مقومات شخصيتنا ولساننا الذي ينبغي أن نعبر به عنها، ومن أهم مطالب شعبنا طوال العهد الاستعماري وأحد الأهداف الأساسية لثورتنا ونضالنا الطويل"[1].

لكن هذه القرارات التي اتخذتها السلطة السياسية لن يكون لها حظًا وافرًا على مستوى الممارسة لدى الطبقات المترفهة، فـــ"ابن الصخري" الذي يتخذ "ابن الحركي" راعيا عنده يدرّس اِبنته الحقوق في الجامعة في حين يعتبر أن المدرسة لا فائدة ترجى منها في القرية. لذلك نجده يعارض "البشير" معارضة إن كانت خفية فهي مطلقة، فإذا كان "البشير" يطمح إلى تحقيق ثورة علمية وزراعية واشتراكية واجتماعية وثقافية في القرية فإن "ابن الصخري" كان من بين أهم العناصر الساعية إلى عرقلة هذه المشاريع وبذلك حق القول أن هذه القرية وهذه المدرسة هما بحاجة إلى " لاندروفير" ، يقول "ابن هدوقة" على لسان السائق في حوار مع البشير:

" هذه الطريق ...أترى سيارة "دس" إلكترونية تستطيع السير معها؟
كلا يجب لها سيارة شحن أو "لاندروفير" مثل هذه...كذلك مدرسة هذه القرية يجب لها معلم "لاندروفير" !

ابتسم البشير لهذا التشبيه الطريف: المعلم لاندروفير ! وقال في نفسه: " قد أكون أنا هذا المعلم " لاندروفير"[2]. وفعلا سيواجه " البشير" طبيعة صعبة وعقلية تقليدية محافظة تردّ جميع أمورها إلى الدين بالإضافة إلى فئة قروية

---

[1] خطاب الرئيس بومدين، 9 جوان 1965 ، 19 جوان 1965 ، مرجع سلف ذكره، صص 95-96.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس،رواية سلف ذكرها، ص8.

مسيطرة تسعى إلى محاربة كل ما يمكن أن يمس مصالحها وهي فئة الإقطاعيين.

إن الريف الجزائري كان يتبع تعليما تقليديا قبل الثورة الاشتراكية. ويمكن القول إن مرحلة التطبيق ستشهد صراعا بين التعليم التقليدي التلقيني البسيط والتعليم الحديث العلمي، فـــ" إذا ضحكت المدرسة بكى الجامع! (...) والمدرسة كالجرّار والجامع كالمحراث"[1] حسب بعض أهالي القرية الذين كانوا مجبرين إما على تعليم أبنائهم في المساجد أو دفعهم إلى العمل رعاة منذ الصغر.

ويدافع ذوو الثقافة التقليدية عن تشبثهم بنمط حياتهم التقليدي المتناقض مع الحداثة بواسطة الدين ذاته ولعلهم في كثير من الأحيان لا يفسرونه التفسير الصحيح، إذ يتم توظيفه توظيفا هادفا إلى إخماد الثورة الاجتماعية بتعلّة المحافظة على القيم الإسلامية يقول الإمام:

"ها نحن ياسي البشير كما ترى، نحاول أن نغرس في هؤلاء الأطفال أفضل ما نملك من بذور.

إن القرآن في هذا الزمان قلّت العناية به، ولن تفلح أمة يرتفع عنها كلام الله. صار الناس يفضلون مواشيهم لأولادهم بدل الآيات البينات."[2]

ولن ينجح البشير في إقناع الإمام بأن الحاجة والفقر عاملان أساسيان في دفع الناس إلى عدم العناية بالتعليم، فيردّ الإمام:

"الحاجة ! يا رجل؟ هل هناك حاجة أعظم من الجهل؟ قل " إن الدين قلّ. قال عليه الصلاة والسلام: بدأ هذا الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ."[1] وإن هذه

---

[2] عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، رواية سلف ذكرها، ص63.

النظرة ليست خاصة بالإمام وحسب وإنما هي المسيطرة على جميع فئات المجتمع الريفي الذي يحكمه وعي بسيط يقوم على الدين باعتباره مرجعا تقع العودة إليه في جميع المسائل. و سوف لن يغفل " ابن الصخري" عن هذا المؤثر إذ سيعمل على تأليب الناس ضدّ " البشير" ومشاريعه التي تضرب مصالحه بوصفه إقطاعيا، بل سيذهب إلى حدّ تكفيره وتجريمه حين يقوم بهدم الجامع انتقاما من " البشير" في محاولة لثنيه عن تحقيق مطامحه والمساهمة في تحقيق وعي اجتماعي مرتبط بالحقائق العلمية. فالناس "عقولهم لا تحتوي إلا على معلومات ضئيلة وراثية أو تلك التي استفادوها من بعض التجارب المتكررة المتشابهة في حياتهم البسيطة.

ليست إرادة العمل هي التي تنقصهم، ولكن تنظيم تلك الإرادة وجمعها لخدمة هدف يحفظ مصلحة الأفراد في نطاق المصلحة العامة هو الذي ينقصهم. من يقوم بذلك؟ المدرسة؟ الحزب؟ النقابة؟ وسائل الإعلام؟ كلها يجب أن تشارك في إفهام هؤلاء الريفيين حقيقة الحياة الجديدة. وعندئذ يسهل التنظيم وتستمري الشعارات، لكن ذلك يقتضي مسبقا أن يكون من يعمل في هذه الهيئات مؤمنا بالاشتراكية. المأساة هي أن التناحر ليس بين تلك الهيئات فقط بل تجاوزها إلى أفراد الهيئة الواحدة. المأساة هي أن الناس يخافون بعضهم بعضا، يخافون من المستقبل، يخافون من الماضي، يخافون من الغيب، يخافون من السلطة. الخوف إذن هو حقيقة كل الصراعات، لأن الناس لم يولدوا أطهارا. كيف إذن يمكن تطهير الناس وهم يولدون وفي نفوسهم ترسّب 70% من الماضي الذي لم يعرفوه أفرادا؟ فإذا كان كل إنسان ترسب في نفسه 70%من الماضي فمعنى ذلك أن الجزائر لا تخرج من هذه الحياة الغيبية البدائية إلا بعد ثلاثة أو أربعة أجيال؟..."[2]

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق نفسه، ص 63.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس،رواية سلف ذكرها، ص62.

إن تخمينات البشير هذه سيكون لها صداها في أول ردة فعل للأهالي عندما هدّم المسجد ووقع اتهام المعلم بهدمه، حين خرجوا يتهددونه بالقتل، إذ اعتبروا أنه نال من كرامتهم ودينهم وقد " كانت الأصوات خارج المدرسة تصل إلى سمعه بأفحش الشتائم وأفضعها تتحداه أن يخرج. وأخذت الحجارة تتساقط على قرميد المدرسة وفي فنائها وأخيرا قرر الخروج رغم تحذير العجوز له. وإذ رأوه خارجا فصرخوا وفي مقدمتهم الإمام.

– هاهو اللعين، الكافر، هادم المسجد. خذوه " فارجموه ".[1] لكن إصرار "البشير" على مواجهة هذا الواقع بكل ما يحتويه من رواسب تدل على تخلّفه، ستساهم في المزيد من دفعه نحو تحقيق مطالبه التي تربط المدرسة بالثورة الزراعية وتربط نهضة الجزائر بالتطبيق الاشتراكي السليم يقول :

" إن المدرسة الجزائرية الحقيقية هي تلك التي ستخلق يوم أن تبرز القرى الزراعية إلى الوجود".[2] وبذلك يمكن القول إن ثورة لا تكون شاملة إنما هي ثورة مبتورة، ولعل الثورة الجزائرية فعلا بقيت إلى حدّ هذه الأيام مبتورة خاصة فيما يتعلق بوضع المرأة، إذ لم يتقبل المجتمع الجزائري خروجها إلا مرغما لأن الدولة دعت إلى ضرورة الاعتراف بوجودها وفاعليتها منذ بداية الثورة المسلحة، إذ اعتبرتها السلطة " عنصرا نشيطا له نفس الواجبات التي للرجل في المجتمع الجزائري"[3]، ذلك أن الاشتراكية يجب أن تستفيد من جميع الطاقات وتساوي بين المرأة والرجل في العمل، فكلاهما قادر على المساهمة في البناء مما يستوجب المساواة في الحقوق: "إن الأمر هنا يتعلق

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة ، نهاية الأمس،رواية سلف ذكرها، ص 212.

[2] عبد الحميد بن هدوقة ، المصدر السابق نفسه ، ص240.

[3] Paul Balta et Claude Rulleau, la stratégie de Boumediene, Paris, Sindbad, 1978, p139.

بمسألة على غاية من الأهمية إذ أن الاشتراكية تستتبع حشد كل الطاقات، طاقات المرأة، طاقات الرجل على حدّ السواء ونحن ليس يمكننا الحديث عن الاشتراكية أو عن ثورة إذا تجاهلنا أن دور المرأة هو مسألة وقع الحسم فيها لأن المرأة الجزائرية اكتسبت هذه الحقوق لمساهمتها الفعالة في ثورة التحرير."[1]

لكن الهوة الموجودة بين التنظير والتطبيق لا يمكن " ردمها" بالسرعة المرجوة لأن ظروفا تاريخية ميزت المجتمع الجزائري لم تساعد على تغيير سريع في مكانة المرأة بل إنه يمكن القول إن مسألة تحرير المرأة لا في الجزائر فحسب ولكن في أغلب المجتمعات العربية الإسلامية تبقى مطمحا صعبا. فالعقلية العربية عموما والجزائرية خصوصا لم تتطور لأسباب حضارية، تطورا يمكّنها من بلوغ مستوى من المرونة يتيح مشاركة المرأة عن طواعية مما يفسر أن نشاطها خارج البيت كان كثيرا ما يعد من باب الخروج عن القيم الإسلامية إذ " يستمر الخلط بين الثقافة والدين على حساب تطور الذهنيات والتحرر النسائي. إن التفسير الديني للتاريخ الذي يرجع إليه المستعربون، المفروضة عليهم ثقافة تقليدية(...) يشجع التزمت الديني للحصول على الاستقرار الاجتماعي ويصيب العامة ما أن تعيد النظر في مبدأ الطاعة"[2] .

لقد حافظ المجتمع الجزائري إذن على نظرته التقليدية إلى المرأة رغم ما بذلته السلطة من محاولات لتحريرها وقد طرح ابن هدوقة المسألة في روايتيه، إذ نجد أن النموذج المعهود للمرأة هو المعترف به، فبعد تحقيق الاستقلال عادت المرأة إلى وظيفتها الاجتماعية الطبيعية ومع أن ابن هدوقة رسم أيضا صورة المرأة الحديثة إلا أن هذه الصورة تظهرها في حالة معاناة

---

[1] Paul Balta et Claude Rulleau, la stratégie de Boumediene, op.cit, p 139

[2] محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، مرجع سبق ذكره، ص 314.

إذ كلما حاولت الانعتاق من دائرة العادات والتقاليد عدّت خارجة عن المبادئ الإسلامية، و قد يذهب أصحاب الثقافة التقليدية المتشددة في الدين إلى تكفيرها خاصة إذا كانت مثقفة مناصرة للاشتراكية .

إن هذه هي صورة " حجيلة" و"صافية" في " الجازية والدراويش" اللّتين تقابل مشاركتهما النضالية بالتصدي، يقول الطيب بن الأخضر بن الجبايلي عن أخته "حجيلة" :

" تكلمت حجيلة أختي" أنا أعاونك في البناء أعدّ الأكل ،أسقي الماء، أقوم بكل الأعمال التي لا يقوم بها الرجال." ! (...) حاولت أن تواصل حديثها، نهاها، [الأب] ليس للبنت أن تتكلم أمام الرجال."[1]

لكن موقف الأب هذا لم يجعلها تتراجع عن موقفها، فقد كانت دائما على استعداد لتغيير وضعيتها لذلك وصفها "الأحمر" الذي يمثل التيار الشيوعي بـــ" أنت النموذج الأمثل للهدم وأخوك النموذج الأمثل للصيانة."[2] فيروقها التعبير فتردّ مؤيدة :" ينفجر كل شيئ، المساكن، الحيوانات، السكان، العين، الصفصاف، الجبل... كل شيء ! وتعلو نار حمراء تحمر منها الآفاق المحيطة بنا. ويرى لهبها من آلاف الأميال ! حتى يعلم الناس في كل مكان إنه وقع اِنفجار هنا، اِنفجار ضخم لم تعرفه الدنيا! ما أجمل أن ترى العين ذلك! [3] وتستميت "حجيلة" في الدفاع عن مواقفها حتى لو كلفها ذلك حياتها تقول لأخيها الطيب : "سمعت ما قال لك أبي. لا تهتم كثيرا بحديثه. هو يريد منا، أن تعيد

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص15.

[2] عبد الحميد بن هدوقة،المصدر السابق نفسه، ص 122.

[3] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها ، ص 122.

أنت حياته، وأعيد أنا حياة أمي! أنا أحيا حياتي ولو كانت سوداء! ما يستطيع أن يفعل؟ يقتلني؟ أفضل ذلك على حياة لا أريدها! "[1]

ويتخذ رفض الواقع وجها آخر مع شخصية صافية الطالبة المتطوعة في الثورة الزراعية التي كسرت الأعراف والتقاليد بارتدائها سروال " جين" وعدم تعوّدها التستّر على التدخين إذ تسبب هذا السلوك في نفور أهالي القرية منها ونقمة الإمام عليها نقمة بلغت حد ردّ سبب الكوارث التي حلت بالقرية إليها:" عودي يا إمرأة إلى البيت حتى يأتي الشامبيط. ليس لك مكان بين الرجال. أما يكفيكم (يقصد الطلبة المتطوعين) ما جلبتموه لنا من كوارث؟ لقد غضب الله علينا وغضب أولياء المقام ! عودي إلى البيت لن نراك بعد اليوم هنا، في هذا المكان وإلا حلت بنا كارثة أخرى لا تبقي ولا تذر." ![2]

إن العقلية القروية الضاربة في التقليدية، يصعب عليها تقبل ما تعتبر أنه حيد عن أعرافها وتقاليدها، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمرأة ويمكن القول إن المحافظين عموما اتخذوا من المرجع الديني سلاحا حاربوا به المرأة مثلما حاربوا به الثورة الزراعية، من هنا يمكننا في نهاية هذا الفصل تبني رأي الباحث المنصف وناس في تجربة فترة الاستقلال بصفة عامة:

" لقد كانت الثورة الجزائرية مشروعا كبيرا لبناء الإنسان، وتحقيق مجتمع الإشتراكية والتقدم، وقيادة حركات التحرر إفريقيا وعالميا، إلا أن الدولة الوطنية الوريث الشرعي لمشروع الثورة لم يكن المعجزة المنتظرة ولا حتى النموذج الثوري المرتقب، فقد حدثت الفجوة الطبيعية بمجرد الانتقال من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة، ذلك أن الإيديولوجيا الثورية تأخرت عن مواكبة الواقع المتغير والمتناقض فلم تتحول إلى عنصر محرك للبنى الذهنية

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، المصدر السابق ذاته ، ص 133.

[2] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، رواية سلف ذكرها، ص128.

ذلك أن الغائب الأكبر في عمل الدولة الوطنية هي المسألة الثقافية بما يستلزمها من تعبئة ذهنية و سياسية و طرح البديل المقنع."[1]

[1] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سبق ذكره، ص 50-51.

القسم الثاني:

الثورة والفترة البومدينية في بعض مؤلفات الطاهر وطار

الفصل الأول:

الثورة

" آه أيها اللاز اللعين، أيهـا المتحدي الأجلف (...)آه. أيها القذر، إنك لا تمثل شيئا، إنك لا تمثل غير هذا الشعب اللقيط، غير هذه القضيـــة المفتعلـــة التـي اِنفلتـــت من دبـــر التاريـــخ"

الطاهر وطار، اللاز، ص. 130.

سلف أن تعرضنا لطبيعة التشكل الذي وحد بين مختلف التيارات الفكرية السياسية في جبهة التحرير الوطني الجزائرية، والذي يمكن وسمه بالتوحد الاضطراري باعتبار أن الحل الأنسب كان يتمثل في تسريع تفجير الكفاح المسلح في أول نوفمبر 1954، بعد أن اتضح أن اختلاف النخبة الوطنية التي كانت تسعى إلى تغيير الأوضاع في الجزائر زمن الاستعمار وتناقض مصالحها وإديولوجياتها سببا " تأخرا" في مقاومة الاستعمار مقاومة مباشرة مقارنة بالبلدين المغربيين المجاورين تونس والمغرب الأقصى ، لذلك فـــ" إن هذه الفسيفساء الإديولوجية والسياسية التي عرفتها الجزائر في الفترة التي رافقت تنامي الوعي الوطني في الجزائر، دفعت جبهة التحرير الوطني إلى القيام بخطوة توحيدية لهذه القوى السياسية المتناقضة سعيا منها إلى التكتل والتوحد لطرد الاستعمار".[1] ويمكن أن نذكّر بإيجاز بهذه الإديولوجيات المتناقضة التي شكلت هذه الفسيفساء التي انبثقت عنها جبهة التحرير الوطني وهي:

أولا، الاندماجية القديمة وكانت تدعو إلى اندماج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي بصفة تدريجية تتم من خلال الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجزائر، ويمثلها فرحات عباس .

ثانيا، الإديولوجية الإصلاحية التي ترى في الإصلاح الديني والثقافي المسلك الأمثل للتغلب على الاستعمار، وتمثلها " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" وقد أسسها عبد الحميد بن باديس في 1931، وخلفه في رئاستها محمد البشير الإبراهيمي.

[1] عادل هرسي، الجزائريون في تونس (1956–1962) ونشاطهم السياسي والثقافي، الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، منوبة، كلية الآداب، 2003–2004، ص 143.

ثالثا ، الإديولوجية الشيوعية التي مثلها الحزب الشيوعي الجزائري الذي بعث في 1936، وكان يمثل امتدادا للحزب الشيوعي الفرنسي" وكان هذا الحزب (ونقصد الشيوعي الجزائري) من دعاة الاندماج باعتبار مرجعياته الفرنسية وعدم ثقته في الإسلام والنظر إليه باعتباره "إديولوجية رجعية تعبّر عن مصالح الطبقة الرجعية وهي أسباب جعلت هذا الحزب لا يحظى بشعبية في الجزائر ولا يكون من المنادين بالتحرك ضد الاستعمار لاعتباره أن الثورة لا تكون في مجتمع فلاحي."[1] وقد تميزت هذه التيارات الثلاثة بعدم إصرارها على المواجهة المسلحة فيما قطعت مع هذه المواقف الحركة الإديولوجية الرابعة وهي الحركة الراديكالية التي آمنت بحتمية المواجهة المسلحة منذ عشرينات القرن الماضي عند ظهور " نجم شمال إفريقيا" في 1926 بقيادة مصالي الحاج، والذي كان أغلبه من العمال الأمازيغ. وتمّ إيقاف هذا الحزب فأعيد تأسيسه في 1937 تحت إسم جديد هو " حزب الشعب الجزائري" ثمّ حلّ وأعيد تأسيسه مرة أخرى في 1947 تحت إسم " الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية"، لكن رغم وجود هذه التيارات، فإنها لم تفلح في تفجير الكفاح المسلح الذي لم تبادر به إلا " جبهة التحرير الوطني" في أول نوفمبر 1954.

ولئن حاولنا تلخيص مختلف الإيديولوجيات التي وجدت في الجزائر قبيل المواجهة المباشرة فان ذلك بهدف البحث في انعكاساتها لدى المفكر الطاهر وطار في رواية "اللاز" خاصة، حيث صرّح أنها ترتبط أشد الارتباط بالمتغيرات السياسية في الجزائر وقد عمد فيها إلى نقد الثورة وتقييم مختلف القرارات التي اتخذت فيها، ضمن مواقف لا تندرج ضمن الإديولوجية اليسارية التي ينتمي إليها، يقول عن ظروف كتابة " اللاز" : " هذه القصة بدأت

---

1) عادل هرسي، الجزائريون في تونس (1956-1962) ونشاطهم السياسي والثقافي، مرجع سلف ذكره، ص 138.

التفكير فيها في شهر سبتمبر سنة 1958، بعد الإعلان عن التشكيلة الأولى للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وشرعت في كتابتها في شهر ماي 1965 بعد تراكم الخلافات والمشاكل داخل صفوف جبهة التحرير الوطني، وبعد الشروع في وضع أسس لانجازات متعددة اقتصادية واجتماعية" [1] .

وقد أكد توجه وطار في نقد الثورة بعض من تناول مؤلفاته بالدراسة فكتب عنه " كان من الأوائل الذين نقدوا ثورة التحرير سواء في صراعاتها وخلافاتها في مرحلة الاستعمار أو في تناقضاتها في مرحلة الاستقلال وبناء الجزائر الديمقراطية وفق مبادئ النموذج الاشتراكي ومنظوراته .[2]" وذلك هو بالذات ما أكده وطار نفسه حين قال: " إنني لست مؤرخا (...) إنني قاص، وقفت في زاوية معينة، لألقي نظرة بوسيلتي الخاصة على حقبة من حقب ثورتنا."[3] فالرواية تعد عملا نقديا فكريا سياسيا بامتياز تفصح عن رؤية واضحة لصاحبها، وعن خلفية إديولوجية تحكم نصّه وتوافق تطلعاته باعتباره يساريا فحسب رأيه: " لا بد من استقرار الوضع. لا بدّ من أن تصفى الأمور، جميع الأمور ذات يوم. أو كما يقول بطل القصة الرئيسي: ما يبقى في الوادي غير أحجاره..."[4]

ولما كان وطار واضح الانتماء إلى الحزب الشيوعي الجزائري فإن نقده للثورة سيسلط الأضواء فيه على فئة محدّدة من الفئات التي كانت تمثل أحد الأطراف العاملة في الكفاح المسلح وقد تضمنت رواية " اللاز" مواقف وطار من مختلف التيارات خاصة الصراع بين الاتجاه اليميني و الاتجاه اليساري، يقول :" فرواية "اللاز" تعالج الصراع بين الثوار والاستعمار من

---

[1] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 7.

[2] بوشوشة بن جمعة، الرواية العربية الجزائرية: أسئلة الكتابة والصيرورة، مرجع سلف ذكره، ص 11.

[3] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 8

[4] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 7.

جهة والثوار والثوار من جهة أخرى. وقد طرحت الثورة من ناحيتين: العمل العسكري واتصالها بالجماهير ومن حيث محتواها إذ تنبهت بأن مصيرها عهرا وهذا ما نشاهده الآن. وما هي الثورة إن لم تكن عملا مسلحا ومحتوى، عندما كتبت "اللاز" لم يكن قصدي التقليل من شأن الثورة، فكانت كتابتي نقدا ذاتيا من داخل الثورة."[1]

إن هذا الشاهد يلخص النقاط التي تناولها وطار ونقدها في الثورة ويمكن أن نتبيّن مسألتين طرحتا بعمق في الرواية، أما المسألة الأولى، فقد طرح فيها صراع الثوار ضد الاستعمار وبيّن كيف أن العمل العسكري استقطب جميع فئات الشعب من عمال وفلاحين وتجار وبورجوازيين ومفكرين إلى جانب العسكريين والمفكرين السياسيين، أما المسألة الثانية فهي صراع الثوار مع الثوار أو بصورة أوضح تصفية الفئات الشيوعية في الثورة. يقول وطار:" إن نظرتي لتاريخ الثورة الجزائرية قبل الاستقلال وبعده نظرة تحاول تصحيح مسار حركة التحرير الوطنية الجزائرية من خلال البحث عن الثغرات فيها على مستويين: أولهما من خلال ممارسة نقد ذاتي وثانيهما العمل على تصحيح مسارها. قتل الشيوعيين: ما معنى؟ هل لأنكم (يا زعماء حزب جبهة التحرير الوطني) قيادة ترفضون الحوار والفكر والمنطق؟ هل لأنكم كمعسكر أصبحتم تحرّمون النقاش؟ لماذا احتكار السلطة؟ أبحث عن الخلل. الثورة الجزائرية مطروحة تاريخيا على أنها من كبريات حركات التحرر، ما الذي يعوقنا حتى تصبح الجزائر مثل كوريا والاتحاد السوفياتي؟ ولكن مع ذلك أتغنّى بالإنجاز الكبير الذي أنجزه جيلي، وهو تحرير البلاد، لا أنكره بل أتبجح به. يوجد خلل وهو تفرّد البورجوازية الوطنية بالسلطة، ولكن هذا حدث في

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية: أسئلة الكتابة والصيرورة، مرجع سلف ذكره، ص 18

تونس والمغرب ومصر وسوريا. هذا حدث بصفة عامة في كامل الوطن العربي في مستوى واحد"[1].

هناك حقيقة تتصل بالمسألة الأولى، مسألة صراع الثوار والاستعمار، فقد شهدت فيها المواجهة بين الجزائريين والمستعمرين ذروة احتدامها، مما جعل ردّ فعل الفرنسيين من أجل القضاء على الثورة عنيفا، إذ تمّ اعتماد جميع وسائل الإرهاب لقمع الثورة. فقد زجّ بآلاف الجزائريين في السجون والمعتقلات ومراكز التعذيب، وقد تمّ تأسيس مدرسة (تعرف بمدرسة" جان دارك –Jean darc" افتتحت في 11 ماي 1958) لتعليم الضباط كيفيات استنطاق الثوار للحصول على المعلومات الخاصة بالثورة. وقد اختلفت ضروب التعذيب " كقلع الأظافر بالكلاليب، وتسليط الكهرباء على أجزاء الجسم الحساسة، والكي بالنار، وتعليق الأشخاص بصورة مقلوبة وغطس الرؤوس في أحواض المياه الحارة أو الباردة أو العفنة، ووضع حنفيات المياه في أفواه الأشخاص وفتحها حتى تمتلئ البطون ثمّ ترفس بالأرجل لتخرج المياه من الدبر، وإكراه المعذب على شرب مياه الصابون، والإجلاس على الزجاج أو على مسامير مثبتة في ألواح خشبية، وسحب البعض أحياء بالخيول، وتسليط الكلاب عليهم لنهشهم، وترك البعض عطشى مع وجود الماء إلى جانبهم، وسلخ جلد الضحية ووضع الملح على الجروح، وإيداع البعض في بيوت مظلمة وباردة أياما وأسابيع على الإسمنت، وتسليط الأضواء الكاشفة على العينين وحرق الجفون بالسجائر واغتصاب النساء على مرأى من ذويهم وأقاربهم وما إلى ذلك من الأساليب الجهنمية التي تقشعرّ لها الأبدان"[2].

لقد طرح وطار هذه المسألة على لسان " اللاز" الذي وصف مراحل التعذيب حين اعتقل واكتشف أمر عمله النضالي في صفوف الثوار، " وعندما

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية العربية الجزائرية: أسئلة الكتابة والصيرورة، مرجع سلف ذكره، ص.16

[2] سعيد بوزيان، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر ...مرجع سلف ذكره، ص 40.

ولج القاعة (اللاز) وباغتته الظلمة، فكر...منذ ألقي علي القبض وأنا أشعر بأنني هنا...في هذه القاعة بداية ونهاية كل شيء.

ما إن أنيرت الأضواء حتى جرّدوه من الثياب وأوثقوه بأسلاك نحاسية وقذفوا به فوق منضدة خشبية ثبتت على سطحها مسامير حادّة وانهمكوا يجلدونه...

هذه العملية الأولى، إن لم أعترف أثناءها، تلتها مباشرة العملية الثانية... الغطس في الماء مع الكهرباء، وإن لم أعترف أثناءها، جاءت العملية الشاقة... اقتلاع الأظافر"[1] .

وأمام ضروب التعذيب لا يستطيع المرء عامة أن يصمد طويلا فقليل من يصمد، و" اللاز" نفسه يعترف بذلك رغم وعيه بموقف الثورة منه " ...كان المفروض أن لا أعترف... الأوامر تمنع الاعتراف والثورة تحكم بالخيانة على المعترف... لقد أنذرت قدور، وهذا ما يطمئنني...ليتني لم أنذره..لا قمت بواجبي قمت به حتى آخر لحظة."[2]

لكن هاجس اللاز في تمرّده على أوضاعه ورغبته الملحة في تجاوز واقعه يأخذ وجهتين، أولاهما ذاتية تتمثل في طموحه في أن يتخلّص من صورة اللاز لقيطا، وثانيتهما عمله على أن يقبل بوصفه شخصية لا تمت بصلة إلى تلك التي يحرص الجميع على أن يلصقوها به، " اللاز بن مريانة"، ولكن من لا تاريخ رسميا واصطلاحيا له لا مستقبل له، وتلك حال الشعب الجزائري الذي بعث من جليد في لحظة تفجير الكفاح المسلح، هذا الشعب الذي أصبح بطلا حين آمن بوجوده المستقل عن المستعمر، شخصية وثقافة

---

[1] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 78.

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 85.

وتاريخا وهوية، وكذلك وثق في فاعليته، وقد عبر وطار عن هذه المعاني من خلال ما يقوله اللاز باعتباره شخصية مرادفة للشعب في الرواية.

"... مازلت اللاز الحقيقي، لم ينته اللاز الأول بعد...يبدو أنه لن ينتهي أبدا. لا. لا ، لن أعترف وإن اقتضى موتي تحت التعذيب، لن أسلم في اللاز الحقيقي مهما كان الثمن، لا أستطيع ذلك. لن أعترف مهما كان الأمر. تصميم. تصميم فعلي."[1]

وإذا كان اللاز يرمز إلى الفئة التي ولدت من رحم الثورة حتى أننا لا نحتاج إلى بطاقة ميلاد رسمية أي لا ثورية، فآمنت بشخصيتها المستقلة ورفضت صور الاندماج في ثقافة المجتمع الفرنسي ووثقت في قدراتها الذاتية واختارت المواجهة، فإن فئة أخرى (دعاة الإصلاح والاندماج الذين وسموا بالخيانة) اختارت الانسياق وراء الفرنسيين، إما لعدم ثقتها في إمكانياتها أو لخوفها، وقد رمز وطار لهذه الفئة التي ستنضمّ إلى الثورة بعد تمكنها بشخصية " بعطوش" وقد وصفه خائنا ارتكب أبشع الجرائم في حق مواطنيه من أجل مصالح ذاتية، ولن يستيقظ ضميره إلا في نهاية الرواية حين يقرر قتل ضابط فرنسي ويعلن انضمامه إلى جيش التحرير الوطني بعد أن قتل مريانة أم اللاز بأمر من هذا الضابط الفرنسي" ودون تردّد، نفذ بعطوش الأمر. تقيأت رشاشته سيلا من الرصاصات، سقطت مريانة دون أن تلفظ أي صوت..." [2] . ثم قام بمضاجعة خالته " حيزية" أمام زوجها " الربيعي" ثم قتلها: " سارجان بعطوش، أريد أن تضع جنينا في بطن هذه المرأة هنا أمامي، هيا أسرع..."[3].

---

[1] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 95

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص136

[3] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص137

القوات الفرنسية تعتقل أفرادا من جيش التحرير الجزائري

أمام محاولات المستعمر هز نفسية الإنسان الجزائري بهذه الأعمال الشاذة، تكون ردّة الفعل جذرية، فبعدما عمد بعطوش إلى ارتكاب جريمة قتل " حيزية" خالته، عاش بفعل ضغط هذه الذكريات اضطرابا نفسيا فشلت محاولات الضابط وإغراءاته في محو أسبابه لشدّة إيلام هذه الذكريات عندما تتعدد فتستحوذ على الإنسان"...تركها (حيزية) مستلقية، وسارع نحو المطبخ، حمل الفأس وعاد يلهث، هوى مباشرة على رأسها فتطاير..."[1] وليست هذه المظاهر إلا صورة لردود الفعل التي انتهجها الجيش الفرنسي والمعمرين إثر أحداث ماي 1945. فقد " تولى الإشراف على عمليات القمع ضد المدنيين الجزائريين الجنرال دوفال (Duval) الذي أعطت له صلوحيات مطلقة ووضعت تحت تصرفه فرقة من اللفيف الأجنبي(Legion étrangére) بقيادة الكومندان باري دوشافان(P.de chavennes) كما جعلت تحت أوامره

[1] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 191

طوابير من جنود المستعمرات (Tirailleurd algeriens et sénégalien) تعاضدهم قوة من الطيران وقطع من الأسطول وتشدّ أزرهم جماعات مسلحة من ميليشيات غلاة المعمرين " الكولون" ، وقد سمحت هذه القوة بالفعل للجنرال دوفال ومساعديه وفي مقدمتهم الكومندان روير بتطبيق مخطط إرهابي وصفه دوفال نفسه بقوله:" الضرب بقوة وبسرعة للحيلولة دون انتشار حالة التمرد ." [1]

لقد كان لهذه السياسة الفرنسية المغالية في القمع تأثير عكسي في مواقف الأحزاب والجميعات الجزائرية خاصة عندما وجهت السلطات الفرنسية أصابع الاتهام إلى حزب الشعب الجزائري بقيادة مصالي الحاج وكذلك إلى فرحات عباس وقد ألقي عليهما القبض واعتقلا. كما ألقي القبض على رئيس جمعية العلماء المسلمين محمد البشير الإبراهيمي. على أن مواقف الحزب الشيوعي الجزائري لم تكن مساندة لمظاهرات الثامن من ماي 1945 أو لانتفاضة الشعب فـــ" ما يثير الانتباه ويدفع إلى التساؤل هو موقف الشيوعيين الجزائريين والفرنسيين من أحداث ماي 1945، فقد اتخذ الحزب الشيوعي الجزائري مثل نظيره الفرنسي موقفا معاديا للمطامح الوطنية ومنافيا للتطلعات الشعبية، فقد شهر بالوطنيين وحملهم مسؤولية الأحداث ووصفهم بالقوة الرجعية واتهمهم بالعمالة للقوة الفاشية والدفاع عن الإقطاع، ففي 12 ماي 1945 وجهت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي نداء إلى سكان شمال إفريقيا اتهمت فيه مصالي الحاج وغيره بأنهم جواسيس وحملتهم المسؤولية عن التمرد، وبعد شهر من ذلك ذكر مندوب الحزب الشيوعي في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الفرنسي " أن الذين يطالبون باستقلال الجزائر هم عن وعي

[1] ناصر الدين سعيدوني، الجزائر آفاق ومنطلقات، مرجع سلف ذكره، ص 133.

أو غير وعي عملاء لدولة استعمارية أخرى، وأن الحزب الشيوعي الجزائري يعمل ويناضل لتقوية أواصر الوحدة بين الشعبين الجزائري والفرنسي". [1]

إن هذا الشاهد يبين إلى حدّ ما اختلاف المواقف حول القضية الجزائرية، هذه المواقف التي فجرتها أحداث ماي 1945، ولعلها ستكون النواة الأولى للصراع بين الوطنيين الجزائريين، ومعاداة جل الأحزاب الأخرى للحزب الشيوعي الجزائري رغم تغيير الحزب مواقفه وسياسته بعد اندلاع الثورة المسلحة. فكيف سيدافع وطار عن الإديولوجية الشيوعية التي يتبناها؟ وما هي مبررات إنصافه للحزب الشيوعي الجزائري؟

بعث الحزب الشيوعي الجزائري في 1936 بقرار من" الحزب الشيوعي الفرنسي " في حركة مضادة لحركة مصالي الحاج " نجم شمال إفريقيا وقد أثبتت مواقف الحزب تبعية تامة لسياسة الحزب الشيوعي الفرنسي خاصة منها موقفه من أحداث 8 ماي 1945 التي أدان فيها الأطراف المحرضة على الانتفاضة الشعبية، وبين مدى تفاعله مع مبدأ الاندماج في المنظومة الشيوعية العالمية فقد " اتخذ (...) مثل نظيره الفرنسي موقفا معاديا للمطامح الوطنية ومنافيا للتطلعات الشعبية، فقد شهّر بالوطنيين وحملهم مسؤولية الأحداث ووصفهم بالقوة الرجعية واتهمهم بالعمالة للقوة الفاشية والدفاع عن الإقطاع"[2]، وموقفه من اندلاع الثورة المسلحة في أول نوفمبر 1954، ذلك أنه " لم يقدر الواقعة القومية حق قدرها وكانت سياسته تابعة لاستراتيجية الحزب الشيوعي الفرنسي بدرجة أولى ولاستراتيجية المعسكر الاشتراكي بدرجة أشمل. وحينما فاجأته أحداث غرّة نوفمبر 1954 رأى فيها

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، الجزائر آفاق ومنطلقات، مرجع سلف ذكره صص 135-136

[2] ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق نفسه، ص.135.

مجرّد أعمال فردية إرهابية والحال أنها حرب شعبية منظمة"[1]، بالإضافة إلى عدم تشبثه بمطلب الاستقلال. إلا أن هذين الموقفين لا ينطبقان على جميع العناصر الشيوعية فقد تباينت مواقف [هم] وفق تباين أصولهم، فالشيوعيون الجزائريون ساندوا الكفاح المسلح، أما الأوروبيون فقد عادوه باستثناء بضع عشرات انخرطوا في النضال ، وقد تم تكليف عمر أو صديق بدمجهم في جيش التحرير الوطن."[2]

ولعل ذلك ما يفسّر انضمام الحزب الشيوعي الجزائري إلى جبهة التحرير الوطني بإسم "مقاتلي التحرير" وقد مثله جيش الحزب الشيوعي الجزائري الذي تأسس سنة 1956 عندما فشل قواده في الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني وجيشها، ولما عجز هذا التنظيم عن الصمود، دخل أفراده في جيش التحرير في السنة نفسها دون الاستناد إلى قرارات الحزب محتمين بالمناطق الحدودية التونسية، ومن هنا يمكن أن نتبين تغير نظرة الحزب الشيوعي الجزائري إلى القضية الجزائرية وهو ما حاول وطار التعبير عنه من خلال شخصية زيدان في رواية " اللاز" ، يقول: " البطل الحقيقي ليس اللاز، اللاز واسطة لرؤية الأحداث، والآخرين ، وإنما زيدان هو البطل الذي يمثل الفكر والمنطق والمعرفة، داخل الثورة."[3] وبتركيز وطار على إديولوجية زيدان ومبادئه ورؤيته يحاول أن يفصل بين الشيوعية بوصفها فكرة يدافع عنها من خلال ما تحتويه شخصية زيدان وممارسة "فاشلة" نظرا إلى ما ارتكبه الحزب الشيوعي الجزائري من أخطاء لم يتداركها إلا في وقت متأخر، وهو ما يفسر مناهضة بقية الأحزاب السياسية له من ناحية، وعدم تمكّنه من

---

[1] محمد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الأوسط" المعاصر 1926–2002، مرجع سلف ذكره ص 109.

[2] محمد الحاجي، المرجع السابق نفسه، ص 110.

[3] بوشوشة بوجمعة: الرواية العربية الجزائرية، أسئلة الكتابة والصيرورة، مرجع سلف ذكره، ص 17.

اكتساب قاعدة جماهيرية رغم ارتكازه على فكرة أن الثورة تعتمد على العمال والفلاحين من ناحية أخرى.

ولعل ذلك هو ما يفسر أن المسألة المطروحة هي مسألة اختلاف الأفكار والقناعات، إذ يمكن أن يقتل الشيوعي بمجرد أنه مخالف فكريا أو دينيا لأطراف أخرى وذلك هو ما حدث مع زيدان والشيوعيين والأوروبيين في " رواية اللاز". إذ ذبح من قبل ممثلي الاتجاه اليميني مرموزا إليه بشخصية " الشيخ مسعود" الذي أصرّ على ذبحهم لسببين أولهما ذاتي فكري يتلخص في معاداته للشيوعية وثانيهما سياسي يتعلق بتفوق زيدان عليه في انتخابات 1947. فـــ" في مجتمع معاد للشيوعية من الصعب أن يندمجوا (الشيوعيون) بطريقة طبيعية خالية من الأحكام المسبقة ومن سوء الفهم، وبالفعل ، فثمة من أقرّ بأن أغلب اللذين استشهدوا قد تم ذبحهم بفعل العداء للشيوعية [1]"، وذلك هو ما عبر عنه الشيخ مسعود من خلال موقفه من الشيوعيين الجزائريين والأوروبيين اللذين التحقوا بجبهة التحرير يقول الشيخ:" الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري شيء واحد[2]" و " كلكم شيوعيون ، كلكم على السواء، وقد جئتم إلى ثورتنا لتخربوها [3]" وهي نظرة كثيرا ما ارتبطت بالتيار الإسلامي وقد أكد زيدان تناقض المواقف بينه وبين الشيخ مسعود رغم أن الهدف الذي يجمع بينهما واحد وهو طرد العدو أولا. يقول زيدان:" المسؤول الكبير سألني في المرة الأخيرة: هل مازلت شيوعيا أحمر...؟ أفهمته بأن الشيوعية ليست رداء ننزعه في الوقت الذي نشاء ، وأنها عقيدة تقوم أول ما تقوم على الإقتناع المدرك للحياةٍ...رأيته يتقزز مشمئزا حين حاولت إفهامه بعض المبادئ، فما كان مني إلا أن بادلته السكوت...وبعد

---

[1] محمد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الاوسط" المعاصر 1926-2002، مرجع سلف ذكره، ص 109.

[2] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 224.

[3] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها ، ص 225.

لحظات قال أنه سيرفع تقريرا إلى القادة في الخارج وينتظر موقفهم ...وضعي خاص، ولو كنت أي شيوعي آخر، لقضي علي دون استشارة أحد... أكد على ذلك مرارا، وكأنما يهددني، ولست أدري ما إذا أثرت فيه بتأكيدي أن العمل العاجل أمامنا هو القضاء على العدوّ المستعمر أولا، وبعد ذلك ننصرف إلى شؤوننا[1]".

رغم تأكيد زيدان على عدم انضمامه إلى جبهة التحرير بإسم حزبه، " لم نأت بأسماء أحزابنا، ولكن لا نستطيع التخلي عنها وبالتالي عن عقيدتنا[2]". يبقى موقف الشيخ مسعود منه مبدئيا وهو ضرورة العقاب بالذبح فيقول: " ...اتخذ القرار في شأنهم. بالنسبة لزيدان لا بد من تبرؤه من العقيدة وانسلاخه من الحزب وإعلانه انضمامه إلى الجبهة...وبالنسبة لكم أنتم التبرؤ أيضا، والدخول في الإسلام[3]" وهنا أصبح الشيوعيون الأوروبيون المنضّمون إلى صفوف الجبهة داخل الصراع. ولعل وضعيتهم كانت مأساوية إلى حدّ كبير ذلك أن مصيرهم الذبح رغم ما قدموه من مساندة واعتراف بالقضية الجزائرية فـــ" الشيوعيون الأوروبيون الذين انخرطوا في حرب التحرير (...) من الصعب أن يدرك المرء مدى شعورهم بالغبن حينما انقطعوا عن أصولهم الأوروبية ولم يجدوا ترحيبا من الجزائريين، لقد كانوا عظيمين في مأساتهم...إنهم ضحية السياسة العقيمة للحزب الشيوعي الجزائري ومن ورائه الحزب الشيوعي الفرنسي.

لقد جرّت ثورة نوفمبر 1954، جميع الأحزاب إلى ساحة المعركة، ومنذ 1956 بدأت الأحزاب الإصلاحية تنضمّ تباعا إلى جبهة التحرير الوطني.

---

[1] الطاهر وطار، رواية سلف ذكرها ، ص 105.

[2] الطاهر وطار المصدر السابق نفسه، ص 270.

[3] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 221.

لقد وضعتهم الحرب أمام خيارين لا ثالث لهما إما مع الثورة أو ضدهما[1]"، على أن الصراع داخل الثورة وإن ركزنا فيه على مسألة تصفية الشيوعيين، لا يعني أن بقية الأطراف الملتحقة بالكفاح المسلح نجت من عواقب الأزمة، فالصراع بين الثوار والثوار اتخذ وجوها مختلفة إذ يمكن أن يكون الاختلاف أو الشك بين الثوار سببا كافيا لقتل بعضهم البعض ومثال ذلك في رواية اللاز، موقف قدور من الثورة و من القرارات التي تتخذ فيها خاصة موقفه من سي الفرحي الذي جاء إليه إما لتهريبه أو لقتله، يقول : " يقتلني سي الفرحي بأمر من الإخوان... أنا عمدتهم في القرية... يقتلونني كما لو أنني أحد الخونة القذرين...تنوح أمي، تندب، يقاطع الناس أبي ومتجره، ويموت جوعا جزاء خيانتي...يالها من قساوة... الموت في الثورة حلّ صالح لجميع المشاكل، يموت الخائن، ويموت المسبل ، يموت الإثنان موتة واحدة وعلى يد واحدة... يموت الأول لتستريح منه الثورة ...لكن الثاني لماذا يموت؟

ألتستريح منه الثورة أيضا؟ يا للقساوة [...] إذن قد يكون كثير من الذين ماتوا على يد الثورة غير خونة...قد يكونون مناضلين مسؤولين مثلي... وإذن أنا نفسي...ربما أصدر في يوم من الأيام أمرا بإعدام احمزي أو أبي، أو أي مناضل آخر من الذين كانوا يعملون معي[2]"

---

[1] محمد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الأوسط" ...، مرجع سلف ذكره، ص 110.

[2] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 38.

الفصل الثاني:

المسألة السياسية

" هل تعرفون روح التاريخ.هل رأيتم قافلة تقطع البراري، وعلى ناقة هودج معيّن، يركبه التاريخ ؟ "

الطاهر وطار العشق والموت في الزمن الحراشي،ص27.

الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA)

أعضاء المكتب السياسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) في أوت 1962، (من اليسار إلى اليمين) رابح بيطاط، بلقاسم شريف، بن يوسف بن خدّة، أحمد بن بلّة، والقائد العسكري للولاية الرابعة سي حسّان.

لم تكتسب جبهة التحرير الوطني عموما أسلوبا واضحا ومنظما في عملها قبل الاستقلال فقد كان الهدف الذي يوحد بين مختلف الأحزاب والجمعيات المنضمّة إليها هو الاستقلال، ولذلك فإن حقيقة الخلافات ستظهر بعد الاستقلال عندما تطرح مسألة من هو أحق بالإمساك بمقاليد الحكم؟ ولعل من أهم الصراعات حول السلطة ذاك الصراع الذي طفا على السطح قبيل الاستقلال بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بقيادة فرحات عباس وبن بلّه الذي تدعمه هيأة الأركان، وفي الفترة الأولى للاستقلال بين بن بله وبومدين، كتب فرحات عباس فيما يتعلق ببذور هذا الصراع:

"اصطدم في القاهرة بطموح ابن بله المتنامي...وقد وبّخه على ذلك مستعملا ألفاظا حادّة.

بعد ذلك صرّح للعقيد بيجار أثناء حوار معه قبل ساعات من موته: عندما نتحرّر ستحدث أمور مرعبة: إننا سننسى كل آلام شعبنا لنغرق في صراع على كراسي الحكم . إنه الصراع على السلطة نحن اليوم في غمرة الحرب وهناك من يفكر من الآن في ذلك...نعم، إنني أفضل أن أموت أثناء القتال وقبل أن تنتهي الحرب..."[1]

بل يمكن القول إن المظاهر الأولى للصراع على السلطة قد عبرت عنها النتائج التي أسفر عنها مؤتمر الصومام الذي انعقد في وادي الصومام بتاريخ 20 أوت 1956 فقد كشفت هذه النتائج تنافس جناحين هما الجناح السياسي والجناح العسكري، ولعل أهم قرارين اتخذا آنذاك وساهما في تفجير الأزمة بين السياسيين والسياسيين، والسياسيين والعسكريين هما قرار ضرورة

---

[1] Farhat Abbas, L'indépendance confisquée [الاستقلال المصادر] Paris, Flammarion, 1984, p.44.

خضوع ساسة الخارج لساسة الداخل وضرورة خضوع القادة العسكريين للقادة السياسيين.

فبالنسبة إلى قرار أولوية الداخل على الخارج، كان المقصود به الحدّ من صلاحيات وإشعاع البعثة الخارجية التي يقودها أحمد بن بله ومحمد بوضياف بعد أن حققت نجاحات كبيرة، خاصة في البحث عن السلاح وتزويد جيش التحرير بكميات جديدة منه، وفيما يتعلق بقرار أولوية السياسي على العسكري، فإن المستفيد الأول منه هو عبان رمضان وحلفاؤه من السياسيين المدنيين وأكبر المتضررين منه هم القادة العسكريون."[1]

إن اهتمامنا بهذين القرارين له ما يبرره ذلك أن شخصية هواري بومدين[2] لم تبرز بروزا جليا على مسرح الأحداث إلا من خلال دعمه لبن بله، ومساعدته للوصول إلى الحكم. فقد فرضت هذه الأزمة ضرورة تحالف

---

[1] رياض صيداوي، صراع النخب السياسية والعسكرية في الجزائر...، مرجع سلف ذكره، ص 32

[2] هواري بومدين: (1932–1978) وهو كنية الحرب اسمه الحقيقي بوخروبة محمد إبراهيم ولد في 23 أوت بهيليوبوليس قرب قالمة (وحسب مصادر أخرى ولد بين 1925 و 1932) من عائلة فقيرة، زاول تعليمه الابتدائي بالمدرسة الابتدائية الفرنسية وتابع بالتوازي درسا بإحدى المدارس القرآنية، ومنذ سنّ الرابعة عشر بدأ يزاول تعليما عربيا بحتا وذلك في كل من مدرسة قطانيا(Kitania) بقسنطينة. ثم بجامعة الزيتونة بتونس وأخيرا ومنذ 1951 بجامعة الأزهر بالقاهرة. اختلفت الآراء حول انتمائه إلى ح.ش.ح/ح.ا.ح.د (PPA/MTLD) بين مقر بذلك وبين ناف لذلك، دخل غمار الحرب بعد ثلاثة أشهر من اندلاعها (في فيفري 1955) واتخذ كنية الحرب: هواري بومدين، عين قائدا لولاية الخامسة سنة 1957 بمناصب مهمة غداة الاستقلال، عين قائدا لجيش الحدود وساعد أحمد بن بله على الدخول إلى الجزائر في 3 أوت 1962، ووزير الدفاع الوطني ومستشار نائب رئيس من 1962 إلى 1965، أطاح بحكم بن بله اثر الانقلاب العسكري في 19 جوان 1965.

توفي يوم 27 ديسمبر 1978.

Benjamin Stora, Dictionnaire Bibliographique de militants nationalistes Algériens, 1926-1954,Paris,L'Ahrmattan,1985, p.146.

البعثة الخارجية مع القادة العسكريين لجيش التحرير الوطني ممثلين في شخص هواري بومدين.

وقد عمد ابن بله إلى التشكيك في شرعية المؤتمر وعدم قبول القرارات والنتائج التي توصل إليها، وبذلك تمكن الجناح العسكري من الانفلات من سيطرة السياسيين فقد تمّ إلغاء تقديم السياسي على العسكري بعد انعقاد مؤتمر أوت 1957، لكن العسكريين لم يغفروا لعبان رمضان محاولات الحدّ من صلاحياتهم فتمّ اغتياله في مراكش بتاريخ 27 ديسمبر 1957 " فرغم انتصارهم السياسي في المؤتمر قرروا تصفيته جسديا والتخلص منه نهائيا فتمّ اتهامه بالعمل على تصفية القادة العسكريين مع الرائد حاج علي، من الولاية الأولى."[1]

وبعد فترة وجيزة تمّ اغتيال حاج علي وقد قام بهذه المهمة بوصوف معلنا أنه أنقذ الثورة. وسيتواصل هذا الأسلوب في التخلص من الخصم في الفترتين البنبلية والبومدينية إذ " يعد عبان أول ضحية لهذا الأسلوب الجديد الذي شهدته الجبهة حيث سيتم اغتيال الخصم، ويشاع أنه استشهد وسيتواصل حتى في مرحلة الاستقلال، حينما يصفي الرئيس بعض خصومه ويشيع بموتهم في حوادث طبيعية."[2]

بعد مقتل عبان رمضان صرف النظر عن نشاطات لجنة التنسيق والتنفيذ وطرحت مشكلة توحيد الجيش فتمّ تبنّي اقتراح كريم بلقاسم المتمثل في خلق لجنة تنظيم عسكرية وتقسيمها إلى قسمين ليقودا انطلاقا من الحدود الشرقية والغربية للبلاد. وقد تولى العقيد هواري بومدين لجنة التنظيم العسكرية الغربية ثم وقع تشكيل لجنة ببوزرّيعة تتكون من كريم بلقاسم

---

[1] رياض صيداوي، صراعات السياسية والعسكرية في الجزائر ...، مرجع سلف ذكره، ص 32..

[2] رياض صيداوي، المرجع السابق نفسهل، ص 35..

وبوصوف وابن طوبال تشرف على جيش التحرير الوطني سميت بهيأة الأركان العامة عهد برئاستها إلى هواري بومدين الذي عمل على انتداب تلامذة الثانوي الجزائريين الذين يدرسون بمدينة وجدة المغربية " فقد كان واعيا أن التطور السريع الذي يشهده جيش التحرير الوطني، يحتاج إلى مستوى رفيع من التنظيم والدعم اللوجستيكي."[1] فتمكن من تشكيل نواة صلبة عرفت بمجموعة وجدة "من بين أعضائها عبد العزيز بوتفليقة وبلقاسم شريف وأحمد مدغري، وقد تميزت هذه المجموعة بخضوعها التام لقائدها بومدين الذي تمكّن من إحكام قبضته على قيادة هيأة الأركان وعلى جيش الحدود وهو ما أهّله للمناداة بالخيار العسكري وإيمانه بالفاعلية المحدودة للعمل الديبلوماسي في ذلك الوقت. وذلك ما يفسر الصراع الذي نشب بين الحكومة المؤقتة برئاسة فرحات عباس وهيأة الأركان، لكن بومدين رغم النجاح الذي حققه لم يتمكّن في 1962 من تسلم السلطة لسببين أولهما صغر سنه (30 سنة) وثانيهما افتقاده الشرعية التاريخية باعتبار أنه لا ينتسب إلى القادة التاريخين الذين فجروا الثورة، إذ لم يكن منتميا إلى أي من الأحزاب المنضّمة إلى الجبهة. وهو ما يفسر فسحه المجال لابن بله في البداية.

وقد تمّ تكليف بوتفليقة بالاتصال ببن بله ورفاقه المحتجزين في فرنسا لمّا تأزم الوضع بين الحكومة المؤقتة وهيأة الأركان، فقد اقترح حلا لتجاوز الأزمة يتمثل في خلق مكتب سياسي متمايز عن الحكومة المؤقتة تمّ فيه الحصول على تأييد بن بله وخيضر وبيطاط فيما قوبل بالرفض من قبل بوضياف وآيت أحمد اللذين اعتبراه انقلابا عسكريا.

وقد استغل ابن بله مساندة الجيش بقيادة بومدين لإزاحة خصومه والوصول إلى السلطة بعد الإعلان عن الاستقلال في 26 سبتمبر 1962.

---

[1] رياض صيداوي، صراعات السياسية والعسكرية في الجزائر ...، ص 37..

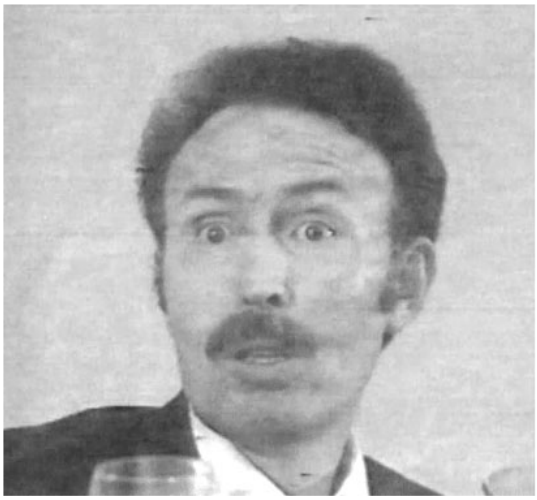

هواري بومدين

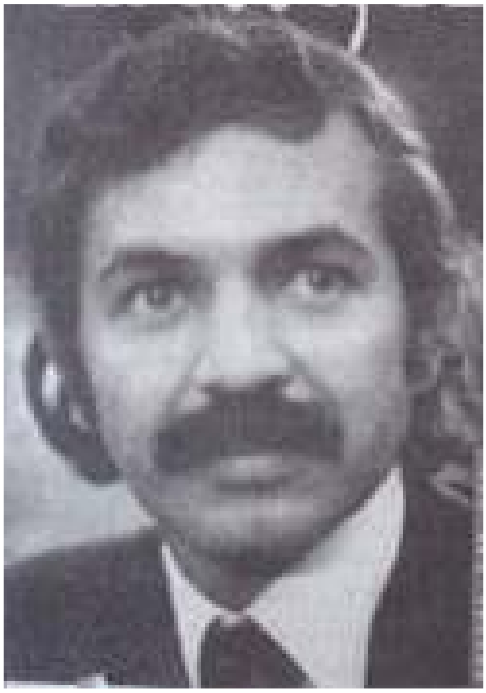

عبد العزيز بوتفليقة

ورغم النتائج التي أسفر عنها مؤتمر طرابلس في جوان 1962 وأهمها إعلان الحكومة المؤقتة حلّ هيأة الأركان وعزل قائدها بومدين ومساعده، إلا أن هذا القرار رفض من قبل الضباط الذين تشبثوا بمساندتهم لقائدهم وهو ما حفّز بومدين على تركيز إطارات عسكرية في الحكومة الجديدة خوفا من سيطرة السياسي على العسكري فجاء تشكيل الحكومة كالآتي:

- هواري بومدين: وزيرا للدفاع.
- أحمد مدغري: وزيرا للداخلية.
- عبد العزيز بوتفليقة: وزبرا للشباب والرياضة والسياحة.
- موسى حسن: وزيرا للبريد والبرق والهاتف.
- محمد الصغير النقاش: وزيرا للصحّة.

ثم قام بومدين بتوحيد الجيش تحت إسم الجيش الوطني الشعبي مما أبان عن تفوق الجناح العسكري على الجناح السياسي.

وقد تمكّن بومدين من نشر الجيش في جميع المناطق وكذلك من الاستيلاء على أجهزة الدولة وأغلب وزاراتها. ويمكن القول أن ابن بلّه في هذه الفترة لم يكن يتحكم في السلطة بمفرده، فقد كان بومدين يشاركه في جميع قراراته، فقد عملا معا على تكريس نظام الحزب الواحد منذ الاستقلال، إذ وقع اندماج بين جبهة التحرير الوطني والدولة الجزائرية، فمنعت جميع الأحزاب من العمل بالإضافة إلى انتهاج سياسة تصفية للقادة التاريخين أي السياسيين ، فقد " قررت الحكومة الجزائرية الجديدة التي استلمت السلطة في 1962 برئاسة أحمد بن بله وبتزكية من قائد جيش التحرير هواري بومدين، الإبقاء على حزب واحد هو حزب جبهة التحرير الوطني ومنع تشكيل أحزاب سياسية معارضة وذلك بمقتضى مرسوم 1963/08/14 الذي ينصّ على " أنه ممنوع

على كامل التراب الوطني أي تشكيلة أو تجمع ذو طابع سياسي"[1]، فتم حل الحزب الشيوعي الجزائري على أساس عدم إخلاصه للثورة التحريرية رغم انضمام عناصره أفرادا كما وقع إقصاء جمعية العلماء المسلمين وإلغاء كرسي الدراسات البربرية بجامعة الجزائر في 1963 مما نتج عنه استقالة جل السياسيين ردّة فعل منهم على السياسة البنبلية بدءا ببوضياف الذي أسس فيما بعد " الحزب الاشتراكي الثوري" ثم خيضر في 1963، وفيما بعد فرحات عباس الذي استقال من الجمعية التأسيسية لاعتراضه على نظام الحزب الواحد. كما عارض الحكومة كل من حسين آيت أحمد الذي نسبت إليه انتفاضة 1963 وكريم بلقاسم.

لكن التحالف بين بن بله وبومدين سينتهي بدوره بصراع جديد حول السلطة، فقد عمل بومدين على إزاحة خصمه وتم له ذلك بانقلاب جوان 1965، ويعود أصل الصراع بين صديقي الأمس وخصمي اليوم إلى اعتماد بن بله على الحزب بينما ارتكز بومدين على الجيش " مما أحدث انتقادا عنيفا وجه إليه في مؤتمر جبهة التحرير الوطني الذي انعقد في 7 أفريل 1964 فقد هاجمه المدنيون لأنه حافظ على مائتي ضابط جاؤوا من الجيش الفرنسي."[2]

وقد حاول ابن بله اختراق الجيش عند سفر بومدين إلى القاهرة فقام بجمع مناصب عديدة في يده (رئيسا للدولة ورئيسا لمجلس الوزراء والأمين العام للحزب ووزيرا للداخلية ووزيرا للمالية ووزيرا للإعلام) . وقد اتسمت السياسة البنبلية وهي سياسة شعبوية ذات توجه عروبي إسلامي، بمزجها بين الإيمان بالاشتراكية العلمية (التأثر بالتيار الماركسي) وبين الإيمان بالقيم الدينية والمبدأ القومي وهو ما سينتج عنه اضطراب إيديولوجي وكان من بين

---

[1] محمد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الأوسط" ...، مرجع سلف ذكره، ص 127.

[2] رياض صيداوي، صراعات النخب السياسية والعسكرية في الجزائر ...، مرجع سلف ذكره، ص 23..

الأسباب التي ارتكز عليها بومدين لإزاحته عن السلطة. كان بومدين يعتقد أن لا شرعية إلا للنظام العسكري ولا كفاءة خارجه، فقد آمن بومدين بعدم قدرة ابن بله على السيطرة التامة على السلطة وعندما تمكّن من إنجاز انقلابه في 1965 شكّل " مجلس الثورة " الذي حددت فيه السياسة الداخلية والخارجية للثورة، ويمكن التأكيد في هذه المرحلة، أن جبهة التحرير الوطني لم تمارس سلطة حقيقية، إذ لم يعد هناك وجود لذلك الحزب الذي فجّر حرب التحرير ، ومثل الشعب بجميع طبقاته الاجتماعية فلاحين، فقراء أو بورجوازيين ، فكل ما في الأمر حزب يجمع أولئك الذين لم يجدوا لهم عملا في الإدارة الجزائرية".[1] فلم يعقد للجبهة أي مؤتمر بعد آخر مؤتمر لها في 1964، وقد حافظ بومدين على نظام الحزب الواحد، وهو نفسه يقول في خطاب ألقاه في ندوة إطارات الحزب بنادي الصنوبر بتاريخ 9 ديسمبر 1965 ما يلي:

" فالحزب هو أساس كل شيء لأن تبنينا لمنع تعدد الأحزاب إنما يعني أنه نظام أساسه يقوم على الحزب الواحد ومعناه أن السلطة تستمد قواها وطاقتها من حزب جبهة التحرير الوطني. وليس ذلك إلا تمشيا مع القرار الذي اتخذه الشعب الجزائري في 1954 بالقضاء على جميع المنظمات السياسية القديمة التي على هذا الأساس والمبدأ يجب أن يكون عملنا وتصرفنا بالنسبة إلى المستقبل، أي أنه ينبغي أن نستمد كل قوانا من الحزب ومن قوة المناضلين."[2] لقد وسم المعارضون منع نشاط الأحزاب والمنظمات بالدكتاتورية واعتبر أحد كبار المواطنين الجزائريين وهو فرحات عباس أن بومدين فرض سلطته بالخوف والقوة فقد كتب:

---

[1] رياض صيداوي، صراعات النخب السياسية والعسكرية في الجزائر ...، مرجع سلف ذكره، ص47

[2] خطب الرئيس بومدين، مصدر سلف ذكره، صص 125-126.

"إن عندي شخصيا نفورا قشريا من كل دكتاتورية. فالحقّ في إبداء الرأي المخالف لا يقل قيمة عن حق الإنسان في الغذاء. وحرية إبداء الرأي وحرية النقد مرادفات للحياة.

إن تربية المواطنين ليس من الممكن أن تتحقق إلا في سياق ديمقراطي. ومصادرة الحرية وجعلها حكرا على النظام الحاكم إنما يعنيان العودة إلى الزمن الذي كان فيه أحد ورثة الملك الشمس يقول:" هذا قانوني لأن هذا هو ما أريده "[1]

لقد اعتبر بومدين أن انقلاب 19 جوان 1965 رجوع إلى المنبع يقول :" إن حركة 19 جوان رجوع إلى المنبع إلى أصل الثورة ووضع حد لذلك الانحراف الخطير الذي كانت نهايته الحتمية هو القضاء على كثير من العناصر الثورية."[2] وكثيرا ما انتقد سياسة ابن بله واعتبر نفسه المؤهل الوحيد لتخليص الشعب الجزائري من ردح استعمار جديد يقول:

" إن أي مواطن جزائري مهما عظمت مكانته وعلت مسؤوليته لا يمكن أن يدعي بأنه وحده يمثل الجزائر، والثورة والاشتراكية في آن واحد. ومهما بلغت السلطة من درجة في الفوضى فإنه لا يمكن بأية حال من الأحوال لأي كان أن يتصرف في مقدرات الشعب كما لو كانت ملكه الشخصي."[3] ثم يقول في موضع آخر " إن ابن بله بعد أن رفع القناع على الخداع والمغامرة والمغالطة السياسية سيلقى المصير الذي خصّ به التاريخ كل المستبدين، وسيفهم آنذاك أنه لا حقّ لأحد أن يهين الأمة، وأن يعتبر نبل الشعب غفلة وسذاجة، وسيفهم

---

[1] Farhat Abbas, L'indépendance confisquée op.cit, p.138.

[2] خطب الرئيس بومدين، 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره، الج 1 – ص 127

[3] خطب الرئيس بومدين، المصدر السابق نفسه، ص 8.

أن لن يكون في إمكان أي فرد أن يغتصب – بطرق فاسدة– الثقة السياسية التي يضعها فيه."[1]

إن موقف بومدين من ابن بله ومعارضيه له، لن يكون إلا وسيلة يبرر بواسطتها عملية انقضاضه على السلطة، إذ ستثبت السياسة التي انتهجها في فترة حكمه أنها لا تكاد تختلف على مستوى الانفراد بالحكم عن سياسة ابن بله في شيء، فهو سيلغي دور الشعب باعتماده على الضباط وتركيزهم في جل أجهزة الدولة مما سيؤدي إلى إبعاد السياسيين المدنيين عن المشاركة في القرارات المصيرية للبلاد. وسيبيح لنفسه صلاحيات مطلقة يتم فيها تغييب الأحزاب والمنظمات الجزائرية المختلفة وسيعتبر نفسه المؤهل الوحيد لـــ"التصرف في مقدرات الشعب" وهذه نقطة سبق أن آخذ عليها ابن بله بشدة. كما أنه سيتبنى التجربة الاشتراكية بعد أن اعتبرها في مرحلة سابقة أفكارا دخيلة يمكن أن تعصف بالجزائر.

إن لتركيزنا على كيفية وصوله إلى السلطة ثم نقدنا عموما لسياسته ما يبرره ما دمنا نهتم بالفترة البومدينية وانعكاساتها على الأدب وتحديدا على نصوص اليساري الطاهر وطار الذي اتسمت مواقفه من هذه الفترة بتطور تفسّره الظروف المتغيرة. إذ يمكن القول أن مواقف وطار تغيرت تغيرا جذريا منذ الاستقلال حتى الآن، فبعد أن عبّر في البداية عن مساندته بومدين خاصة في رواية "العشق والموت في الزمن الحرّاشي" نراه في عديد من الروايات اللاحقة يزداد قسوة على الفترة البومدينية، فما هي أسباب هذا التطور في النظرة إلى الفترة البومدينية وتحديدا إلى السياسة البومدينية ؟

تمثل الفترة الأولى للاستقلال، فترة العمل على إعادة بناء الجزائر الوليدة وتركيز مقوماتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذلك كان من

[1] خطب الرئيس بومدين، المصدر السابق نفسه، ص 10.

الضروري تعبئة جميع الطاقات من أجل هذا البناء خاصة بعد أن خرج المستعمر مفرغا البلاد من جميع مقومات تحضرها مما أفسح المجال لمحاولات بحث عن كيفيات نحت الكيان في الستينات والسبعينات تميزت بالفوضى والانقسام أي بما وصفه وطار " بالزمن الحراشي" وهو زمن الفوضى والخردة ، زمن قيادة البورجوازية الوطنية للحزب في ترددها وتذبذبها وجبنها في مواجهة الحقيقة."[1] يوغل وطار في وصف مميزات هذا الزمن متخفيا وراء قناع "برهما" في الرواية فيكتب:

" ...في الأسفل أخدود عريض تتجمع فيه مياه آسنة ، خضراء داكنة، تنبعث منها رائحة كريهة، وعلى سفح مثلث يمتد من الماء، ويمر تحت الجسر حتى طريق علوية، تفصل بنايات معوجة، من كل جانب، تجري حركات ذهاب وإياب، ولف ودوران، ونهوض وقعود، وانحناءات واستقامات وينبعث هدير الأصوات. ملايين الأصوات، بين ألحان شعبية أو عصرية، شرقية وغربية، وبين هتافات وصراخات واستغاثات، بالإضافة إلى أزيز محركات آلاف السيارات هناك.

حيدر آباد ، آقرا، بومباي، دلهي الجديدة، الزمن الحراشي. هو الذي يعكس الواقع المرعب للفوضى ولاختلال موازين القوى."[2] هذا الزمن لا يمكن فهمه إلا إذا تمّ تأمله من الداخل، يثبت ذلك وطار في حثه جميلة [3] : " لنوغل. لنوغل. الزمن الحرّاشي يعاش ولا يتأمل من الخارج كالتاريخ ." [4] ذلك أنه زمن موبوء ، كل شيء فيه يفقد قيمته . يقول برهما لجميلة عندما

---

[1] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية، مرجع سلف ذكره صص 19-20

[2] العشق والموت في الزمن الحراشي، اللاز، الكتاب الثاني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1982، صص 44-45.

[3] شخصية من شخصيات العشق والموت في الزمن الحراشي، نموذج لطالبة متطوعة في الثورة الزراعية.

[4] الطار وطار، المصدر السابق نفسه، ص 45.

تسأله الخروج من هذا الزمن : " تفكرين في الكوليرا. هذه إحدى حقائق الزمن الحرّاشي. الإنسان هنا يفقد كل خصائصه. وينزل إلى درجة الصفر. ثم إلى ما دونها. إن ذلك يتحول إلى جرثومة مضادة للكوليرا."[1]

إن سمات الزمن الحرّاشي هي التي تبرر مواقف وطار المساندة لبومدين في البداية، بل ويقر بمعرفته الشخصية له " إني أعرفه كما أعرف نفسي. وإذا ما طبقنا عليه قوانين المفهوم المادي للتاريخ، فسنجد أنه أكثر من يعمل على تحطيم الزمن الحرّاشي فبتوسيعه الصناعة، يفتح المجالات الحقيقية للانقلاب الأساسي في البناء القومي الهائل ويحدث التفاعل الاجتماعي الكبير، ويضفي طابع الثورية، على كل ما يجري في بلادنا منذ الخمسينات."[2] وهذا الموقف سيتردد كثيرا في الرواية على لسان برهما عندما تسأله جميلة هل يحب الهواري فيجيب:

"أيهما أكثر؟ الثقة أم الحب؟ إنني أثق فيه.
مصيرنا واحد. كلانا يغالب الزمن الحرّاشي. كلانا غير واثق من الوسائل التي بين يديه. إنه مثلي يصطاد في الماء العكر." [3]

لكن هذا الموقف لن يدوم، بل سيتجه وجهة مضادة تماما، فوطار لن يتوانى – في مرحلة لاحقة– عن نقد هذه الفترة بل هذه السياسة البومدينية بحدة، بل سيذهب إلى حدّ المطالبة بالخروج نهائيا من المخلفات السياسية التي تركها بومدين بعد موته، يقول :

" أنا أطالب بتغيير السلطة جذريا. الخروج مما أتى به 19 جزيران 1965 إلى اليوم يجب أن نخرج منه نهائيا. ينبغي أن يكون هناك حكم مدني يعالج فيه

---

[1] الطار وطار، المصدر السابق نفسه، ص 49.

[2] الطار وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي ، رواية سلف ذكرها ، ص 145.

[3] الطار وطار، المصدر السابق نفسه، ص 44

المنتخبون والمفكرون والمجتمع المدني القضايا. والأجهزة الأخرى تحترم نفسها وتحترم المجتمع المدني وتحترم الشعب."[1] أي الخروج من الدكتاتورية العسكرية واعتماد الديمقراطية وقبول الأطراف السياسية والمدنية الأخرى مهما كان لونها الإديولوجي فقد أوغل حكم بومدين في الانفراد بالسلطة مرتكزا في ذلك على قوة الجيش، وتم إقصاء الجناح السياسي وتجميد نشاطات الأحزاب والمنظمات وحرمانها من المشاركة في القرارات المصيرية للبلاد من خلال تكريس مبدأ الحزب الواحد الحاكم ومنع التعددية. بالإضافة إلى إقصاء دور الشعب وسيطرة البورجوازية وذلك ما دفع وطار إلى أن يكتب في الرواية ذاتها على لسان برهما ما ينبئ بتطور موقفه من بومدين.

" كان علي أن أتحداه بحكم ممارسة الكتابة، وبحكم تواجدي السياسي معه، وأيضا بحكم يساريتي التي لا يمكن أن أتطهر منها كفنان، محكوم عليه بالتوق إلى الأمثل."[2]

إن تطور موقف وطار يعود إلى طبيعة السياسة البومدينية التي انتهت بتجميد جميع الأنشطة السياسية في الجزائر وخاصة إلى سياسته إزاء الشيوعيين واليساريين فـــ" في الستينات والسبعينات والثمانينات، أن تكون يساريا يعني أن تعاني ، خاصة أن تكون داخل النظام مثلما كان الشأن بالنسبة لي."[3] فبومدين بعد أن انفض من حوله جل السياسيين وعندما أجبر على خوض التجربة الاشتراكية التجأ إلى الشيوعيين لجوءا اضطراريا فـــ" بعدما تأزم الوضع عليه وبعد أن أعلن الإصلاح الزراعي أي ما يسمى بالثورة الزراعية. الثورة الزراعية كانت دائما مطلبا من مطالب اليسار، وكانت اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني أقرت هذا المشروع في سنة 1964 و 1965

[1] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، سلف ذكره، حلقة أخيرة.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سلف ذكرها، ص 145.

[3] القدس العربي، الطاهر وطار: الكاتب والتجربة، مصدر سلف ذكره، حلقة أخيرة.

على ما أذكر، وهو مشروع قديم جاء في ميثاق طرابلس وتراجع عند انقلاب هواري بومدين على ابن بلة. وبعد ضغط كبير، عندما لم يجد بومدين مهربا، قرر الإصلاح الزراعي وسماه الثورة الزراعية الحزب تحت قيادة قايد أحمد ضد الإصلاح .

الكوادر ضدّه لم يبق لهواري بومدين سوى اليسار يتكئ عليه ويستعين بالطلبة ليخرجوا إلى الفلاحين متطوعين ليس أكثر. وبومدين نفسه استعمل لأول مرة الإخوان اليساريين، الإخوان الشيوعيين وكان أيامها في المنافي والإقامة الجبرية وفي السجون الكثير من المناضلين ومنهم بشير الحاج علي وحربي ومحمد زهوان لاحقا أطلق سراحهم. وجعل البعض منهم يدخل ولايات أخرى ممنوعة عنهم ويقول بالحرف الواحد:" نحن مع الفلاحين وهو يعلم أن الفلاحين لا يستطيعوا أن يكونوا يساريين."[1]

إن معاداة بومدين الشيوعيين رغم لجوئه إليهم كانت وستبقى معاداة صريحة. فقد استغلهم في وقت ما ليقيم بهم توازنا معينا لكنه لم يكن يفوت أي فرصة للإعلان عن معاداتهم أمام الشعب ، يقول : " لا شك أنكم سمعتم أخيرا ضجة تشير أننا ضد الشيوعيين وأنا أقول أننا ضد اللذين يعملون لغير مصلحة بلادهم ونحن نرحب بكل تعاون مع جميع الأجانب."[2] وقد طرح وطار هذه المسألة في رواية " العشق والموت في الزمن الحرّاشي" ضمن انتقاده بومدين على موقفه من الشيوعيين رغم استعانته بهم، إذ لم يكن الطلبة عموما والشيوعيون خصوصا إلا وسيلة عمل بواسطتها بومدين على تحقيق أهدافه ومنها إيهام الشعب بتشريك فئة منه في عمليات البناء. تقول جميلة:

---

[1] القدس العربي، الطاهر وطار: الكاتب والتجربة، مصدر سلف ذكره، حلقة أخيرة.

[2] خطب الرئيس بومدين، 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره، ص 79.

" يتهموننا كلنا، حتى الهواري، بأننا شيوعيون، حمر، وبأننا، كفرة ملحدون، ونحن لا تخيفنا هذه التهمة ولا غيرها. الثورة ماضية في طريقها ولن يوقفنا أحد. يريدون أن يظل استغلال الإنسان للإنسان سائدا بعد كل هذه السنوات من الاستقلال، وهذا محال."[1]

على أن الشيوعيين لم يكونوا يجابهون السلطة الحاكمة فحسب، فقد كان هناك صراع بينهم وبين الاتحاد اليميني ، وهو ما طرحه وطار من خلال انقسام الطلبة المتطوعين في الثورة الزراعية إلى شقين، شق متحرر يؤمن بالثورة الزراعية ويستشرف ما يمكن أن تفرزه من نتائج تخدم مصلحة الشعب، وآخر إسلامي بدأ "يصحو" في بدايات سبعينات القرن العشرين بعد حرب 1973، ملء المملكة الوهابية السعودية الفراغ الذي خلفته مصر الناصرية القومية، لا يؤمن بالاشتراكية القومية ولكنه يودّ لو أن يظهر بمظهر من لا يرفضها، يقول بعطوش مخاطبا الطلبة ومن بينهم جميلة : " لقد بلغنا أنكم انقسمتم على أنفسكم وأن هناك من يحاول استغلال هذا الانقسام."[2] إن هذا الانقسام من شأنه أن يخدم مصلحة بومدين الذي عمل على الانفراد بالسلطة ما أمكنه ذلك " ولقد تصرف بطريقة ماكيافيلية بحتة فأحاط نفسه بمجموعات وفئات متنافسة حتى يصرف النظر عن مركز السلطة الذي كان ممثلا في شخصه ."[3]

إن تطور موقف وطار من هذه الفترة كان مرتبطا إذن بالظروف المتغيرة التي ميزتها، وهو أنه تعامل بشيء من العاطفة إزاء فترة الاستقلال الأولى، فإن نظرته ستكتسب بعد ذلك صبغة أكثر واقعية رغم الإديولوجية اليسارية التي مازالت تسيطر عليه، وتضفي على رؤيته بعدا تقييميا للمسائل

---

[1] الطاهر وطار،العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سلف ذكرها، ص 210

[2] الطاهر وطار،العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سلف ذكرها، ص 210.

[3] محمد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الأوسط المعاصر..." مرجع سلف ذكره، ص 132.

المختلفة: " أنا كاتب سياسي بالدرجة الأولى، لا أستطيع أن أستوحي من خارج شعبي ولكن لمّا تكون وعي كامل للشعب تجاه وضعه ومستقبله صار علي الآن أن أكتب وأتحدّث."[1]

[1] بوشوشة بوجمعة، الرواية الجزائرية العربية...، مرجع سلف ذكره، ص 21.

الفصل الثالث:
المسألة الاجتماعية

"عاد (اللاز) مع العائدين في مطلع الاستقلال، يبشّر بزوال وضع، وحلول وضع آخر، وفي حين راح الجميع يغيّرون من حالهم، ويهتمون بأنفسهم، وبشؤونهم، غارقين شيئا فشيئا في متاع الدنيا ولذّة الحياة، بقي المسكين، على الهيأة التي عاد بها، رافضا كل الرفض، تغيير البدلة العسكرية التي يرتديها شتاء وصيفا، حتى، عندما تآكلت ولم يبق فيها موضع واحد تستطيع الإبرة أن تتشبّث به، أصرّ على عدم انتزاعها مقابل بدلة مدنية."

الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحرّاشي
ص 9.

"التاريخ دائما يعيد نفسه. البورجوازية واحدة وأسلوبها واحد ومنطقها واحد أيضا."

المصدر نفسه، ص 29.

كان الشعب الجزائري في أغلبيته الساحقة مثل جميع الشعوب التي تخلصت لتوّها من الاستعمار متعطّشا إلى الخير والحرية والسلام، فيما كانت السلطة الجزائرية تعتبر تحقيق الاستقلال مطلبا عاجلا ومكسبا سياسيا واجتماعيا الهدف منه هو التسيير الذاتي وبناء المجتمع، وقد عمل بن بلّه منذ تسلّمه الحكم على تكريس فكرة العدالة الاِجتماعية، خاصة وأن فكره كان مطعما ببعض الأفكار الاشتراكية التي تعتبر الشعوب قاعدة أساسية في تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وقد قال عنه شارل روبير أجيرون وهو من المهتمين بالقضية الجزائرية: " إن الثورة الجزائرية وهي من وحي ناصري بوجه خاص ترفض رسميا الماركسية والنظام الشيوعي، ورغم بعض جوانب الأصالة فقد اختارت أساليب الثورات الشيوعية ورفضت أساليب الاشتراكية الديمقراطية."[1] وهو ما يؤكد السمة التي تميّزت بها التجربة الجزائرية وقد أشرنا إليها سابقا وهي" الاشتراكية الخاصة" التي "تبناها" هواري بومدين في مرحلة لاحقة بعد انقلاب 19 جوان 1965 دون الاعتراف بتبني الأفكار الشيوعية بل وضع المسألة في إطار العروبة والإسلام تماشيا مع خصوصيات المجتمع الجزائري، وقد عمل على استغلال قيم الثورة وفكرة تواصلها باعتبارهما عاملا حاسما في تغيير العلاقات بين مختلف الفئات الاجتماعية يقول:

"بما أن الثورة كانت قاعدتها المناضلون وقاعدتها الشعب (..) بقيت الثورة شعبية وبقيت ثورة الجزائر قبل كل شيء."[2]

ولم يكن بومدين أيضا يعتبر الثورة غاية في ذاتها أو الاستقلال هدفها الوحيد، ففي الوقت الذي كانت الجزائر تعمل فيه على استرجاع سيادتها، كانت

---

[1] شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، الط 1،1982، ص194.

[2] خطب الرئيس بومدين، مصدر سلف ذكره، ص 78.

تعمل أيضا على تهيئة الأسباب التي تحررها كليا باسترداد جميع ثرواتها وإعادة تركيز مقومات شخصيتها والتمهيد بذلك لإقامة مجتمع اشتراكي عادل يحمي مكاسب ثورتنا، ويفجر الطاقة الكامنة في إمكانياتنا ويضمن تنمية بلادنا ويحقق فيها العدالة الاجتماعية التي كانت الهدف الثاني للشهداء الأبرار." [1] مؤكدا من جديد على أن الثورة عمل متواصل لا يمكن فصل ماضيها المسلح عن حاضرها أي عن مرحلة البناء الاقتصادي والنهوض الاجتماعي بالاستناد إلى بعض أفكار التوجه الاشتراكي. وقد أعاد فضل ماضي الثورة على مستقبلها إلى البطل الرئيسي للثورة وهو الشعب[2]، وقد كانت الثورة الزراعية مجالا مناسبا تمّ فيه تجسيد الفكرة الاشتراكية والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية هدفا أساسيا للسلطة، ولكن وطار يعتبر هذه الغاية ادعاء محضا لأن بومدين كان مجبرا على ذلك فقد كانت الثورة الزراعية مطلبا من مطالب اليساريين أثناء فترة بن بلّه وتحديدا في سنتي 1964 و 1965 "وهو مشروع قديم جاء في ميثاق طرابلس وتراجع عنه انقلاب هواري بومدين على ابن بله. وبعد ضغط كبير، عندما لم يجد بومدين مهربا قرر الإصلاح الزراعي وسماه الثورة الزراعية."[3] وقد أشار وطار إلى أن بقية الأطراف في السلطة كانوا ضد بومدين ومن بينهم قائد الحزب آنذاك قايد أحمد، مما دفع بومدين إلى الاعتماد على اليسار والاستعانة بالطلبة ليخرجوا إلى الفلاحين متطوعين ليس أكثر.

وعلى هذا الأساس ألا يمكن اعتبار أن تبنّي بومدين "الاشتراكية" لم يكن في الواقع إلا غطاء تمّ اعتماده لإخفاء حقيقة ممارساته السياسية خاصة وقد سجّل ظهور فوارق اجتماعية كبيرة تدعّمت في فترة حكمه وكانت جذورها تمتدّ إلى فترة الاستقلال الأولى أي هجرة الأوروبيين المكثفة بعد اتفاقيات

---

[1] خطب الرئيس بومدين، 9 جوان 1965– 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره، ص 86.
[2] خطب الرئيس بومدين، المصدر السابق نفسه، ص 125.
[3] القدس العربي، الطاهر وطار: الكاتب والتجربة، مصدر سلف ذكره، حلقة أخيرة.

إيفيان ؟ وقد تمت تعبئة إطارات الدولة وطلبة الاتحاد العام للعمال الجزائريين لإظهار تأييدهم لسياسة رئيس الدولة(ابن بله) ووضع أكثر من مليون هكتار من الأراضي في أيدي الشغيلة مما سمح بظهور صراع بين العمال والتجار اتخذ وجهين: الوجه الأول يمثله البنبليون (بشير بومعزة والحاج سماعين...) والوجه الثاني يمثله الموالون للجيش (بلقاسم شريف وعبد العزيز بوتفليقة...) وقد رجّحت كفّة الجيش الذي تمكّن من إبعاد البنبليين عن مناصبهم ومسؤولياتهم بسبب الضغط الذي كان يمارسه جيش التحرير الذي اقتصر على التسيير الذاتي. وقد اعتبر جيرار شاليان هذه النقطة من بين النقاط التي واجهتها الاشتراكية في الجزائر: " إن وزارة الدفاع الوطني، التي تتمتّع بجزء هام من الميزانية الجزائرية وهي دولة قائمة في ذاتها، وجيش التحرير الوطني يسيّر عددا من المزارع على أساس تعاوني، ويحتفظ من جهة أخرى بصلات وثيقة مع جميع من عملوا في صفوفه، ولقد نال أنصار العقيد بومدين حصّة الأسد في توزيع المناصب الوزارية."[1]

ألم يعمل بومدين بذلك على تدعيم البورجوازية ذات المطامح الرأسمالية وهي في الأساس البيروقراطية والتكنوقراطية التي تشغل الأجهزة المركزية والتي سعت إلى عرقلة مشاريع الطبقات الكادحة؟

لقد عملت السلطة على حماية هذه الفئات التي تسلّلت إلى جهاز الدولة وركزت فيه حلفاءها بعد استتباب النظام، تاركة أغلبية الشعب في حالة تهميش، وقد ظلّ هذا الشعب يؤيد" بكثير من الصلابة وصدق الالتزام كل ما يأتيه من هؤلاء القادة"[2] دون أن يكون لحزب جبهة التحرير آنذاك تأثير واضح في هذه الممارسات." وهكذا راح حزب جبهة التحرير يتفسّخ خلال

---

[1] جيرار شاليان، مصاعب الاشتراكية، بيروت ترجمة جورج طربيشي ، منشورات دار الطليعة،1964،ص 79.

[2] كمال بوشامة، جبهة التحرير الوطني والسلطة،مرجع سلف ذكره، ص 34.

أشهر قلائل. وكانت حماسة الجماهير قد انطفأت بينما راحت بورجوازية المدن الصغيرة بالشّره الذي يميزها، تنزل نفسها على صعيد الأمر الواقع منزلة الطبقة القائدة المستولية، لا على وسائل الإنتاج بل إلى حد كبير على جهاز الدولة علاوة على أموال غير المنقولة."[1]

قد يكون هذا الواقع الجديد هو ما يفسر موقف المراقبين للسياسة البومدينية والتجربة الاشتراكية التي تمّ تقييمها ووسمها "إلى حدّ ما" بالفشل خاصة أن هذه الفئة (البورجوازية) عملت على إبعاد الثورة عن مبادئها من أجل حماية مصالحها والحفاظ على مكانتها باعتبارها طبقة متميّزة في المجتمع " ولعلّ سرّ قصور الثورة على تحقيق أهدافها الاستراتيجية يعود أساسا إلى الأفكار التي استبدت بالدوائر المتنفذة في جهاز الدولة الجزائرية والتي ترى أن قضايا التنمية الاقتصادية والترقية الاجتماعية هي أساس البرنامج الوطني للدولة الجزائرية المستقلة."[2]

فقصور هذه التجربة التي اعتبرت مشروعا حضاريا مردّه إذن إلى هذه الفئة التي تمكّنت من تولّي مقاليد الحكم وتسيير شؤون البلاد [ممّا] ساعد إلى حدّ كبير على تحويل "المعركة" من منطلقها الحقيقي وهو الصراع الحضاري إلى مظاهرها الظرفية وهي التنمية الإقتصادية والترقية الاجتماعية. وبذلك تمكّن أعداء الثورة من التربص لمكاسب الثورة الجزائرية وتصفيتها بحجج خادعة ووسائل ماكرة."[3] بالإضافة إلى تدعيم هيكل إداري موروث من الإدارة الفرنسية يتخوّف من أي مشروع حضاري لا يخدم أهداف هذه الفئة التي سميت بالقوة الثالثة والتي تمكّنت في أغلب الأوقات من التحكم في مصادر القرار والتوجيه.

---

[1] شاليان جيرار، مصاعب الاشتراكية، مرجع سلف ذكره، ص 33.

[2] ناصر الدين سعيدوني، الجزائر آفاق ومنطلقات، مرجع سلف ذكره، ص282.

[3] كمال بوشامة، جبهة التحرير الوطني والسلطة...، مرجع سلف ذكره، ص60.

لعلّ ذلك ما يمكن أن نجد له تبريرا في النهج الذي انتهجه بومدين منذ بدايته وهو بحثه عن مناصرين له فقد " كان العقيد بومدين، وزير الدفاع الوطني في حينه، يعتمد على العسكريين المتذمرين ويبحث عن دعم الناقمين على النظام الذين اعتبرهم حلفاء طبيعيين."[1] وهو ما أدى إلى انتقادات كثيرة من مختلف الوجهات السياسية الرافضة لهذا النوع، كتب فرحات عبّاس: "كانوا يعتقدون أنهم يطبقون الاشتراكية ولكنّهم لم ينصبوا غير بيروقراطية ثقيلة خانقة، لقد شلّوا بما أصدروا من قرارات تعسّفية مبادرة المستثمرين."[2]

لم يقع تشريك الشعب في قرارت الدولة إلا في 1976 بمقتضى ميثاق الجزائر وقد عمد بومدين أمام الإنتقادات التي وجّهتها إلى سياسته مختلف الفئات السياسية. إلى استفتاء الشعب حول الثورة الزراعية. فهل يمكن القول أن بومدين كان من خلال هذا الميثاق يرى وجوب اعتماد الديمقراطية ؟ وكيف يمكن للثورة الزراعية أن تحقق أهدافها في ظلّ نظام الحزب الواحد وفي ظلّ تغييب دور الشعب واستحضاره صوريا؟ وكيف انعكست مجمل هذه المسائل في أدب وطار من خلال روايات "العشق والموت في الزمن الحرّاشي" وعرس بغل" و"رمانة" ؟

إن الجوانب التي سنتطرّق إليها في " المسألة الاجتماعية " سوف لن تكون كثيرة وشاملة لجميع المستويات الاجتماعية، إذ سنقتصر على المسائل التي تمّ طرحها بحدّة في ثنايا هذه الروايات وإن بدرجات متفاوتة وهي علاقة المجتمع بالسلطة ودور المرأة في العمل السياسي في فترة السبعينات من خلال نموذجي "جميلة" بطلة رواية "العشق والموت في الزمن الحرّاشي" و" رمّانة "

---

[1] شاليان جيرار، مصاعب الاشتراكية، مرجع سلف ذكره، ص 33.

[2] Ferhat Abbas, l'indépendance confisquée, op.cit, p140.

بطلة رواية "رمانة" وحقيقة الوعي الاجتماعي في علاقته بمختلف المسائل المطروحة.

يقول وطار: " الاشتراكية كما أفهمها أنا كفنّان وكأديب ومبدع وكسياسي، ليست نظرية تمليك وسائل الإنتاج للعمّال والتوزيع العادل للثروة. هي قبل ذلك، هي العدل بين البشرية منذ نشأتها. والرأسمالية في جوهرها هي امتلاك القليل للكثير وفقدان الكثير حتى للقليل."[1]

إن هذا الشاهد يحدّد نظرة وطار إلى الفترة البومدينية، وهي نظرة ترتكز أساسا على الإديولوجية الماركسية التي ميّزت فكره، والتي لن ينسلخ عنها مهما حاول تطعيمها أو تلطيفها بما يمكن أن يناقضها كموقفه مثلا من الإسلاميين. وتجدر الإشارة إلى أن مواقفه من السياسة البومدينية اتخذت صورا متعدّدة اختلفت على امتداد فترة حكم بومدين بين العشرية الأولى وبين ما يليها ففي "العشق والموت في الزمن الحرّاشي" يقول على لسان جميلة بطلة الرواية وهي من بين الطلبة المتطوّعين في الثورة الزراعية تحمل أفكارا اشتراكية: " ... سألته مرة (تعني الكاتب) هل يحبّ الهواري ، ارتسمت وسط لحيته بسمة وهمس:

أيّهما أكثر؟ الثقة أم الحب ؟ إنني أثق فيه. مصيرنا واحد. كلانا يغالب الزمن الحراشي. كلانا غير واثق من الوسائل التي بين يديه. إنه مثلي يصطاد في الماء العكر." [2]

ثمّ يقول في موضع آخر:

" إنّي أعرفه كما أعرف نفسي.

---

[1] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مرجع سلف ذكره، حلقة أخيرة.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها، ص44.

وإذا طبقنا عليه قوانين المفهوم المادي للتاريخ، فسنجد أنه أكثر من يعمل على تحطيم الزمن الحرّاشي. فبتوسيعه الصناعة يفتح المجالات الحقيقية للانقلاب الأساسي، في البناء الفوقي الهائل. ويحدث التفاعل الاجتماعي الكبير، ويضفي طابع الثورية على كل ما يجري في بلادنا منذ الخمسينات."[1]

وفي موضع آخر يقول على لسان جميلة: " برهما (وطار) يقول: إنّه يثق به ويحترمه (الهواري)، ويشعر بثقل مسؤوليته، والجماهير الكادحة تحبّه من أعماقها وبفضله أنت متواجدة هنا تشكّلين مع رفاقك ورفيقاتك، خطّا موازيا للزمن الحرّاشي والموت."[2]

إنّ ما يمكن أن نلحظه من خلال هذه الشواهد هو عدم معاداة وطار في هذه الفترة السياسة البومدينية، بل على العكس نجد في مواقفه "مساندة" خاصة وأنه يؤيد الثورة الزراعية ذات النزعة الاشتراكية. لكن الأمر سيتغير مع نهايات الرواية فيؤاخذ الشريف وهو أحد الطلبة المتطوعين " يتهموننا كلنا، حتى الهواري، بأننا شيوعيون، حمر، وبأننا كفرة ملحدون، ونحن لا تخيفنا هذه التهمة ولا غيرها. الثورة ماضية في طريقها، ولن يوقفها أحد يريدون أن يظلّ استغلال الإنسان للإنسان سائدا، بعد كل هذه السنوات من الاستقلال وهذا محال."[3]

أمّا في رواية "عرس بغل" فنجده يورد رأيه تلميحا يقول: " إنه صاحب الحق الأول والأخير. أنا لا أنازعه في شيء. ليس من سبقوه أفضل منه وليس من سيأتي بعده، أفضل منه ّأيضا. الماخور ماخور، والهزي هزي. لقد أعلن المتنبي عن ذلك منذ قرون."[4] أما في رواية "رمّانة" فإن موقف وطار يبدو

---

[1] الطاهر وطار،المصدر السابق نفسه، ص145.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها، ، ص144.

[3] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص210.

[4] الطاهر وطار، عرس بغل، رواية سلف ذكرها، ص 144.

متطورا جدا عمّا سبقه من المواقف، إذ نجده يدعو إلى التغيير الجذري للسلطة التي تعتمد على البيروقراطية والتكنوقراطية يقول على لسان"الخال"[الشيوعي] الذي تسأله رمانة عن معنى السياسة: " إنّني أشتغل بها. أهرب من الشرطة والعسكر، أنا وجماعات كثيرة، لأنّنا نريد تغيير الأوضاع، نريد القضاء على مصدر كل الآلام التي كنت تتحدثين عنها، نطرد المستغلين، ونستعيد خيراتنا، ويتعلم كل الناس ويتداوون ويشبعون، ويسكنون، في المباني الضخمة، ولا يذلّون، ولا يسيطر عليهم تاجر أو سمسار. أو أي سيد آخر."[1]

لا يتسم إذن موقف وطار من الفترة البومدينية ومن بومدين خاصة بالاستقرار فرواية "العشق والموت في الزمن الحرّاشي" يطرح مثلا مسألة تطبيق الثورة الزراعية وانقسام النخبة بين رافض للثورة الزراعية ومؤيد لها، لقد استعمل وطار لوصف هذه الفترة عبارة "الزمن الحرّاشي" و "الزمن الحرّاشي هو زمن الفوضى والخردة، زمن قيادة البورجوازية الوطنية للحزب في ترددها وتذبذبها وجبنها في مواجهة الحقيقة."[2]

إن وطار هنا ينتقد دور السلطة المدعّم للطبقات البورجوازية التي تريد أن تتحكّم في مصادر القرار وقد اعتبر بومدين ذلك استراتيجية سياسية ضرورية، إذ لا يمكن تغيير الأوضاع إلا بالاعتماد على النخبة وهي نخبة إدارية وعسكرية، ومثل هذه النظرة تحوّل بقية الشرائح الاجتماعية إلى أغلبية منساقة، ورغم أن بومدين استند في التطبيق الاشتراكي إلى الطلبة وتوجه إلى الفلاحين، فإنّ ذلك لم يكن عند وطار إلا مجرّد شعارات رفعت من أجل كسب تأييد الشعب، ففي ظاهر الأمر توجه الخطاب السياسي إلى الشعب لكنّه ظلّ يعتمد على الطبقة البورجوازية التي عملت على عرقلة مسار الثورة الحقيقية، ذلك أنّ حقيقة الثورة تختلف عن ذلك، فثورة اجتماعية واقتصادية لا تعتمد

---

[1] الطاهر وطار، رمانة، رواية سلف ذكرها، ص 75.

[2] بوشوشة بن جمعة، الرواية الجزائرية العربية...، مرجع سلف ذكره، ص 20.

على جميع الفئات الاجتماعية هي ثورة لا بدّ من أن ينتهي أمرها بالفشل رغم أنّ " الإحساس بضرورة ثورية الثورة قوي. تجسّد في ميثاق الجزائر وفي كلّ بيانات وتصريحات القادة، لكن تجسيد ذلك الإحساس، وهذه الإسقاطات الشعبية الثورية، في تنظيم ثوري طلائعي، تحتضنه وتسانده الجماهير الشعبية، وفي الانطلاق لخوض المعركة بكلّ متطلباتها وبدون عقد لم يتم بعد."[1] ولعلّ ذلك هو ما يفسر أن عددا من خصوم بومدين اعتبر أن ميثاق الجزائر في 1976، لم يكن إلا بهدف سدّ الأفواه التي تنتقد السلطة، خاصة بعد تهميش دور حزب جبهة التحرير الوطني الذي لم يكن معظم أعضائه يوافقون على التوجّه الاشتراكي، و إلا ما الذي يفسّر تذبذب المواقف الشعبية إزاء الثورة الزراعية بين مقبل عليها ومحارب لها؟ و" يبدو أنّ المعركة محتدمة، وأنه في حين يعتمد الرئيس على الطلبة والقرارات الإدارية ليجنّد الجماهير إلى صفه، يعتمد مسؤولنا نعم مسؤولنا على الهيئات الحزبية، وعلى رفض الجماهير الشعبية التلقائي للثورة الزراعية."[2]

ولم يكن الصراع مقتصرا على الفئات المتمكنة من السلطة، بل شمل الطلبة المتطوعين الذين انقسموا أيضا بين شقّ مدافع عن الثورة الزراعية وتمثله جميلة ورفاقها وبين شقّ آخر محارب لها ويمثله مصطفي وإخوانه. وقد عمل المساندون للثورة على الإقناع بجدواها بتنمية الوعي لدى الفلاحين فقد فرضت الظروف تعاملا سياسيا معينا مع الثورة، تقول جميلة:

" علينا أن نركز جهدنا الكامل على إفهام الفلاحين الذين نتصل بهم بأن القول أننا في مرحلة الاشتراكية خطر يضر أساسا الاشتراكية، وعلينا أن ننبه أصدقاءنا إلى ضرورة التراجع عن الخطأ الاستراتيجي الذي تجرنا إليه الرجعية، ألا وهو التباهي والتأكيد بأن الجزائر طبقت الاشتراكية وهي تحياها.

---

[1] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها، ص 143.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها، ص 113.

يجب أن ننبههم إلى ضرورة فصل الثورة الزراعية في المرحلة الحالية على الأقل عن باقي القطاع الاقتصادي الخاص.

إن المهم أكثر، هو كسب أكبر عدد ممكن من مساندي الثورة الزراعية وعزل الإقطاع، وفصله عن الرأسمال الوطني."[1]

إن رفض جل الفئات الشعبية للثورة الزراعية لم يكن عن وعي وإنما نتيجة الإقصاء الذي مورس نحوها ونتيجة تحريض البورجوازية على رفضها ورغم ما جاء به ميثاق الجزائر من تدعيم لدور الشعب ورغم ما ينم عنه ذلك من إيهام بشيء من الديمقراطية، فإن المنتقدين للسياسة البومدينية يعتبرون أن هذه " الديمقراطية الداخلية" ليست إلا وهما لا يمت إلى الواقع السياسي والاجتماعي بصلة. كتب فرحات عباس: " إن "الديمقراطية الداخلية " ليست إلا ضربا من ضروب البلاغة وأسطورة وتضليلا، وهي لا توجد في أي مكان في البلدان الشمولية."

وفي موضع آخر يقول:

" إن الشعوب، في كل نظام ديكتاتوري، خاسرة مهما كان الإسعاف الذي تقدمه الدولة لها، والشعب المسعف هو شعب توقف عن تحمّل المسؤولية."[2]

ورغم دعم بومدين للبورجوازية، ورغم أن توجهه إلى الفئات الشعبية الكادحة لم يكن إلا صوريا، فإن هذه البورجوازية لن تكفّ عن انتقاده:

" نعم الحكومة أنجزت الكثير، خاصة في ميداني التعليم والصناعة، لا أحد ينكر ذلك بل يستطيع المرء أن يتحدث حول هذه الإنجازات يومين كاملين دون أن يوفي الحكومة حقها. وهذا ما يسحر الطلبة وعامة الشعب. لكن أين

---

[1] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص115.

[2] Farhat Abbas, L'indépendance confisquée, op.cit, p 114.

المردود؟ لا أحد يريد طرح هذا السؤال. إن الخسارة مسّت شركة النفط. شركة النفط يا عباد الله كيف تخسر. الزيت من الزيتونة والحوت من البحر ولا رأس مال .ومع ذلك الخسارة ملازمة. لولا الإهمال، لولا السرقات، لولا التبذير باسم الاشتراكية لما كانت شركاتنا تخسر أبدا.

إن الجزائر لم تتهيأ للقطاع العام بعد . إنها لم تقم الدولة بعد. فكيف لها أن تقيم رأسمالية الدولة. لو أوكلوا الأمر على القطاع الخاص وحده، وفتحوا الباب بيننا وبين فرنسا، فرنسا خاصة لأننا نعرفها وتعرفنا، وتعودنا على بضائعها، وعلى التعامل مع آلاتها، لازدهرت الأوضاع، ولزالت الرشوة والمحسوبية والتعسف في السلطة."[1]

إن سوق الحرّاش الذي اصطحب إليه وطار أو برهما كما ورد في الرواية جميلة يعكس حقيقة وضع الجزائر في الفترة البومدينية التي تميزت باختلال التوازن، وهذا المجال (سوق الحرّاش) هو تعبير عن تناقضات مذهلة تعكس دور البورجوازية في التأثير في جميع المستويات السياسية والاجتماعية . يقول وطار: " حيدر أباد . اقرا بومباي ، دلهي الجديدة الزمن الحرّاشي هو الذي يعكس الواقع المرعب للفوضى ولاختلال موازين القوى."[2] . والزمن الحراشي هو ومن تغلغل السوق السوداء إذ أن أول ما يفقد قيمته في هذا الزمن هو العملة ، إذ تباع الأشياء فيه بأضعاف أثمانها الحقيقية مئات المرّات. تسأل جميلة برهما:

" من سيشتري منهم بمثل هذه الأسعار؟

---

[1] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها، ص 113.

[2] الطاهر وطار،، العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها ص 45.

من يبيعون بمثل أسعارهم. أو المحرومون من رخص الخروج من الشباب والعمال والكادحين، المعرضين لضغط المودة الغربية، التي تقيم لها البورجوازية هذه السوق الموازية."[1]

فالأشياء في الزمن الحرّاشي تكتسب قيمتها لا من ذاتها، ولكن من قيمتها الاستعمالية على حدّ تعبير وطار.

إن مثل هذه الممارسات من شأنها أن تشلّ سير الثورة الزراعية والتطبيق الاشتراكي وتجعل منه مجالا مناسبا للإحباط الاجتماعي ولعل العنصر الذي يجعل الإصلاحات الاقتصادية في الجزائر صعبة هو تغلغل السوق السوداء في النسيج الاجتماعي والأسري، وعرقلة الأطراف المستفيدة في جبهة التحرير الجزائري، ذلك أن حجم السوق السوداء في الجزائر يقدّر بـــ 10 مليار فرنك فرنسي."[2]

لقد وصل الأمر بالانتهازيين والأثرياء الجدد حدّ اللجوء إلى الشعوذة من أجل تحقيق أهداف سياسية بسيطة وإحباط المشروع الاشتراكي، وقد مثلت شخصية اللاز التي اكتسبت هالة من التقديس لما تم اعتباره وليا صالحا، قبلة لا غنى لعامة الناس عنها ناهيك أصحاب المناصب، فهذه زوجة أحد الانتهازيين تقول : " (...) يقول لك سأعبد طرقات القرية، حتى الخلفية التي لا يسلكها إلا ساكنوها، سأنير القرية بأكملها، حتى أكواخ الحي القصديري. سأرأف بجميع الناس وخاصة المظلومين، سأقف إلى جانب كل صاحب أرض وأقسم بالله العلي العظيم ، أن أعتبر كل قطعة أرض تتعرض للتأميم أرضي أنا. أدافع عنها وعن صاحبها كما أدافع على أرضي وعلى نفسي (...) يقول

---

[1] الطاهر وطار،المصدر السابق نفسه، ص 46.

[2] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، تونس ، دار سراس للنشر، 1995، ص 44.

لك إذا نجح في الانتخابات البلدية القادمة يفرش كوخك بالآجر ويدخل إليه الماء والكهرباء ويسيج ألف متر تحيط به."[1] وأمام مثل هذه الممارسات يبقى دور الأغلبية الساحقة المهمّشة سلبيا ، فقد تم إقناعها بخطورة الثورة الزراعية والتسيير الذاتي والنظام التعاوني إلى حد تكفير المشرفين عليها فأصبح: "هؤلاء الناس، هذا الشعب ، ينتظرون كل شيء من الهواري. ويبدو أنهم غير مستعدين لتقديم أية مساهمة. هل ماتت روح المقاومة فيهم...أم هل أخمدت؟"[2] ولعل هذا الأمر يبدو بالنسبة إلينا طبيعيا خاصة أن هؤلاء الفلاحين لا يملكون من صفة الفلاح سوى الإسم، فهم في الحقيقة ليسوا سوى الأجراء الموسميين، الذين ينطلقون من المغاور والجبال والسهول والسهوب، بحثا عن أي عمل، وبما أنهم ريفيون، فقد أطلقت عليهم هذه التسمية.

تردّدوا كثيرا قبل أن يسجلوا أنفسهم في قوائم المستفيدين من الثورة الزراعية. لقد راجت في الريف الجزائري بسرعة فائقة، فتاوي دينية مفادها أن الاستفادة من الأرض حرام. ذلك أن هذه الأرض مستولى عليها بالقوة، وهي عند الله شاء العبد أم أبى ملك لأصحابها الأصليين، ثمرتها حرام والاستفادة بها كفر. كما راجت دعاية قوية، تؤكد للجميع أن باقي مناطق البلاد لم تؤمم الأرض فيها ذلك أن أصحابها حملوا السلاح والتحقوا بالجبال وهم زاحفون للقضاء على السلطة الكافرة، وعلى عملائها من الفقراء المستفيدين. يقال ذلك في كل منطقة ثم إن السلطات المعنية بتسجيل الراغبين في الأرض نفسها كثيرا ما تقوم عائقا هاما في ذلك ، ولا غرابة فمعظم الموظفين في البلديات أو الدوائر، هم ملاكون عقاريون، أو من منبت إقطاعي."[3]

---

1) الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها، ص 90.

[2] الطاهر وطار،المصدر السابق نفسه، ص 117.

[3] الطاهر وطار العشق والموت في الزمن الحرّاشي، رواية سلف ذكرها، ، ص 36.

إن التأثير السلبي للبورجوازية في مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أقلّ ما يمكن وصفه به، هو "العنيف" فقد بلغ حدّ الرفض: رفض تعليم الطبقات الفقيرة، يورد وطار ذلك على لسان إبراهيم أحد الطلبة المتطوعين ، يقول:

" سمعت مرة واحدا من أغنياء المدينة يقول أن القيامة ستقوم، لأنّ الريفيين اتجهوا إلى تعليم أبنائهم، تصوّروا من سيرعى الأغنام في المستقبل أو يحلبها، أو يعدّ الفريك، أو ينسج الحصر والزرابي، إذا كان ابن الريفي معلّما أو موظّفا أو طبيبا فماذا سيكون أبناؤنا نحن؟ لقد قال ذلك أمام جمع كبير من الريفيين دون أن يشعر بأدنى خجل."[1]

أمّا بشان المرأة فقد لعبت القوى المحافظة دورا هاما في محاولات الحدّ من مشاركتها في الثورة الزراعية خاصة، وبقية المجالات عموما، وقد وصل الأمر بهؤلاء المحافظين حدّ تشويه سمعة من ترفض صورة المرأة التقليدية يقول مصطفى:

" أمن الحق أن تفقد المرأة، ما ميّزها الله به، وتدوس على الشرف، والرجولة، والكرامة، والأمومة والأخوة، وتخرج إلى الشارع دابة ضائعة، عرضة للنهش والافتراس، الرجال قوامون على النساء، الرجال قوامون على النساء، صدق الله العظيم. إنّنا على غير الحق، ولقد صبرنا على غير الحق."[2]

---

[1] الطاهر وطار المصدر السابق نفسه، ص 164.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سبق ذكرها، ص 110.

لويزة حنون رئيسة حزب العمال الجزائري (أقصى اليسار)

لكن هذه المرأة في وجهها الاشتراكي الحديث كانت، بتأثير اليساريين والشيوعيين، تؤمن بقدرتها على الفعل والعطاء وبإمكانية المساهمة في التأثير على تقدّم المجتمع والسمو بوعيه:

" إنك يا جميلة منتصرة، قهرت الظروف والمحيط والذات، انعتقت تماما حتى بلغت حدّ النضال من أجل إعتاق غيرك، إعتاق الجزائر من هيمنة الإقطاع وتسلّط الاستغلاليين. إعتاق الإنسان الجزائري من الاستغلال والظلم والعسف. مناضلة، إنك مناضلة رفيقة يا جميلة، واحدة من نخبة قليلة، لها الشجاعة الكافية، لترفع عقيرتها بلا تردّد ولا خوف ولا خجل.

" إيه شعبية، ثورة زراعية.

إيه شعبية تسقط الرجعية.

إيه شعبية ثورة اِشتراكية.[1]"

[1] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سبق ذكرها ، ص 35.

لقد اعتمد وطار في نقد الطبقة البورجوازية في فتراتها البومدينية في "العشق والموت في الزمن الحرّاشي" في أغلب الأحيان الأسلوب الواقعي المباشر، لكن هذا النقد سيتطور في روايتيه اللاحقتين اللتين تناولناهما بالدرس، "عرس بغل و"رمانة" موغلا في الرمزية. وخاصة فيما يتصل بالمرأة باعتبارها مرادفا للجزائر في فترات الحيرة والاضطراب.

تكشف رواية "عرس بغل" حقيقة البورجوازية، وتفضح المتهافت من الممارسات إزاء الفئات الشعبية التي وقع تهميشها زمن الاستقلال، وتعبر عن عمق مأساة جزائر التجربة الاشتراكية في ظلّ انتهازية الطبقة البورجوازية يقول الطاهر وطار عن الرواية:

" تصور رواية "عرس بغل" أعراس البورجوازية الوطنية عندما تثور على الإقطاع بإسم الطبقة العاملة. هذه ثورة عقيمة بدون دوافع، فقط إحسان وتبن وليست دوافع طبيعية. هي أعراس ثورة البورجوازية الصغيرة الاجتماعية والاقتصادية فمن أجل أن تستعيد العنابية أموالها تختن أولاد الفقراء. هناك خلفية مزيفة تماما."[1] ولعلّه بذلك يوغل في انتقاد السلطة التي مكّنت الطبقة البورجوازية من أن تشرف على صياغة قرارات الدولة، والظهور بمظهر الطبقة الفاعلة في المجال الاقتصادي المؤثرة في التطور الاجتماعي، يضيف وطار:

" عرس بغل ولدت كشحنة عاطفية قوية. كنت أقوم بجولة في المناطق الريفية لإنجاز معرض صور للفلاحين الجزائريين فخلقت في نفسي كل تلك البنايات والمشاريع شعورا عميقا بأنها عرس عقيم، يأتون بأناس من البادية، يضعونهم في قرية طيلة 24 ساعة ليشاهدوا المهرجان ثمّ يعودون بهم من حيث أتوا."[2]

---

[1] بوشوشة بوجمعة، الرواية الجزائرية العربية ...، مرجع سلف ذكره، ص 20.

[2] بوشوشة بوجمعة، الرواية الجزائرية العربية ...، مرجع سلف ذكره، ص 21.

أفليس في ذلك انتقادا للإنجازات التي قامت بها السلطة في فترة السبعينات "مدّعية " أنها ترمي إلى النهوض بالفئات الضعيفة في المجتمع: الفلاحين والعمال؟

إنّ وطار يعتبر أنها طريقة زائفة مهما وقعت تغطيتها بأصباغ تجميلية: " فما هكذا أراد حمدان أن يقرمط بين الناس. هذه قرمطة زائفة، وطريقة انتهازية للعطاء، وللتلقي، تفوه، تفوه."[1] وهي أصباغ خلفها تناحر بين المعارضين للثورة الزراعية في محاولاتهم القضاء عليها من داخل جهاز السلطة، والمتشبثين بها ، المدافعين عنها دفاعا يمكن القول عنه أنه محتشم. " عدة أسود تتقاتل على جثة فيل ! في أي عالم أنا يا ترى؟ لفحته نسمة أخرى، شعر بشيء من الحيوية تدبّ فيه، تأمل الأسود والفيل، كانت تصغر وتصغر. بدت له نمورا عند جثة بغل، ثمّ كلابا عند جثة حمار (...) هذا هو نظام الحياة... إنه فاسد في أساسه وفي حاجة ملحة إلى حمدان ليقرمط بين الناس ويقرمط، حتى يقيم الألفة، ويذيقهم جميعا طعام الجنة."[2] لقد انتهى "الحاج كيان" بطل رواية "عرس بغل" إلى هذا الاستنتاج المأساوي. ويضيف وطار في موضع آخر معبّرا عن عمق هذا الصراع " إذا كانت المسألة متعلقة بالأتراك فسأضع حدّا للأتراك. نعم وليكن. دعهم يضعفون أولا في محاربة بعضهم البعض، فريق يناصر المستعين، وآخر يناصر المعتز. كلّ خلاف رحمة. ينبغي أن لا أظهر بمظهر الحازم. قبل أن يستتبّ الأمر لي، وإلا تحوّل أعداء المستعين إلى أنصاره."[3] إنّ وطار يرمز إلى السياسة التي انتهجها بومدين عندما أحاط نفسه بفئات تختلف انتماءاتها ظلّت تتصارع لتفسح له المجال لمزيد فرض سلطته الفردية؟

---

[1] الطاهر وطار، عرس بغل، رواية سلف ذكرها ، ص192.

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 196.

[3] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص158.

لكن وطار يكاد يعلن يأسه إذ أن رأس السلطة هو "صاحب الحق الأول والأخير أنا لا أنازعه في شيء. ليس من سبقوه أفضل منه وليس من سيأتي بعده أفضل منه أيضا. الماخور الماخور والهزي هزي. لقد أعلن المتنبي ذلك منذ قرون."[1] وسيظلّ يقيّم هذه الفترة باعتبارها فترة اختلال موازين القوى، وهو اختلال لا سبيل إلى إصلاحه إلا باعتماد حلول جذرية:

" (...) أن يكون المرء خليفة، أو سيد أرض الأمر سواء. هناك الجند هناك الزنج.الوضع كله فاسد. لن يصلحه خليفة. لن يصلحه دين." [2]

تلك هي حالة الجزائر التي رمز إليها وطار بالعنابية وبحياة النفوس اللتين كانتا تمتهنان البغاء وتعيشان في ماخور وقد تعبر شخصية العنابية عن الجزائر/ الثورة المستمرة في غياب فعلها، لتعوضها حياة النفوس التي قد يرمز بها وطار إلى جزائر المشروع الاشتراكي، الجزائر الحيرة والخوف. تقول حياة النفوس متذمرة : " راسي يا حمود يا خويا راسي، أنا مريضة." [3] ورغم الحالة المرضية التي هي عليها تبقى معبرة عن الثورة التي يجب أن تستمرّ، ثورة الجزائر الاشتراكية. هذه البنت حياة النفوس، كلها خير وبركة، فمنذ مجيئها ازدهرت الأوضاع، جميع الأوضاع، لشد ما تشبهني، إنها نسخة مني يوم كنت في مثل سنها، لولا بعض اللامبالاة والبرودة، لكنها أنا مكرّرة، لكن لا يضير جيل هذا الوقت تليل الطموح، بارد."[4] هكذا تقول العنابية لكن حياة النفوس التي سيعرض عليها قروي ساذج الزواج ستسقط في الحيرة وستجبر على ضرورة الاختيار، إنه زمن البحث عن قرارات صائبة وحاسمة

---

[1] الطاهر وطار، عرس بغل، رواية سلف ذكرها، ص 144 .

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 161.

[3] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 72.

[4] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 24.

في الجزائر تتعلق بالشعب الذي كانت مواقفه بشأن الثورة الزراعية متذبذبة والذي عليه أن يشارك مشاركة فعلية في صياغة القرارات المصيرية للبلاد.

وإنه لا مأوى للثورة إلا لدى الطبقات الكادحة من فلاحين وعمال وهو ما يمكن أن يحيل عليه ما يلي:

" سرعان ما راجت الإشاعة، حياة النفوس ستتزوج وجدت عريسا أغنى من قارون. استشارت الحاج كيان قبل أن تستشير حتى نفسها. قال لها الحاج كيان أسرعي قبل أن يتراجع الرجل. خيرها بين السكن في المدينة والريف، فلم تجبه، لم تستطع أن تختار. والحاج كيان قال لها. أسكني الأعوام الأولى في الريف...ثم عودي إن شئت إلى المدينة."[1] فلعله إيمان من الطاهر وطار بأن الثورة الحقيقية هي تلك التي تحتضنها الكتل الشعبية الكادحة وهو إيمان محكوم بإيديولوجيته اليسارية التي يقيّم من خلالها جميع الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجزائر التي عبر عنها أيضا بشخصية رمانة في رواية "رمانة" يقول :" أؤكد... أن رمانة، عمل سياسي مهما بدا مسطحا، فإنه لا يخلو من الرمز. وأن رمانة كغيرها من أعمالي لا يجب أن تقرأ مفصولة عن الزمان والمكان وعن غيرها من كتاباتي، وعن الهم الأساسي الذي يشغلني."[2]

هذه الرواية هي استرجاع تعود فيه رمانه إلى تاريخها منذ سقوطها في شباك الدعارة حتى زواجها من تاجر لم تفصح عن هويته، وقد استهلها وطار بمقطع وصفي يحيل على حالة الجزائر زمن البومدينية، جزائر البورجوازية المترفهة:

---

[1] الطاهر وطار، عرس يغل، رواية سلف ذكره، ص 111.

[2] الطاهر وطار، رمانة، رواية سلف ذكرها، ص 6.

" فنجان القهوة يفور تنبعث منه رائحة لذيذة وأشعة الشمس تخرق زجاج النافذة والستار السابري المزركش وتستقر على جزء كبير من السرير فتضفي على لون اللحاف الوردي سحرا يبعث على النشوة والأحلام وهي جالسة على كرسي وثير عارية الصدر لا يغطي باقي جسمها سوى قميص نوم حريري أملس شفاف."[1]

ومادام هذا الشاهد يرمز إلى سيطرة الطبقة البورجوازية على حياة البلاد فإن رمانة ترمز إلى الطبقات المضطهدة فهي تنحدر من حي قصديري ثم استغلّت فئة مفاتنها لتحقيق الربح. هذه الفئة لا تفرق بين إنسانية الإنسان وقيمته إلا باعتباره بضاعة قابلة للبيع والشراء وهو ما يجعل بوعلام يقول في مناسبات عديدة لرمانة إذا لم يتّجر بها هو سيتّجر بها غيره فالضعفاء ميتون من يوم ولادتهم لكن رمانة كغيرها من الشخصيات الأنثوية الرامزة إلى الجزائر تتغلب على وضعيتها وتنسلخ عن ضعفها لتحضن عالم المغامرة والمساهمة في تغيير الوعي الاجتماعي ولم يكن من سبيل سوى الانخراط في العمل السياسي ومساندة من يدافعون عن العدالة الاجتماعية والديمقراطية بل والوجود الإنساني في أجمل الصور التي يؤثثها الالتزام بقضايا الدولة والمجتمع تقول:

"راح [الشيوعي] يشرح لي مهمتي، وأنا أصغي إليه بإمعان، وازددت حيرة في أمره، وما أن فرغ حتى التحفت وخرجت. قطعت عدّة شوارع ودروب، كما وصف لي، وعندما حللت بالمكان الذي حدده لي، أخرجت نقودا، ورحت أتظاهر بعدّها فاقترب مني متسول ينحني على عصا بيضاء، ويضع على عينه نظارات مهشمة."[2]

---

[1] الطاهر وطار، رمانة، رواية سلف ذكرها، ص7.

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص70.

لقد وضعتها الصدفة أمام هذا "الخال" الذي انتشلها من الجهل بالواقع الاجتماعي للجزائر تقول:

"وفي طريقي إلى مكان الموعد، كنت أشهر باعتزاز وفخر، وأنظر إلى السادة والأغنياء والتجار باحتقار وأبصق باشمئزاز في وجه أصحاب السيارات الذين يضايقونني."[1]

تعبر الروايات الثلاث عن فترة حرجة من تاريخ الجزائر وهي الفترة البومدينية التي ميزتها تناقضات كثيرة على المستوى السياسي والاجتماعي، فاختلفت حولها الآراء بين من يقر بجدواها، أي جدوى التجربة الاشتراكية وبين من يذهب إلى أنها فشلت لأنها لم تكن نابعة من الخصوصية الجزائرية، فقد أثرت هذه الأفكار (الاشتراكية) سلبيا في الجزائر عموما، بل ذهب البعض إلى حدّ اعتبارها نقيضا للمنظومة الدينية الإسلامية الجزائرية فهذا فرحات عباس يقول:

"إذا كانت الجزائر تنتمي إلى الاشتراكية الستالينية فهي بذلك تكف عن الانتماء إلى العالم الإسلامي."[2] ففرحات عباس يرى أنه يجب الانطلاق من خصوصية الجزائر قبل التورط في استيراد أفكار دخيلة وغريبة: "علينا قبل أن نلزم بلدنا بانتهاج نهج مستعار أن نزن مزاياه وإمكانات تكيّفه ونجاحه عندنا."[3]

ويذهب عباس في حكمه على المشروع الاشتراكي إلى أبعد من ذلك فيكتب في بومدين: "لا شك أنه سيقول إنه ألغى "الخماسة" ولكنه في الحقيقة حوّل كل الفلاحين إلى "خماسة" للدولة."[4]

---

[1] الطاهر وطار رمانة، رواية سلف ذكرها، ص 85.

[2] Ferhat Abas, l'indépendance confisquée, op. cit, p122.

[3] Ibid, p120.

[4] Ibid, p 129.

فالمشروع الاشتراكي في رأيه أضر بالجزائر أكثر مما أضر بها الاستعمار: "إن القانون الذي سلب، بإعلان الثورة الزراعية، الفلاحين أراضيهم سلبا منظما لم يعمد الاستعمار إلى مثله، إنّما هو قانون أثيم أملاه حقد بومدين على الملاكين وعلى من يحبون الأرض ويجدون سعادتهم في خدمتها. لقد اغتال بومدين الفلاحة وقتل الجهد الفردي."[1]

ويعبر فرحات عباس عن رفضه القطعي للتوجه الاشتراكي الذي تمّ تبنّيه فيكتب:

"لقد سبق لي أن قلت ذلك. إني أعتبر الاشتراكية الستالينية "يوطوبيا"(Utopie) إنها طريقة ضيقة ومضادة للطبيعة."[2]

لكن كمال بوشامة الذي يشغل اليوم منصب سفير الجمهورية الجزائرية في سورية لا يدين الفترة البومدينية إذ يقول:

"إنّ الجزائر في عهد بومدين كانت ذلك الشغف بالعدالة الاجتماعية إلى حد التحيز لمصلحة الأكثر ضعفا. ذلك الشغف الذي قال عنه قاصدي مرباح: "إن ما يفسر على المستوى الوطني، البرامج الخاصة والقوى الاشتراكية، وإشاعة الديمقراطية مجانية التعليم والصحة وأنواع الحماية الاجتماعية إلى أبعد ما هو كاف أحيانا على المستوى الدولي، هو الدفاع عن القضايا المحقة."[3] ويذهب إلى إدانة الطبقة البورجوازية التي كانت سببا في فشل الثورة الزراعية يقول:

"وإذا كانت الثورة الزراعية اليوم تصور كفشل كامل (...) يجب القول إننا قد أخطأنا في تطبيق الثورة الزراعية (...) لقد انخدعنا بالتأكيد لأننا انخرطنا

---

1) Ferhat Abas, l'indépendance confisquée, op. cit, p143.
2) Ibid, p130.
3) كمال بوشامة، جبهة التحرير الوطني والسلطة ...، مرجع سابق ذكره، ص 116.

بعناد في مشروع غير معقول، عندما أجبرنا الفلاحين على قبول النظام التعاوني الذي لم يكن لهم عهد به. لقد انخدعنا بالتأكيد فللأسف لم نتحر المحيط المباشر البيروقراطي جيدا، والذي لم يكن يتبع إيقاع التطبيق وتميز بثقل حركته وبممارسات مفجعة."[1] فقد كانت الثورة الزراعية المشروع الأكبر الذي أولته البورجوازية اهتماما كبيرا وعملت على إفشاله. ولا يختلف موقف شارل روبير أجيرون عن الموقف السابق إذ يردّ فشل المشروع الاشتراكي إلى اعتماد السلطة على البورجوازية الإدارية يقول:

"هذا التحويل الاشتراكي المتسرع في بلد مازال لا يملك سوى كوادر إدارية وفنية قليلة العدد أدى في بداية الأمر إلى خيبة أمل وإلى صعوبات اقتصادية ومالية."[2] ويرد الباحث السوسيولوجي التونسي المنصف وناس فشل المشروع الاشتراكي إلى انتهاج السلطة سياسة نظام الحزب الواحد يقول:

" قد يكون التسيير الشخصاني مصدرا لذلك، إلا أن المتأكد أن التجربة الجزائرية تورطت في بعض الأخطاء وانعكست مباشرة على مسيرة الدولة الوطنية."[3] فقد غابت الطبقة المتفاعلة مع المشروع التنموي ولم تكن الفئة التكنوقراطية متحمّسة للاشتراكية، كما تراجع دور جبهة التحرير وفاعليته ناهيك عن عدم استعداد الذهنية الجزائرية لتقبل الاشتراكية التي كثيرا ما قوبلت إما بالرفض أو باللامبالاة إضافة إلى غياب المؤسسات والهياكل الدستورية التي من شأنها أن تساعد على تفاعل أطراف التجربة وتأكيد فاعليتها:

" فلم يحدث في الجزائر توطين ناجح للاشتراكية في النسيج الثقافي والاجتماعي والذهني، كما لم تخلق قوى اجتماعية متفاعلة مع مشروع البناء

---

[1] كمال بوشامة، المرجع السابق نفسه، ص 82.

[2] شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص135.

[3] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره، ص 44.

الاشتراكي، ذلك أن استنبات الاشتراكية في بيئة عربية إسلامية يتطلب دربة ذهنية وسياسية طويلة وقدرة تنظيمية على التعبئة وثقافة سياسية مؤثرة." [1]

لا يختلف رأي الطاهر وطار عن مجمل هذه الآراء، ولعل إيديولوجيته اليسارية تدعم ربط فشل الاشتراكية بسوء تسيير السلطة أولا وسعي الطبقة البورجوازية إلى عرقلة المشروع الزراعي ثانيا فبالنسبة إليه:" الرأسمالية مغرية والأنانية باستمرار مغرية. ويبدو لي أن على الاشتراكية مهمة كبيرة وهي تحطيم الرأسمالية وإعادة بنائها من جديد."[2]

كما أنّ وطار يربط هذا الفشل المحلي في تطبيق الاشتراكية بوضع العالم الاشتراكي جمعيه.

"أنا أفسر هزيمة الاشتراكية في البلدان الاشتراكية ليس ببيروقراطية الأحزاب ولكن أعيد هذا إلى الإمكانيات الضخمة التي كانت تتوافر عليها الرأسمالية، ومن ناحية أخرى ما كانت تمثله الكثير من الدول النامية من عالة على العالم الاشتراكي فبقي الاتحاد السوفياتي وحده وتقلّصت مقولة لينين عن الدولة المنطلق."[3]

---

[1] المنصف وناس، المرجع السابق نفسه، ص 53.

[2] القدس العربي، الطاهر وطار: الكاتب والتجربة، مصدر سلف ذكره، حلقة أخيرة.

[3] القدس العربي، المصدر السابق نفسه، حلقة أخيرة.

الفصل الرابـــــــــع:

المسألة الثقافية

" ما يبقى في الواد غير حجاره"

الطاهر وطار، اللاز

عملت السياسة الاستعمارية منذ سيطرتها على بلدان شمال إفريقيا، على غرس لغتها في النسيج الثقافي في هذه البلدان، ومثل جميع المجتمعات المغلوبة على أمرها، استجابت نسبة من المجتمع الجزائري لأدوات التهميش والاستلاب الحضاري، نظرا إلى أن جلّ المعاملات كانت تتمّ باللغة الفرنسية الرسمية، وقد سعى كثير من حركات التحرّر إلى مقاومة هذا الخطر، حتّى أنّه ليمكن القول أن المقاومة المسلّحة رغم أن أهدافها الأساسية سياسية واجتماعية فإن أبعادها العميقة ثقافية. لذلك مثّل الدفاع عن الهوية الجزائرية وخصوصيّتيها التاريخية والحضارية جوهر الكفاح المسلّح منذ تصدي الأمير عبد القادر لحملة لويس دي بورمون (Louis de Bourmon) على الجزائر في ثلاثينات القرن التاسع عشر وأربعيناته، مرورا بمؤسس جمعية العلماء المسلمين (1931) عبد الحميد بن باديس الذي نادى بالتعريب، وكذلك مصالي الحاج مؤسّس نجم شمال إفريقيا الذي كان يعتبر العروبة والإسلام سدّا منيعا أمام محاولات الجهاز الفرنسي في بلورة هوية ثقافية جديدة للمجتمع الجزائري وصولا إلى قرارات التعريب التي اتخذتها السلطات الجزائرية الرسمية بعد الاستقلال زمن ابن بلّه في مرحلة أولى ثم زمن بومدين في المرحلة اللاحقة.

فإذا كان التشبّث بالهويّة الوطنية قبل الاستقلال هاجسا من هواجس المقاومة، فكيف ستتعامل الدولة الجزائرية المستقلّة مع المسألة الثقافية؟ وهل يمكن الفصل بين السياسة والثقافة خاصة في الفترة البومدينية؟ وهل تمكّن وطار من طرح مختلف أوجه المسألة الثقافية في الروايات التي نحن بصدد دراستها؟ وبم يمكن وسم مواقفه من المسألة الثقافية في الجزائر؟

يمكن الحديث عن ثلاث مسائل هامة في الفترة البومدينية تتعلّق بالمجال الثقافي في الجزائر، ويمكن على أساسها القول بعدم إمكانية الفصل بين ما هو سياسي وما هو ثقافي، فليست المظاهر الثقافية التي صبغت حياة المجتمع الجزائري إلاّ انعكاسا لرواسب تراثه وحضارته وثقافته الخاصة ممتزجة بما

ورد عليه من ثقافة أوربية بحكم الاستعمار أو بحكم الانفتاح على حضارات أخرى. وتتمثّل هذه المسائل الثلاث التي نودّ طرحها في قضية التعريب، وفي مسألة الاشتراكية، فالظاهرة الإسلامية.

لقد مثّل استرداد الهويّة جزء من النضال السياسي ضدّ المواقف المهينة التي ميّزت موقف السياسة الاستعمارية من الثقافة العربية الإسلامية، وارتبط التعريب بالكفاح المسلّح، خاصة أن السلطة الاستعمارية حاولت تكريس فكرة كون الجزائر مقاطعة فرنسية فتمّ العمل على نفي سمة العروبة عن الجزائر إلى حدّ "اعتبارها [كذا] أمّة في طور التكوّن نظرا لاحتوائها على أعراق مختلفة ومحاولة بثّ فكرة انسلاخها (كذا) عن الأمة العربية بعد إعلان توريز[1] في 1957 الذي قال بأن الجزائر أصبحت أمّة تامة التكوين"[2]. بما يفيد إنكار انتمائها إلى البلاد العربية، ولكن رغم ذلك لم تزل اللغة العربية تكتسب بعدا وطنيا وقوميا في المغرب العربي عموما وفي الجزائر خصوصا " ذلك أنّها كانت ولا تزال أداة الحفاظ على الهوية والمقاومة الوطنية والتجانس الثقافي المميّز للمغرب العربي"[3] وللجزائر.

قرّرت الحكومة الجزائرية منذ تسلّمها السلطة تعريب التعليم والإدارة والمؤسسات بشكل تدريجي منذ دستور 1963. أثناء حكم ابن بلّه، حيث تمّ إقرار أن اللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية، ثمّ سنّ بومدين قانونا في 1967 يقضي بأن تصبح اللغة العربية إجبارية ابتداء من سنة 1971 " وتسهيلا

---

[1] توريز: زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي.

[2] فيصل دراج، محمّد جمال باروت، الأحزاب والحركات الشيوعية الماركسية العربية، الج 1، المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، إشراف الرئيس علي ناصر محمد، ص 510.

[3] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره، ص 151.

لتعريب الإدارة افتتحت الحكومة فصولا ليلية لتعليم الموظفين اللغة العربية."[1] لكن هذه القرارات لن يتمّ تنفيذها بسهولة لأن فئة من "الفرنسيين–المسلمين" من ذوي التكوين الثقافي الفرنسي من الجزائريين سيحاولون عرقلة عمليات التعريب دفاعا عن مصالحهم وبالتالي دفاعا عن مصالح فرنسا وهو ما سيتسبّب في بروز صراع بين الثقافتين العربية والفرنسية فيما بعد سينعكس بدوره على الاتجاهات السياسية.

لقد كان الخطاب السياسي البومديني الموجّه إلى عامة الشعب الجزائري يؤكّد على خصوصية الهويّة الوطنية الجزائرية ، ويدعو بإلحاح إلى ضرورة تبني عمليات التعريب تشبثا بالحضارة والتراث والثقافة الجزائرية والعربية يقول بومدين:

" إن عنصرا من أهمّ العناصر وأسّا أساسيّا في التعبير عن شخصيتنا ووحدتها وازدهارها وفقا للعبقرية الخاصة بشعبنا ولتقاليده الراسخة هو لغتنا ومن دون استعادتها ستفشل جهودنا وتبقى شخصيتنا غير مكتملة وكياننا جسدا من دون روح"[2]. فالبناء الذاتي للجزائر في فترة الاستقلال استلزم: " تعريب التعليم التدريجي وإلغاء التشريع الفرنسي، وجزأرة النصوص القانونية ، وعلى الموظفين تعلّم اللغة العربية الوطنية وتأسيس لجنة وطنية للتعريب (نوفمبر 1973) وكلّ هذه أعلام تهدي إلى الغايات الأساسية للثورة الجزائرية"[3].

بهذا المنهج أصبح التعريب أحد أهمّ الوسائل المعتمدة في تحديد بعض أوجه الثورة الجزائرية المستمرّة لا سيّما الثورة الاشتراكية أو الزراعية، وقد

---

[1] د. صلاح العقاد: المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر، تونس، المغرب، الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية، الط 6، 1993، ص 581.

[2] Paul Balta et Claude Rulleau, la stratégie de Boumediene, op.cit, p. 208.

[3] Paul Balta et Claude Rulleau, la stratégie de Boumediene, op.cit, p. 20.

عبّر شارل روبير أجيرون عن ضرورة التعريب الذي يخدم التطبيق الاشتراكي على النحو التالي:

" تنوي الثورة الزراعية أخيرا إعادة تعريب الجزائر التي أفقدها الاستعمار شخصيتها (إنّه) لا يمكن بناء الاشتراكية بدون تعريب. وقد تأكّدت إرادة التعريب هذه تدريجيا في التعليم. ولما كانت ازدواجية اللغة: " ظرفية فقد رفضت الجزائر دوما الانضمام إلى حركة البلدان الناطقة بالفرنسية، فهي تنمي بجميع الوسائل استعمال اللغة العربية."[1]

ورغم أن طرح مسألة التعريب من دلائل تمكّن اللغة العربية من المحافظة على موقعها باعتبارها مظهرا من مظاهر الهوية الوطنية الجزائرية وإكساب النضال بعده الثقافي والحضاري، إذ أن التحرر لم يكن إنجازا سياسيا وحسب وإنّما إنجازا تاريخيا وحضاريا أيضا، إلاّ أن هذه اللغة لم تتمكّن من السيادة في فترة الاستقلال الأولى، فقد حتّمت الحاجة للكوادر الإدارية الاعتماد على ذوي التكوين الفرنسي، ومن " سبق وصفهم" بـــ " حزب فرنسا"، فكانت اللغة الفرنسية الأكثر حضورا في المعاملات الإدارية والاقتصادية ممّا ساعد على استمرار تغلغلها في النسيج الثقافي خاصة في الأوساط البيروقراطية المتشبّهة بالثقافة الفرنسية التي كانت ترى فيها لغة التقدّم والتكنولوجيا والمعرفة ، وهو ما سبّب تباطؤا في إنجاز عمليات التعريب " وتجدر الإشارة (كذا) إلى أن النخب خرّيجة الزيتونة والقرويين لم تكن مهيأة لتعويض الفرنسي المرتحل، بل إنّ تكوينها الديني والفقهي واللغوي لم يكن يؤهّلها البتة لإنجاز مثل هذه المهمات".[2] وهذا هو ما يفسّر قلّة الشرائح المعرّبة والمتكوّنة في الجامعات الجزائرية في الواقع الاقتصادي والسياسي والعملي " بل إن البطالة بدأت تزحف تدريجيا على النخب المعربة حديثة التكوين والتخرّج من

---

[1] شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سلف ذكره، ص 197.

[2] المنصف ونّاس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره، ص 158.

الجامعات الجزائرية"[1] ، فمجمل المعاملات الاقتصادية وخاصة تلك التي تتم مع الجهات الخارجية كانت باللغة الفرنسية.

إن إعادة بناء نسيج ثقافي يراعي الخصوصية الجزائرية العربية لم يواجه عراقيل الفئة المتفرنسة فحسب، وإنّما قاومته فئة أخرى تطالب بحقّ الاعتراف بها باعتبارها مكوّنا أساسيّا من مكوّنات الشعب الجزائري وهذه الفئة هي الفئة البربرية فقد " ظهر تيار معارضة آخر للتعريب يتمثّل في حركة الديمقراطية و الثقافة التي ينادي بها قسم كبير من البربر يسعى للحفاظ على تراثه الخاص"[2].

لم تطرح القضيّة البربريّة أثناء الكفاح المسلّح باعتبار أن جبهة التحرير تمكّنت من صهر جميع التيارات والإيديولوجيات وتجنيدها من أجل تحقيق الاستقلال، كما لم تطرح إبّان فترة الاستقلال الأولى على الرغم من أن المسيطرين على الحكم كانا عربيين، فبن بلّه كان جزائريا ذا توجّه عروبي شعبوي مطعّم ببعض الأفكار الماركسية، وبومدين ورفاقه الذين مثّلوا مجموعة "وجدة" قد كانوا كلهم من العرب ولكنّهم مثّلوا نخبة مستقلّة تحرص على أن تعود في حكمها إلى رأي الشعب إضافة إلى أنّه تم فسح المجال لجيش التحرير الوطني ولحزب جبهة التحرير فسيطرا على جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية منذ مرسوم 14-08-1963 الذي يقضي بمنع تشكيل أحزاب سياسية خوفا من استغلال فرنسا التعدّد الحزبي لتشتيت المجموعة الوطنية.

وإذا كان المراقبون لم يعتبروا أن الانشقاق الذي شهده حزب جبهة التحرير منذ 1963 وهو انشقاق بوضياف وخيضر عن حكومة ابن بلّه بعد

---

[1] المنصف وثّاس، المرجع السابق نفسه، ص 161.

[2] د. صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، مرجع سلف ذكره، ص 282.

تأييدها، هو انشقاق ذو طبيعة اثنية، فإن معارضة كلّ من حسين آيت أحمد وكريم بلقاسم الحكومة البنبلية أيضا في نفس السنة اعتبرت ذات أبعاد اثنية وثقافية، وقد زامنت هذه المعارضة إلغاء كرسي الدراسات البربرية بجامعة الجزائر بعد اشتغاله بضعة أشهر فقط. وقد تجاوزت معارضة حسين آيت أحمد شكلها السياسي لتأخذ شكلا عسكريا عززه التحالف مع قائد ولاية قسنطينة محنّد أولحاج Mohand ould Hadj الذي أعلن العصيان العسكري في بلاد القبايل التي كانت تعتبر نفسها أقلية مضطهدة ومحرومة من انتصار الاستقلال على الرغم مما اضطلعت به من دور حاسم في تحقيق هذا المكسب ورغم تراجع أو لحاج وانضمامه إلى الحكومة إثر النزاع الحدودي بين المغرب والجزائر (1963)، رفض آيت أحمد إلقاء سلاحه إلى أن ألقي عليه القبض في أكتوبر 1964.

حسين آيت أحم

ولم ينج هواري بومدين الذي ميّزت سياسته الصبغة العسكرية على عكس ابن بلّه الذي كان يخاطب مختلف الفئات الاجتماعية، من المعارضة، فقد نشبت حركة تمرّدية بقيادة العقيد الطاهر الزبيري في 1967 تلتها محاولة اغتيال في 25 أفريل دفعت ببومدين إلى أن يدخل في شبه عزلة وإلى أن يزيد من اعتماده على الجيش في تركيز دعائم الدولة وقد عمل على مقاومة الجهويّة بالتنمية الجهوية مع بعث " البرامج الخاصة" ورغم معارضة منطقة القبائل "مجموعة وجدّة" التي ينتمي إليها بومدين وبوتفليقة... إلخ، فقد تمّ عقد مجلس وزاري في هذه المنطقة في 1968، وقد التجأ بومدين إلى اعتماد سياسة الوقاية بواسطة تخصيص نسبة معقولة من المقاعد والمراكز في كلّ أجهزة الحكم لمنطقة القبائل إضافة إلى تخصيص اعتمادات مالية كبيرة للاستثمارات وبرامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية في منطقة البربر.

لكن سياسة الوقاية هذه لم تمنع ظهور المطلب الثقافي البربري في عهد بومدين، فقد تأسس في فرنسا مركز ينشط في العمل الثقافي والبيداغوجي البربري المستقلّ 1965- 1966، وقد تمكّن من تحقيق نجاح فعلي في السبعينات وفي 1967 تأسسّت الجمعية البربرية للتبادل والبحث الثقافي L'association berbère d'échange et de recherche culturels (ABERC) كان من بين أهدافهما التعريف باللغة والحضارة البربريتين وقد تمّ فيها إلى حين، تجنّب أي نقاش سياسي أو ديني وأعضاء مكتبها هم: عبد القادر رحماني (مهندس) وعمار نارون (رجل أدب) ومحند أمكران خليفاتي (عامل يدوي) وسيد حانوز (صيدلي) ومحند عرب بالسعود (مدرّس) وجفار أولحبيب (رئيس تقنية كهربائية)، وقد تمكّنت هذه الجمعية من ضمّ أكثر من ألف منخرط ولكنّها لم تتمكّن من الحفاظ على نهجها الأوّل إذ أصبح ممّا يعاب عليها هو " إغراقها في النضالية السياسية وفي الصيغة القومية المحضة إلى حدّ الاقتراب من الخطاب العنصري وتناقضاتها الداخلية فضلا عن المشاكل

الخارجية (القمع) كلّ ذلك أدى بالعديد من المناضلين إلى مغادرتها"[1]. وقد تضاءل نشاطها منذ 1976 وسجّل عدول عن أهدافها الأساسية.

لقد مثّلت فترة السبعينات أيضا فترة القمع الثقافي، فقد ألغى كرسي البربرية في 1973 الذي كان يديره مولود معمري ممثّل التيار الثقافي ذي الصبغة العلمية الذي يختلف مع الأكاديمية البربرية ذات الصبغة الشعبية وقد آزرته في ذلك مجموعة الدراسات البربرية Groupe d'études berbères(GEB) بجامعة باريس 1973 ثم تعاونية إيمديازن " La coopérative Imedyezen" في 1978. ثمّ وقع إلغاء إصلاح التعليم العالي وتدريس اللغة البربرية في الجامعة وقد زامن ذلك تمكّن مجموعة الدراسات البربرية من تطبيق مشروع تدريس اللغة البربرية في باريس منذ 29 جانفي 1973 وإزاء قمع الحكومة عددا من المطربين ومنعهم من التظاهر بأربعاء نايت إيرانن Laarbaa Nath Irathan حدثت مواجهات أدّت إلى اتخاذ الحكومة قرار منع العيد في السنة الموالية وقد قوبلت هذه القرارات برفض تمظهر في اعتماد اللغتين البربرية والفرنسية في التعامل في كثير من الإدارات والمؤسسات وحتى الأماكن العامة. وهذا التأكيد على الهوية الثقافية لم يقتصر على فئة المثقفين بل تسرّب إلى عموم الناطقين بالأمازيغية ورغم انتهاج بومدين سياسة " تهدئة الخواطر" بواسطة التنمية الجهوية في مناطق القبائل، فإن "الهدوء النسبي الذي عرفته الحساسية البربرية في عهد بومدين نتيجة سياسة تهدئة الخواطر التي انتهجتها بواسطة التنمية الجهوية بمناطق البربر عموما ومنطقة القبايل خصوصا، والسياسة التعبوية الممركزة والقمعية التي استهدفت، من جملة ما استهدفت المطالب البربرية وخاصة منها الثقافية"[2]. لم يمنع من ظهور بوادر هيجان شعبي تجسّد في المظاهرات التلقائية عام 1977

[1] محمّد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الأوسط" المعاصر ...مرجع سلف ذكره، ص 134.

[2] محمّد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الأوسط" المعاصر ...مرجع سلف ذكره ص 134.

خلال الدور النهائي لكأس الجزائر في كرة القدم الذي جمع بين الشبيبة الرياضية للقبايل La jeunesse sportive de Kabylie (JSK) ونصر حسين داي Le Nasr de Houssein – Dey (NAHD) تغنّت بشعارت "معادية للرئيس من قبيل:

- " ش.ر.ق أمازيغ: (JSK Imazighen)
- تحيا اللغة البربرية: (La langue Berbère vivra)
- لتسقط الدكتاتورية: (A bas la dictature)
- تحيا الديمقراطية: (Vive la démocratie)[1]".

وملخّص القول إنّه لم يقع تسييس المطلب البربري وتحويله من الثقافة إلى السياسة إلا بعد حدوث اعتقالات في 1975 –1976 حكم إثرها بالسجن على عدّة أشخاص بتهمة الاتصال بالأكاديمية البربرية، ممّا دفع بالفئات البربرية إلى البحث عن" إطار هيكلي يحمي المطالب البربرية" وذلك بانضمامها إلى جبهة القوى الاشتراكية الحزب الذي أسسه حسين آيت أحمد (FFS). وقد تبنّى هذه الفكرة ودعّمها معتبرا أن قضيّة اللغة والثقافة البربرية هي قضية حياة أو موت وتمكّن بالتالي من إعادة تنشيط جبهة القوى الاشتراكية، وقد أدرج القضية اللغوية في برنامجه السياسي عام 1979 " وبالتالي رسم مشروع مجتمع لائكي وديمقراطي وتعدّدي على المستوى اللغوي والثقافي، وبذلك يكون العهد البومديني عهد انتقال القضية البربرية من المجال الثقافي إلى المجال السياسي.

إن قضيتي اللغة العربية والمسألة البربرية تعتبران من أهم المسائل التي حاولت السلطة معالجتها في الفترة البومدينية ويمكن القول إن المسألة الثقافية في فترة السبعينات كثيرا ما ارتبطت بتوجهات الدولة السياسية " فإذا كانت

[1] محمّد الحاجي، المسألة البربرية في " المغرب الأوسط" المعاصر ...، مرجع سلف ذكره، ص 135.

اللغة العربية والفرنسية هما لغتا الكتابة والإدارة والسلطة فإنّ اللهجات المحلية والعامية والبربرية هي المستعملة يوميا، وهنا تكمن المفارقة الكبرى التي تعيشها اللغة العربية، فإذا كانت العربية هي أداة التخاطب الرسمي فإنها ليست بالضرورة الأداة المعتمدة شعبيا"[1]، رغم إصرار الحكومة على ضرورة التمسّك باللغة العربية مقوما من مقومات الحضارة الجزائرية العربية ومكوّنا من مكوّنات الشخصية الوطنية المستقلّة منذ إعلانها عن مخطّط التعريب يقول بومدين:

" وحرصنا هذا على مكافحة الأمية، ونشر التعليم، وتكوين الإطارات، يصحبه عزمنا الوطيد على تعريب التعليم لدينا، هذا التعريب لا يقلّ أهمية في نظرنا عن مشاريعنا الثورية الأخرى كإعادة تنظيم أجهزة الدولة وتصنيع البلاد وإنجاز الثورة الزراعية وغيرها من مشاريعنا القومية الكبرى وذلك أن لغتنا هي شخصيتنا، ولساننا الذي ينبغي أن نعبّر به عنها، ومن أهمّ مطالب شعبنا طوال العهد الاستعماري، وأحد الأهداف الأساسية لثورتنا ونضالنا الطويل"[2].

فإذا كانت مسألة اللغة بالنسبة إلى السلطة يمكن اعتبارها بمثابة اللبنة الأولى التي على أساسها يمكن للمجتمع الجزائري استرداد شخصيته التي شوهها المستعمر، وبناء دولته المستقلّة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا في إطار الثورة المستمرّة في شكلها الزراعي، فكيف سيكون موقف وطار من هذه المسألة؟ وماهي نظرته بصفته كاتبا سياسيا إلى الواقع الثقافي الجزائري في فترتي الستينات والسبعينات؟ وكيف تجلّت المسألة الثقافية في نصه الروائي؟

يقول وطار: " الواقع أنّه منذ استقلال الجزائر، كان هناك تهميش للثقافة على المستوى الرسمي، وهناك خوف من فرنسا الحاضرة بكلّ قواها، فهي

---

[1] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره، ص 150.

[2] خطب الرئيس بومدين 9 جوان 1965، 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره، صص 95. 96.

حاضرة اقتصاديا ولها إطارات على مستويات عليا وجنرالات في الجيش ووزراء، وهناك خجل على سبيل المثال من الأمازيغية، فهناك شباب يطرح مشروعية لغته وهذا من حقه، في عصر الهويات والبحث عن الذات"[1]. وبذلك يعبّر وطار عن عدم رضاه على المسلك الذي سلكته السلطة الجزائرية بعد الاستقلال لما دعمت البورجوازية فرنسية اللغة باعتبارها نخبة يجب الاعتماد عليها في عمليّة البناء، ولعلّ ما يمكن أن يثير الانتباه هو دعوة السلطة إلى التعريب واعتمادها في الأغلب على إطارات متفرنسة وهو ما يمثّل تناقضا، لم يكن في استطاعة جهاز الدولة الجزائرية الوليدة تجنبه. لكن وطار يعتبر أن هذه النخبة وإن تميّزت بسمة السلبية حين ساهمت في تهميش الثقافة الجزائرية العربية بإصرارها على انتهاج نهج التبعية للثقافة الفرنسية، فإن نخبة وطنية أخرى لم تثبت حضورا فعليا أو تؤثّر تأثيرا ثقافيا حاسما في الجزائر، يقول وطّار:

" هذه أزمتي مع النخبة. هذه نخبة من كارتون. نخبة سطحية، بمن في ذلك الماركسيون. إنهم مساكين، نخبة لا تفهم، مسارها هي نفسها. نخبة كانت بالأمس تعيش الحياة السرية وتصبح متضامنة مع جلاديها في إلغاء عمل منسوب إلى الديمقراطية. أكثر من 99 بالمائة من هذه النخبة مفرنسون ويسمون أنفسهم حداثيون. بمعنى يحبون فرنسا وحياة بدون عروبة وبدون جزائر. هذه النخبة أخجل من أن أنتمي إليها. اتضح أن الأجهزة الجزائرية تسيطر على الكثير من العقول وتتحكّم فيها، كما لفرنسا ولأحزاب فرنسا دخل فيما يجري في الجزائر."[2]

---

[1] الطاهر وطار، اللوبي المتفرنس يتآمر مع جهات خارجية ضد مصالح البلاد، الروائي الجزائري الطاهر وطار: أنا مع مشروع المصالحة الوطنية ولكنّي ضدّ عدم محاسبة الجنرلات الظالمين.

http://www.khayma. com/wattar/lire/tesrilat/alquds %20 newspaper. Htm.

[2] الطاهر وطار: ، اللوبي المتفرنس يتآمر مع جهات خارجية...مصدر سلف ذكره.

حدث إذن صراع في الجزائر بين ثقافتين مختلفتين، وفئتين مختلفتين، بين الفرنسيين والمعربين وقد " لا يصحّ [حسب وطار] استعمال معسكر معرّب ومعسكر مفرنس، هناك بكل بساطة لوبي مفرنس غير متسامح على الإطلاق، بينما المعربون في حالة دفاع مستمرّة وهم يبينون عن تفهّم كبير للآخر ويقبلونه، لكنهم من حين لآخر يصرخون معبّرين عن احتجاجهم ولكن لا يشكلون طرفا في واجهة ولا يملكون عناصر اللوبي، أمّا الآخرون فمتضامنون ومرتبطون ببعضهم."[1]

لكن آراء وطار هذه لم تظهر بشكل واضح في رواياته ما عدا بعض الإشارات من قبيل " لو أوكلوا الأمر على القطاع الخاص وحده، وفتحوا الباب بيننا وبين فرنسا. فرنسا خاصة، لأننا نعرفها وتعرفنا وتعودنا على بضائعها، وعلى التعامل مع آلاتها، لازدهرت الأوضاع كل الأوضاع ولزالت الرشوة والمحسوبية، والتعسّف في السلطة:[2]. وهو ما ينمّ عن تمسّك هذه الفئة البورجوازية المفرنسة الشديد بالتبعية لفرنسا، وهي تبعية اقتصادية وثقافية في آن واحد، ولعلّ هذا الإصرار على التشبّث بالثقافة الغربية يطفو على المعاملات العامة في "الزمن الحراشي"، زمن الفوضى كما صرّح بذلك وطار مصوّرا أحد المشاهد الدالة على مدى تعلّق المتفرنسين بالغرب الرأسمالي وحرصهم على مسايرته يقول برهما (وطار) في حوار مع جميلة:

" أوّل ما يفقد قيمته في الزمن الحرّاشي، العملة، إنّنا لم نقتحم الزمن الحراشي، هذا مدخل وليس غير.

- هل تصوّرت ثمن القميص...؟

---

[1] الطاهر وطار، اللوبي المتفرنس يتآمر مع جهات خارجية ... مصدر سلف ذكره.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سلف ذكرها، ص 113.

- أتصور فقط أنّه أغلى من سعره الحقيقي في أوربا المنسوب إليها بمائة مرّة على الأقل.
- فظيع، من سيشتري بمثل هذه الأسعار؟
- من يبيعون بمثل أسعارهم. أو المحرومون من رخص الخروج من الشباب والعمال والكادحين. المعرّضين لضغط الموذة الغربية، التي تقيم لها البورجوازية هذه السوق الموازية"[1]. وهو ما يحتوي على إشارة واضحة للفئات التي تعمل على المحافظة على بقاء مؤثرات الثقافة الغربية عموما والفرنسية خصوصا في النسيج الثقافي للمجتمع الجزائري ولن تكون هذه الفئة غير البوجوازية المتفرنسة.

ورغم ضعف الإشارات في الروايات إلى مسألة اللغة العربية والبربرية إلاّ أنّنا لا يمكن أن نستثني بعض الإشارات إلى ذلك فيما يخصّ اللغة العربية ففي رواية رمانة تطرح المسألة بشكل عرضي حين يقوم "الخال الشيوعي" بتعليم رمانة (البغي التي يحاول إخراجها من وضعها المهين) القراءة والكتابة، تقول رمانة:

" أخرج ورقة وأعطاني قلما، أمرني بإمساكه بين أصابعي، وسواه جيّدا، ثم تناول يدي، وخط على الورقة وهو يردّد:

- أ أ ....انطقي، انطقي، هذا هو الحرف الأوّل من الحروف الهجائية ....ينبغي أن تتعلّميه...."[2]

مثلما نجده يؤكّد على خصوصية الثقافة الشعبية الجزائرية حين تردّد "رمانة" مقطعا من أغنية شعبية:

- أما وسيدي عابد ...أما يشعشع نوره..."[1]

---

[1] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سلف ذكرها، ، ص 306.

[2] الطاهر وطار، رمانة، رواية سلف ذكرها، ص 72.

فيعلق الخال على ذلك بقوله:

" من أعماق الشعب ... من جذور التاريخ ..."[2]

ومثل هذه المقاطع كثيرا ما تتردّد على لسان البغايا في الماخور في رواية "عرس بغل"

" أما يشعشع نوره..."[3]

أو: " وأنا وأنا قليلة والي، وأنا الوحدانية "[4].

أو أيضا: " يا عين الكرمة وأعطني الأخبار"[5]

أو كذلك: " يا جاري يا حمود يا جاري دبّر علي. الناس تبات رقود، وأنا النوم حرام عليا"[6].

ومن جذور التاريخ أيضا يتردّد مثل شعبي على لسان اللاز " ما يبقى في الواد غير حجاره"[7].

ومثلما لم تطرح مسألة اللغة العربية في الروايات بشكل جلي، لم تقع الإشارة إلى اللغة البربرية، لكن رأي وطار بشأنها لا يمكن تجاهله باعتبار أنّه من ناحية بربري الأصل ويعتبر البربرية جزءا من التراث الجزائري لا يمكن تجاهله، ومن ناحية أخرى باعتباره ذا تكوين عربي زيتوني.

وإذا كان المستعمر قد عمل منذ أمد بعيد على تكريس سياسة التغريب الثقافي، فإن جذور المجتمع الجزائري فيها من الصلابة ما يجعلها تحافظ على ذاتها وفيها من المناعة ما يخول لها الدفاع عن خصوصيتها، لذلك نجد وطار

---

[1] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه، ص 71.

[2] الطاهر وطار، رمانة، رواية سلف ذكرها ، ص 72.

[3] الطاهر وطار، عرس بغل، رواية سلف ذكرها، ص 51.

[4] الطاهر وطار ، المصدر السابق نفسه +6، ص 72.

[5] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص 73.

[6] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص 84.

[7] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها.

يدعو إلى التمسّك بثقافة عربية وبربرية وإسلامية في آن واحد ويؤكّد أن عهد الفرنسة قد ولّى وأن التاريخ لن يعود إلى الوراء " وأن الأجيال القادمة تتجه الآن نحو ثقافة وطنية، عربية وبربرية وإسلامية"[1]. وإذا كانت آراء وطار تبدو معتدلة بشأن مضامين الثقافة الوطنية الجزائرية من ثقافة عربية إسلامية وبربرية فإن ذلك لم يمنعه من التنبيه إلى ضرورة اتقاء خطر امحاء الأمازيغية، يقول:

" هناك خطر تتعرّض له البربرية اليوم، هو خطر الانمحاء، وهو خطر يبدو لي أنه قادم من العربية والفرنسية معا"[2]. كما يؤكّد على ضرورة الحفاظ على البربرية باعتبارها جزءا من التراث والثقافة الجزائريين، يقول:

" فأجدادنا تركوا لنا أصواتا وصيغا وتراثا لغويا وثقافيا مهمّا من الجرم أن نفرّط فيه، ونجد مع هذا التراث بطبيعة الحال تداخلا مع العربية والحضارة العربية الإسلامية، حتى أن بعض الكلمات العربية تبربرت وبعض المفردات البربرية تعرّبت، وهناك من يقول أن البربرية من أصل عربي فلتمت، وأنا أقول إن كانت كذلك فهذا شرف لها وعلى العرب أن يعتنوا بها كأحد مقوماتهم"[3]، وليس موقف وطار هذا بغريب فقد عمل في وقت ما على نشر الثقافة البربرية من خلال قنوات إذاعية متخصّصة وكان رأيه بشأنها كما يلي: " بالنسبة لي، كان إنشاء المحطات الجهوية لسببين: الأول استراتيجي والسبب الثاني هو أنه حقّ إعلامي. نشرات الأخبار لا تستطيع أن تستوعب كلّ أخبار الوطن، خاصة الأخبار المحلية. أقصد أخبار تمنراست وبشار وسوق أهراس

---

[1] الطاهر وطار، اللوبي المنفرنس بتآمر مع جهات خارجية ...، مصدر سلف ذكره.

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه.

[3] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه.

وتبسة وغيرها, فمن الظلم أن تعطي للرأي العام كل الأخبار ولا تعطي للجهويين الأخبار الجهوية"[1].

ويذهب وطار إلى أبعد من ذلك في تغذيته غير المباشرة للجهوية حين يصرّح برأيه حول مدينتي تبسة وباتنة إذ يقول: " كان رأيي أن تكون هناك إذاعة مشتركة بينهما نسميها إذاعة " أوراس النمامشة" إذاعة الشاوية وتشمل كل المنطقة وليس إنشاء هوائي وإذاعة كلّ عشرة كيلومترات"[2]. بل يردّ مشكلة القناة الثانية التي كانت تذاع بالأمازيغية إلى السياسة الثقافية الفرنسية يقول: " كانت هناك مشكلة في القناة الثانية (بالأمازيغية) تركتها فرنسا وتركها المسؤولون الجزائريون ومعظمهم من بلاد القبائل. تركوها ميتة تذيع تسع ساعات على هوائي لا يتعدى خمسين كيلواط، فجئت بدراسة معاكسة للدراسة التي أنشأت هذه الإذاعة وطرحت السؤال إذا ما قويت هذه الإذاعة ماذا سيحدث، وإذا ظلّت هكذا ماذا سيحدث؟ وصلت إلى نتيجة أنّها ستكون إذاعة وطنية، إذاعة كل البربر. وهي الآن تكرّس لغة واحدة حتى أغاني ومشاعر استثنائية وهي فكرة استعمارية قبل أن تكون جزائرية. استغربت كيف لم ينتبه المسؤولون اللذين سبقوني إلى هذه المأساة فجعلتها إذاعة وطنية"[3].

فمنطقة القبايل تتسم بمميزات خاصة بها لغة وحضارة ووحدة جغرافية ووحدة اقتصادية، أي قومية حسب تعريف ستالين للقوميات يقول وطار: " تشكّل وحدة جغرافية حسب تعريف ستالين للقوميات وهي أيضا وحدة اقتصادية مرتبطة بالاقتصاد العام للجزائر ولكن في المقابل تشكّل وحدة

---

[1] القدس العربي الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مصدر سلف ذكره، ح 4.

[2] القدس العربي المصدر السابق نفسه ح 4

[3] القدس العربي، المصدر السابق نفسه ، ح 4.

لغوية"[1]. فإذا كان الاستعمار قد عمل على تفتيت الوحدة الترابية وتفكيك المجتمع الجزائري معتمدا في ذلك سياسة التهميش والتغريب، وإذا كان قد " محا النعرات الجهوية لأنه قضى في مناطق كثيرة على البنى الاقتصادية والاجتماعية وخلق في معظم مناطق البلاد علاقات إنتاج رأسمالية، كما أنه حوّل قبائل وأعراشا من مناطقها بل وفكّكها كي يستولي على أراضيها"[2]. فإن على الدولة اليوم أن لا تتجاهل المنطقة القبايلية ويعتبر وطار أن اللغة البربرية هي إحدى إشكاليات الجزائر المستقلّة التي يجب النظر في شأنها من منطلق كونها تراثا غير مادي يضيع من الجزائر لابدّ من وضع وسائل لحمايته وترسيم اللغة البربرية إلى جانب اللغة العربية في مناطقها.

إن رأي وطار بشأن المسألة البربرية واضح إذن وإن لم يظهر في رواياته ظهورا بيّنا، فما هو رأيه في مسألة الهويّة العربية الإسلامية وعلاقتها بالأفكار الاشتراكية الوافدة ؟ تجدر الإشارة إلى أن وطار لم يكن يعارض الفئات الإسلامية بل يعتبر وجودها وفعلها ردّة فعل طبيعة في مجتمع ذي ثقافة عربية إسلامية، بل هو يعتبر الحركة الإسلامية ضرورية وشرعية نظرا إلى استمرار وجود الاستعمار والإمبريالية بشكل مقنع أكثر استعصاء على الرؤية " البسيطة" وغياب الوطنيين واليساريين في مواجهة وجوه الاستعمار الجديدة وهو يؤكّد على أن الحركة الإسلامية هي حركة ولّدها التاريخ المعاصر ومن حقها مواجهة الإمبريالية والاستعمار، يقول:

" فالحالة الثقافية عموما في الجزائر في اعتقادي تدعو إلى التساؤل أكثر من أي وقت مضى فالإنسانية في هذا البلد موجودة في مفترق الطرق، مادام أن الرأسمالية لم تحلّ مشاكل الإنسان الاقتصادية والروحية، ومادات الشيوعية

---

[1] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مصدر سلف ذكره ،ح 4.

[2] كمال الرياحي، دروب مع الروائي الجزائري الطاهر وطار، http://www.doroob . Com/ ?p=1996.

بتطبيقاتها الخاطئة لم تحلّ مشاكل الإنسان رغم أنها تحتوي على طروحات تستجيب لجوهر المعضلات التي باتت تواجه الإنسان اليوم، وأرى أنه ينبغي مرور وقت طويل كي يعاد إعمال النظر فيها من جديد من طرف الإنسانية، ومادام أن الإسلام شوه وضرب بهذا الشكل المتعجرف غير المتحضّر، في رأيي أن القيم الحضارية والثقافية لدى كلّ الناس اهتزّت، فلم تعد هناك رؤية واضحة المعالم، وحدثت حالة من البلاهة والاستسلام واللامسؤولية إن صحّ التعبير، وتركت الساحة لنشاط الأجهزة [الأمنية] في كلّ سلطات العالم وخاصة العالم العربي، تتحكّم في قيم ومفاهيم استعمارية قديمة مهترئة تحاول فرضها دون أن تجتهد في تأمّل متغيّرات ومتطلبات الراهن مما يعكس ضمنيا جهلها وكسلها ورداءتها"[1].

ووطار ذو الإديولوجيا اليسارية لا يقتصد في التصريح بأن الظاهرة الإسلامية هي "ظاهرة إيجابية. ظاهرة تدلّ أن هناك عروقا حية لم تمت هذه العروق عروق حضارية. هناك ضغط من الآخر الأوروبي المسيحي، الغربي، البوذي. العالم الآن أصبح وحدة صغيرة، وهناك ردّة فعل لا بدّ أن تحدث لدى كلّ مجتمع سوي"[2].

فإذا كان وطار ذو التوجّه اليساري يبرّر وجود الظاهرة الإسلامية ويعتبرها ضرورية، ويصنّف نفسه ضمن الكتاب السياسيين فكيف ستتمظهر الإديولوجيات المتناقضة في رواياته؟ وما هي أبعاد الصراع بين الإديولوجيتين الأكثر حضورا في نصّه، الإديولوجية الشيوعية في وجهها الاشتراكي، والإديولوجية الإسلامية في دفاعها عن ماهيتها ووجودها.

---

[1] الطاهر وطار اللوبي المتفرنس: يتآمر مع جهات خارجية ...، مصدر سلف ذكره.

[2] القدس العربي، الطاهر وطار، الكاتب والتجربة، مصدر سلف ذكره، ح 3.

يلفت الانتباه في روايات الطاهر وطّار الأربع التي تناولناها بالدرس، أنّها تشتمل جميعها على أبطال ذوي إديولوجيا يسارية، ففي رواية اللاز نجد شخصية زيدان "الأحمر" كما ينعته الجميع نسبة إلى سمة من سمات الشيوعيين، يقول وطّار على لسان اللاز: " ...أبي المسكين ...الأحمر ... ترى لماذا هو أحمر؟ ألأنه يشتغل بالسياسة ويحقد على الأغنياء، إذن فأنا بدوري أحمر ... رغم عدم معرفتي للسياسة، فإنني أبغض الأغنياء، آه لو كنت أحسن القراءة مثل أبي، لكنت أحمر بحقّ"[1]. وتتأكّد ملامح زيدان الإديولوجية عندما يقول " آلامنا لن تمحى بسرعة ...حتى المحيطات لن تغسل قلوبنا، حتى السماوات لن تحوي نفسنا ... إذا ما استقامت انطلاقتنا هذه، فسنكون عمالقة كالسوفياتيين، كالصينيين، سنبقى وحدنا، لأنّنا الكثرة، وسنعمل حتى النهاية على محو آلامنا، ولن نمحوها أبدا... لن يكفينا برلمان ولن تكفينا جمهورية. ولن تكفينا الاشتراكية، حتى الشيوعية ستكون قليلة علينا"[2].

أمّا في رواية العشق والموت في الزمن الحراشي فتبرز شخصية "جميلة" بطلة الرواية، طالبة متطوعة في الثورة الزراعية، ثورية متبنّية مبادئ التوجّه الاشتراكي لا تتوقف عن ترديد شعارات:

"إيه شعبية ثورة زراعية
إيه شعبية تسقط الرجعية
إيه شعبية ثورة اشتراكية"[3]

وجميلة كما توصف في الرواية:

"إنّك يا جميلة منتصرة. قهرت الظروف والمحيط والذات. وانعتقت تماما، حتى بلغت حدّ النضال من أجل إعتاق غيرك، إعتاق الإنسان الجزائري من هيمنة

---

[1] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص97.

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ،ص105.

[3] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سلف ذكرها، ص32.

الإقطاع وتسلّط الاستغلاليين. إعتاق الإنسان الجزائري من الاستغلال والظلم والعسف.

مناضلة، إنّك مناضلة رفيقة يا جميلة. واحدة من نخبة قليلة، لها الشجاعة الكافية لترفع عقيرتها بلا تردّد ولا خوف ولا خجل:

"إيه شعبية ثورة زراعية
إيه شعبية تسقط الرجعية
إيه شعبية ثورة اشتراكية"
ما أروع ذلك آه ما أروعه".[1]

أمّا في رواية "عرس بغل" فنجد شخصية "الحاج كيان" التي تحمل أبعاد عديدة من بينها وعيها الاشتراكي:

" كنت أعلم يا حمدان أنني لا أجد معك أية صعوبة, إنّك مقتنع سلفا، لم يبق لكم ملجأ يا حمدان. تردّت أوضاعكم وتردّت حتى لم يعد هنالك، وضع أسوأ تخشونه. السواد الثري الخصب ضاق بكم. تشتغلون الليل والنهار في الأرض وتبيتون جياعا ؟ الماء لم يعد يغذي أطفالكم، تنجبونهم لتسمدوا بهم أرض أسيادكم، " إنكم مضرب الأمثال في الفقر" وأكثر الأحرار فقرا، كان الزنج أكثر حرية منكم"[2].

وفي رواية "رمانة" تبرز شخصية "الخال" الشيوعي الذي استطاع أن يغيّر مسار حياة "رمانة" وينمي وعيها السياسي والاجتماعي ويشرح لها معنى السياسة، يقول:

---

[1] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سلف ذكرها ، ص34.

[2] الطاهر وطّار، عرس بغل، رواية سلف ذكرها، ص 104.

" إنّني أشتغل بها، أهرب من الشرطة والعسكر، أنا وجماعات كثيرة لأننا نريد تغيير الأوضاع، نريد القضاء على مصدر كلّ الآلام التي تتحدثين عنها، نطرد المستغلين، ونستعيد خيراتنا، ويتعلّم كلّ الناس، ويتداوون ويشبعون (...) ولا يسيطر عليهم تاجر أو سمسار، أو أي سيد آخر..."[1]

وفي الواقع وردت جميع هذه الشخصيات في صدام مع شخصيات أخرى مناقضة لها، تمثّل إديولوجيات مختلفة، ولكن أكثر الصراعات التي تطفو على نص وطارّ هي تلك التي تتعلّق بالإديولوجيتين، الشيوعية في إطار المشروع الاشتراكي والحركة الإسلامية المحافظة التي تلتزم بأصولها وجذورها وتاريخها إلى حدّ التطرّف أحيانا. وهذه الشخصيات هي: شخصية " الحاج مسعود" في رواية اللاز، ممثّل الاتجاه اليميني في الثورة الجزائرية الذي يختلف مع زيدان سياسيا ودينيا وفكريا وإيديولوجيا، وذلك ما دفعه إلى نحره.

أمّا في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي" فنجد شخصية "مصطفى" الذي يمثّل التيار الديني المعادي للثورة الزراعية ويرى فيها تشويها لمبادئ الدين الإسلامي وخروجا عن الشريعة الإلهية، ويصرّح في الرواية بأنه طالب متطوع من أجل مواجهة الكفر والإلحاد يقول:

" أنا مصطفى، طالب تطوعت أنا وأصحابي الستة لنكافح الكفر والإلحاد"[2] في إطار ما تم تسميته "بحزب الله".وهو منظمة سرية داخل جبهة التحرير الوطني.

وفي رواية "عرس بغل" تحمل شخصية الحاج كيان في بعد من أبعادها الإديولوجية الدينية، فماضيه يشهد على أنه طالب زيتوني ذو ثقافة عربية

---

[1] الطاهر وطّار، رمانة، رواية سلف ذكرها، ص 75.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سالف ذكرها، ص108.

إسلامية بحتة قاده إقتناعه إلى " محاولة نشر الدعوة الإسلامية على غرار السلف الصالح"[1] انطلاقا من المبغى.

إن هذه النماذج لا تعني خلو نص وطار من إيديولوجيات أخرى، ولكن كما سلف أن ذكرنا هي تمثّل أكثر الفئات المتناقضة حضورا، ويهمنا أن نتبيّن من خلالها أهم صراع وهو الصراع بين الثقافتين الاشتراكية والإسلامية. في رواية اللاز توجد كذلك إيديولوجيات مختلفة، منها إديولوجيا شعبية تتبناها الفئات الشعبية ، ذات الثقافة المحدودة التي يمكن القول أنها تدافع عن حقها في البقاء فطريا، ولكنها إيديولوجيا قد تميل، بتغير الظروف إلى الإديولوجيا الاشتراكية أو الإديولوجيا الإسلامية، ويمكن القول أن شخصية "اللاز" تعبّر عن هذه الإديولوجيا الشعبية بشكل واضح، فهي شخصية تتعامل مع العالم بشكل يكاد يكون غريزيا وتتفاعل مع بقية الأفكار والتوجهات بقدر حاجتها إلى إثبات وجودها. فهي متعاطفة مع التيار الاشتراكي ممثلا في شخصية "زيدان" ذي الإيديولوجية الشيوعية باعتباره ينظّر لإمكانية تحقيق العدالة الاجتماعية، وهي إيديولوجيا في صراع دائم مع الإديولوجيا الإسلامية التي تمثّلها. كما أسلفنا الذكر، في رواية "اللاز" شخصية "الشيخ مسعود"، التي ترى في الشريعة الإسلامية المصدر الأول والأساسي لتحقيق "الإنسان الجزائري المثالي" وترى في الاشتراكية خطرا على الهوية الإسلامية، وفي حين يتشبّث "زيدان" بمبادئه إزاء محاولات "الشيخ ثنيه عن أفكاره، يقول زيدان:

" المسؤول في [الثورة] سألني في المرّة الأخيرة هل ما زالت شيوعيا أحمر.... أفهمته بأن الشيوعية ليست رداء ننزعه في الوقت الذي نشاء، وأنها

[1] الطاهر وطار، عرس بغل، رواية سالف ذكرها، ص45.

عقيدة تقوم أوّل ما تقوم على الإقتناع المدرك للحياة... رأيته يتقزّز مشمئزّا حين حاولت إفهامه في بعض المبادئ، فما كان مني إلا أن أبادله السكوت"[1].

ولسوف ينتهي الأمر بقرار إعدام "زيدان" ورفاقه، ومن أسباب هذا القرار اختلافه مع الشيخ مسعود على مستوى التوجهات الفكرية، يقول "الشيخ مسعود": " اتخذ القرار في شأنكم. بالنسبة لزيدان لا بدّ من تبرؤة من العقيدة وانسلاخه من الحزب [الشيوعي الجزائري] وإعلان انضمامه إلى الجبهة... وبالنسبة لكم أنتم، التبرؤ أيضا، والدخول في الإسلام."[2] ويذهب الشيخ مسعود إلى أبعد من ذلك حين يصرّح بأن الشيوعية مصدر من مصادر تخريب الثورة والحيد بها عن مسارها الصحيح حين يقول: " كلكم شيوعيون، كلكم على السواء، وقد جئتم إلى ثورتنا لتخربوها"[3]

ويشبه موقف الشيخ مسعود موقف مصطفى في رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي: يقول:

" إن ثورتنا المسلحة، لم تتمكّن من تجنيد الشعب إلا بالإسلام. المعارك كانت تبدأ بالتكبير، تبدأ الله أكبر، تماما مثلما كان الأمر في معركة بدر أو أحد، أو اليرموك. بذلك فقط انتصر الشعب الجزائري المسلم العربي: على الكفار"[4] ويقول في موضع آخر من الراوية: " نحن أشبال المجاهدين الذي حرّروا الوطن، عميروش، بن بولعيد، بلمهدي الحواس. بوقرّة، وعلينا أن نتحلى بجميع صفاتهم، وبجميع قيمهم"[5]. إنّنا بإزاء ما ينبئ بوجود صراع مباشر

---

[1] الطاهر وطار، اللاز، رواية سلف ذكرها، ص 105.

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص 220.

[3] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص 225.

[4] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سالف ذكرها، ص101.

[5] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص108.

ومتواصل زمن الثورة وبعدها بين تيار سلفي محافظ وتيار اشتراكي يدعّم الثورة الزراعية، يقول مصطفى:

" إنّنا قلّة ... كذا كان الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام في غزواته. نحن سبعة وهم قرابة السبعين. واحد مقابل عشرة. غزوة بدر فلتكن كذلك وسننتصر في المعركة بإذن الله وبعون منه، لأننا مؤمنون، عامرو القلوب بالإيمان وبالثقة. ولأنهم جبناء، عملاء للخارج معقدون بذنب تعاطي الحرام الممنوع. إن اللصوص دائما جبناء وهؤلاء لصوص يريدون أن يسرقوا شعبنا، ويعطوه لموسكو"[1].

ويعتبر مصطفى الثورة الزراعية بدعة يجب أن يحاربها الإسلام لتعارضها مع مبادئه، كما يرى في خروج المرأة ومشاركتها في الحياة العملية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وفي تأييدها الثورة الزراعية خروجا عن مقومات الشريعة الإسلامية يقول:

" هل "حرّم الله الكسب؟ هل أمر الله بأخذ أرزاق الناس بالباطل؟ ألم يقل سبحانه وتعالى: وفضلنا بعضكم على بعض في الرزق درجات، صدق الله عظيم.

أمن الحق أن تفقد المرأة، ما ميزها الله به، وتدوس على الشرف، والرجولة والكرامة والأمومة والأخوة، وتخرج إلى الشارع دابة ضائعة عرضة للنهش والافتراس، الرجال قوّامون على النساء، الرجال قوّامون على النساء. صدق الله العظيم"[2]. ويتعزّز موقف مصطفى من المرأة ومن الاشتراكية من خلال رأيه في جميلة التي يعتقد في تشويه وجهها ضربا للاشتراكية حين يقول:

---

[1] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص125.

[2] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سالف ذكرها ، ص 110.

" جميلة، جميلة، اليوم تنتهي خرافة جميلة،

الكاهنة كانت على ديانة اليهود. بل كانت مسيحية. عميلة للرومان. الكاهنة كانت ساحرة، يسكن روحها الشياطين. ...

فلأقطعنّ سحر الساحرة. فليعمّ نور الله. قالوا مريضة، لا تستطيع الخروج. لكن الملاعين أبقوها لمهامّ أخطر، ما يمنعهم؟ لا قيم ولا أخلاق، ولا دين. أليسوا هم المزدكيين القرمطيين العاملين بالرأي القائل الغاية تبرّر الوسيلة.

فلأقطعنّ سحر الساحر. فليعمم نور الله. أبقوها لتتآمر مع العفريت الأحمر، مدير التكميلية، ضدّ خططي. سي رضوان لم يرسلني إلى هنا عبثا. يعرف، يعرف مدى الخطر الأحمر المحدق بهذه المنطقة. ويعرف قدراتي".[1]

وفي المقابل ترى جميلة أن لا تعارض بين الاشتراكية والإسلام. وجميلة طالبة متطوّعة في الثورة الزراعية مؤمنة بالمبادئ الاشتراكية لا تتوقف عن العمل الجاد لتوعية الفلاحين وحثهم على الإقبال على المشروع الاشتراكي وتدعيمه، إيمانا منها ورفاقها بجدواه في تخليص الفئات الاجتماعية الكادحة من الاستغلال والظلم وتنمية وعيها، خاصة فيما يتعلّق بانتشار فكرة معاداة الاشتراكية للدين:

" يحيا الإسلام. يحيا الإسلام.

هتف صوت نسائي. كانت جميلة هي صاحبة الصوت. تأملها الجميع. أعادت الهتاف مرّة ومرّات (...) هتف الجميع.

يحيا الإسلام

[1] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص 208.

وقف مصطفى حائرا. كانت الأصوات قويّة. كانت ثابتة رصينة، واضحة تتميّز بالصدق. أكثر من ذلك. هل يعقل ذلك.

هل يعقل هذا هؤلاء الحمر الملاحيد يهتفون بحياة الإسلام وماذا بقي لنا نحن بعد ذلك؟ "[1].

إن التزام جميلة بالثورة منعها من الخضوع " لسياسة الترهيب " والتراجع إلى الخلف، بل دفعها إلى تأكيد استعدادها لمواجهة مصير مأساوي، وذلك ما يكشفه ترديدها لجزء من شعر سميح القاسم، تقول:

" طمئنوا الغدر المبيت ... أن صوتي ليس يكبت، وعلى موطئي نعلي .... كلّ صخر يتفتّت ... طمئنوا النار الغبية ... أن ناري أبدية ... وعلى حضن رمادي ... تولد الشمس الوفية... طمئنوا هوج الرياح ... أنها بعض سلاحي، رغمها ... تأتي لحقل ضربته ... باللقاح ... طمئنوا كل مطاول ... أن قتلي محض باطل ... فأنا باق ... إلى ما شئت ... أحيا وأقاتل ..."[2]

وقد واجهت الاشتراكية نوعا آخر من الخطر مثلته الطبقة البورجوازية التي كانت ترى فيها ضربا لمصالحها، ويبرز موقف هذه الفئة من خلال حوار باطني يدور في ذهن الشريف أحد الطلبة المتطوعين، التقى بمحض الصدفة بشابين بورجوازيين يدليان برأيهما في الشيوعية:

" الشيوعية هي عقدتهما، خوفهما الكبير ينحصر فيها، المؤكّد أنهما ينطقان باسم رأي عام برمته، ويعكسان الذعر الذي يسيطر عليه. مع أنه لا أحد يطرحها في المرحلة الحالية، ولا حتى يطرح الاشتراكية بأبعادها الكاملة، فإن الشق الآخر يعمل منذ دهر طويل، على التلويح والتهديد بها مثيرا الرأي العام

---

[1] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سالف ذكرها ، ص 39.

[2] الطاهر وطار، المصدر السابق نفسه ، ص 39.

ضدها وضدّ القطاع العام، مفسّرا كل نقيضة بأنها نتيجة حتمية للاشتراكية. الإقطاع، الرأسمال الخاص، مع أن هذا الأخير مستفيد كثيرا من معاداة الاستعمار ومن التحرّر الاقتصادي، يحاولان منذ الشروع في تطبيق الثورة الزراعية، أن يستوليا على البورجوازية الصغيرة وحتى الفئات الكادحة"[1].

أما شخصية "الحاج كيان" في "عرس بغل" فيمكن القول إنها تختزل جميع أوجه الإنسان الجزائري الثقافية من الثورة وزمن الاستقلال وما بعده. فهي شخصية ذات أبعاد وتوجهات مختلفة، " فالحاج كيان". تعلّم في الزيتونة فتأثر بالثقافة العربية الإسلامية التي وجهته وجهة إسلامية قبل أن يسجن في "كيان" وقبل أن يخوض السياسة، يقول وطار:

" كان تصميمه قويا،

أكون الإمام الثاني هنا، أنشر الدعوة على غرار السلف الصالح، الأشعري أو الغزالي، أو عبد الرحمان بن رستم، أو غيرهم أبدأ التجربة من دار البغاء. يجب أن أقهر ذاتي، قبل أن أقهر غيري. من لم ينتصر على نفسه لن ينتصر على غيره..."[2] لكن هذه المواقف ستتغيّر بعد خروجه من السجن، وبعد أن يعثر على العنابية (البغي التي ترمز إلى الجزائر) التي قاده حبّه لها إلى الوقوع في شراك السجن.

" ظلّ يحلم خمسا وعشرين سنة، بلياليها وبأيامها، وعندما عاد، لم يجد إلا اسمها أو فضلها، وهو لا يزال ينتظر عودة البنت التي حملته من رجليه، مستعينة بزميلتها إلى غرفتها، وشقت قبله بعينيها الجميلتين، ووضعت فيه حبها، استطاعت أن تزعزع جامع الزيتونة بسواريه ومشائخه وبفقهه ونحوه

---

[1] الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، رواية سالف ذكرها ، ص114

[2] الطاهر وطار، عرس بغل، مصدر سلف ذكره، ص 45.

وصرفه وتجويده، وتحوله على هزي يحجّ إلى كيان"[1] وهذا التغيير الذي طرأ على شخصية "الحاج كيان" يظهر فيما يلي:

" ترى من أكون اليوم؟ المتنبّي؟ حمدان قرمط؟ زكرويه الدنداني؟ المعتصم المنتصر؟ المعتز بالله ؟ موسى بن بغاء ؟ وما يهم ... ليس في الجبة سواي ... سوى رحى تدور في حجم الأرض تطحن والألم يقطر"[2].

يمكن القول إن النص الروائي للطاهر وطار، قد أبرز دور النخبة في المجال الثقافي الجزائري، وقد تمّ ربطه أساسا بمسألة تطبيق المشروع الاشتراكي الذي لم يكن محل إجماع جميع الفئات، وقد لعبت فيه نخبة قليلة أصرّت على دعم الثورة الزراعية الدور الأساسي وواجهت القوى المعارضة لها. أما دور الشعب فكان محتشما وكثيرا ما اتسم بالسلبية تجاه الثورة الزراعية، وقد اضطلعت النخبة القليلة المؤمنة بالاشتراكية وبجدواها بمهمة توعية الفئات الاجتماعية ذات التفكير البسيط والتي كانت أيضا لا تسمح بالمسّ بما يعتبر عندها من مقومات الدين مثل الملكية الخاصة، وفعلا فقد كانت هذه النقطة أحد مرتكزات القوى المعارضة للثورة التي كانت تنظر لفكرة التناقض بين الاشتراكية والدين. ومع أن الدولة تبنّت بعض الأفكار الاشتراكية في إطار المشروع الزراعي، متشبّثة في الآن ذاته بمقومات الهوية العربية الاسلامية باعتبارها خصوصية من خصوصيات المجتمع الجزائري فأطلقت على الثورة عبارة " الاشتراكية الخاصة " التي تختلف مع الاشتراكية الشيوعية في مسألتي الدين والقومية، فإنها لم تنجح في التغلب على فكرة التناقض بين الاشتراكية والدين، ولا في الإقناع بإمكانية الوصل بين سياسة الاستقلال وخصوصية الشعب الجزائري، يقول هواري بومدين:

---

[1] الطاهر وطار، عرس بغل، مصدر سلف ذكره، ص 67.

[2] خطب الرئيس بومدين، 9 جوان 1965، 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره، ص7.

" إن الخامس من شهر يوليو 1962، كان اليوم الذي وضع فيه الشعب حدا لحقبة من التاريخ أهينت فيها كرامته وديست مقدساته وكادت تمّحي فيها معالم شخصيته وقوميته"[1] وعلى العكس من ذلك تمكنت جل القوى من إقناع عامة الشعب الجزائري بأن التجربة الاشتراكية تتنافى وقيم المجتمع الجزائري العربي المسلم، هذا التناقض الذي عبّر عنه فرحات عباس، ذي العلاقة الوثيقة برئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين محمد البشير الإبراهيمي عندما كتب: " إذا أخذت الجزائر بالاشتراكية الستالينية فقد كفت عن الانتماء للعالم الإسلامي"[2].

لقد كان فرحات عباس يعتبر أن الإسلام هو محرك كل تغيير في المجتمع الجزائري ومن دونه لا يمكن للمجتمع أن يحافظ على ذاته، فقد كتب في موضع آخر يقول:

" إن النتائج بادية للعيان. فالجزائر المسلمة تتفتت منذ عشرين سنة يوما فيوما وحجرا فحجرا باسم نظام اشتراكي زائف. وهي مهدّدة بأن تتهاوى في يوم من الأيام بدليل أن الإسلام كفّ عن أن يكون محرك التغيير فلقد حوّل منذ نهاية الحرب إلى نوع من الفلكلور الذي لا تأثير له حقيقيا في تربية شبابنا فقد أصبح في حالة موت مؤجل"[3].

التحالف بين قوى المحافظة وجمعية العلماء المسلمين واضح إذن، بل يمكن اعتبار كتابات فرحات عباس ناطقة باسم هذه الجمعية الدينية ومنها هذه الكتابات التي تؤكد على أهمية اعتماد المبادئ الإسلامية وضرورة الرجوع إليها في جميع المجالات السياسية والاجتماعية لأنها مصدر حفظ كرامة

---

[1] خطب الرئيس بومدين،9 جوان 1965، 19 جوان 1965، مصدر سلف ذكره ، ص 7.

[2] خطب الرئيس بومدين، مصدر سلف ذكره ، ص 7.

[3] Ferhat Abbas, l'indépendance confisquée, op. cit p122

الإنسان وانسجام أطراف المجتمع، وتحرص على المقارنة بين الإسلام والماركسية، كتب فرحات عباس:

" يمكننا أن نبسط التصور الاجتماعي والسياسي في الإسلام وفي الماركسية على النحو التالي:

فالتصور الإسلامي يقوم على الإيمان بالله خالق الكون وعلى احترام الملكية الخاصة والمبادرة الخاصة و احترام حريات الإنسان الأساسية واحترام كرامته مثلما يقوم على تحقيق تآلف المجتمع باللجوء إلى الزكاة والتوزيع العادل للدخل الوطني وحرية الإنسان.

أما الماركسية فتقوم على نفي وجود الإله ومحاربة الديانات المنزلة وإلغاء الملكية الخاصة ومصادرة وسائل الإنتاج وإلغاء الحريات العامة وحرب الطبقات ودكتاتورية البروليتاريا."[1]

ولا يختلف محمد الميلي عن فرحات عباس في ضرورة الرجوع إلى جذور المجتمع الجزائري التاريخية التي يلعب فيها الإسلام دورا مهما في تأكيد تميز الشخصية الجزائرية المسلمة ، يقول " إن استقراء واقع الجزائر عشية قيام أول نوفمبر 1954، يكشف حقيقة أساسية تساعد على فهم الثورة الجزائرية، و هي أن الكفاح في بلد مثل الجزائر مطبوع بالطابع العربي الإسلامي لغة، ودينا، وثقافة، لا يمكن إلا أن يقوم على أساس تأكيد العناصر الحضارية التي تتبلور حولها كل أشكال المقاومة الجزائرية منذ 1830 إلى 1954"[2]

---

[1] Ferhat Abbas, l'indépendance confisquée, op. cit, p 124.

[2] موسى بن جدو ، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، جامعة الجزائر، معهد اللغة والأدب العربي: إشراف الأستاذ محمد ناصر، السنة الجامعية 1989-1990 ص 11، نقلا عن مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر، عدد أكتوبر- نوفمبر 1974، من مقال بعنوان "المثقفون الفرنسيون والثورة الجزائرية"، ص 6.

ويعبّر موسى بن جدو عن عدم انسجام المبادئ الاشتراكية مع الهوية الإسلامية ومع طبيعة المجتمع الجزائري المسلم على النحو التالي:

" إن أخطر ما يواجهه المجتمع الجزائري بعد الاستقلال هو خطر التغريب والغزو الثقافي الذي راهن عليه الاستعمار ليبقي الجزائر في فلكه حتى بعد خروجه منها، وقد وجد هذا الغزو الجوّ المناسب في ظروف جزائر ما بعد الاستقلال الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وفي الظروف الحضارية التي يعيشها العالم الإسلامي ككل، فوقع استيراد الحلول والمناهج الغربية، التي لا تنسجم مع ثقافتنا وذاتيتنا الإسلامية، وضاعت جهود معتبرة وطاقات كبيرة، وما تزال تضيع هذه الحلول التي لم تجد ولن تجدي في المستقبل بالتأكيد إن في الجزائر أو في غيرها من المجتمعات الإسلامية "[1]،ويذهب موسى بن جدو إلى حدّ اعتبار الاشتراكية استعمارا ثقافيا جديدا. فقد انتقلت النظرة إلى الدين من العالم الغربي إلى العالم الإسلامي في إطار عمل الدول الغربية على المزيد من نشر ثقافتها في النسيج الثقافي للعالم العربي الإسلامي وغزو نظمه الفكرية فـــ" عند ظهور المذهب الاشتراكي تعززت القطيعة بين الدين والحياة عامة في الغرب وتأكدت أكثر في المعسكر الاشتراكي حسب مقولة ماركس المعروفة الدين أفيون الشعوب."[2]

وعلى من يرغب في الاطلاع على وجهة النظر النقيضة فبإمكانه أن يعود إلى مؤلف محمد حربي في الموضوع.[3]

وملخص القول هو أنه رغم عمل الدولة على المراوحة بين الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية للشخصية الجزائرية وتطعيمها ببعض المبادئ

---

[1] موسى بن جدو ، ، المرجع السابق نفسه ، ص 11.

[2] موسى بن جدو ، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار ، مرجع سلف ذكره ، ص 4.

[3]) Mohamed Harbi, Une vie début : mémoires politique, 1945-1962, Alger, Casbah éd. 2001

الاشتراكية التي لا تتنافى مع مقوماتها في إطار ما يسمّى بـــ" الاشتراكية الخاصة " فان المشروع الاشتراكي لم ينل حظه من النجاح في الجزائر ويردّ المنصف وناس فشل المشروع الاشتراكي إلى التسيير الذاتي الذي انتهجته السلطة في الجزائر التي " تورطت في بعض الأخطاء التي انعكست على مسيرة الدولة الوطنية"[1]

إن اعتماد الحكومة الإسلام مرجعا لإضفاء سمة الشرعية على الاشتراكية، لم يمكّن الأغلبية الساحقة من الجزائريين من استيعاب الفكرة الاشتراكية نظرا إلى انتشار فكرة تنافيها مع الفكرة الإسلامية من ناحية ومحدودية الوعي لدى فئات المجتمع الريفية البسيطة التي لم تتفاعل مع الثورة الزراعية إلا بصفة محدودة من ناحية ثانية.

" فلم يحدث في الجزائر توطين ناجح للاشتراكية في النسيج الثقافي والاجتماعي والذهني، كما لم تخلق قوى اجتماعية متفاعلة مع مشروع البناء الاشتراكي ذلك أن استنبات الاشتراكية في بيئة عربية إسلامية يتطلب دربة ذهنية وسياسية طويلة وقدرة على التعبئة وثقافة سياسية مؤثرة."[2]

[1] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره، ص 44.

[2] المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مرجع سلف ذكره ،ص 53.

شعار الإسلام هو الحل الذي رفعه الإسلاميون في بداية السبعينيات

الخاتمة

لا نودّ في هذه الخاتمة القصيرة أن نعيد صياغة بعض ما ورد في هذا البحث تلخيصا للموضوع، ولكننا نود أن نشير إلى أنّ المدخل فيه يمثل الجانب النظري ، والفصول الجانب التطبيقي.

والجانب النظري يهدف إلى تناول إشكالية : ما العمل في جزائر الاستقلال ؟ أي ماذا يجب أن تكون عليه جزائر المستقبل ؟

إنّ ابن هدوقة ووطار يمثلان ،أدبيا سياسيا،المدرستين التاريخية العقلانية والتاريخية المادية في الجزائر، وهما يقولان معا بفكرة التطور، أي يقولان بأنّ المستقبل يجب أن يكون أفضل من الماضي ومن الحاضر، هذا الحاضر الذي وصفاه باعتماد الرمز فكانت الجازية هي الجزائر عند ابن هدوقة ، وكان الشعب ممثلا في الأغلبية لا في القلة هو اللاز عند وطار.

فماذا كان موقف الجزائر/الجازية من"الدراويش" أي الأفراد الذين حاولوا فرض إيديولوجياتهم الغريبة عليها ، أي ماذا كان مصيرهم عند ابن هدوقة؟

وماذا كان موقف اللاز/الشعب الجزائري من هؤلاء "الدراويش" أنفسهم؟

لقد ذهب عدد من هؤلاء، وسيذهب من بقي منهم "مع الريح" لأنّ فلسفة الجازية/الجزائر وفلسفة اللاز/الشعب ، الجزائر هي في حقيقة الأمر فلسفة واحدة تضرب جذورها في عمق الأرض والتاريخ وهي فلسفة إذا كان فد عبّر عنها القرآن في الآية "أما الزبد فيذهب جفاء" فقد عبّرت عنها الحكمة الشعبية في القولة "ما يبقى في الواد كان أحجاره".

الملحق

غلاف الكتاب

عرض وتقديم: ابراهيم درويش

ينطوي كتاب «في أصل الازمة الجزائرية» على اهمية خاصة في ضوء الاحداث المتصاعدة في الجزائر اليوم. فالكاتب عبدالحميد براهيمي ينتمي الى جيل جبهة التحرير الوطنية وجيشها. وهو هنا معني بتحليل ابعاد الازمة الجزائرية في اصولها السياسية داخل المشروع الاستعماري الفرنسي للحفاظ على تواصل مع المستعمرة القديمة. ونلمح في تحليل الكاتب هنا بعد الازمة الذي تمثل في النخبة، ومحاولات تفريغ الاستقلال الجزائري، وصراعات النخبة الجزائرية فيما بينها. وينطلق الكاتب في تحليله من فرضية ان النخبة التي فرت من الجيش الفرنسي وانضمت الى جبهة التحرير الوطني عملت قبل الاستقلال وبدعم من فرنسا على تمرير سياسات فرنسا، والتحكم بمصير الجزائر، وهذه الفئة حسب براهيمي هي المسؤولة عن حمام الدم الجزائري، حيث استطاعت وبعد فترة كمون استمرت ثلاثين عاما من السيطرة على مقاليد الحكم في انقلاب عام1992. ويرى الكاتب ان القيادة الثلاثية لجبهة التحرير الوطني كانت البوابة التي عبر منها الفارون بحثا عن شرعية، وتقبل، واستطاعوا من خلال بوابة بومدين السيطرة على مقاليد الحكم، حيث اكملوا حلقة الاختراق للامة الوطنية في عهد الشاذلي بن جديد.

«الجزائر الجزائرية» مفهوم استعماري حاول من خلاله ديغول تأبيد الحضور الفرنسي في الجزائر

مقدمة عن الدواعي

منذ اندلاع دوامة العنف الدموي في الجزائر في اواخر الثمانينات من القرن الماضي والاطراف الثقافية والفكرية والنخبوية الجزائرية والفرنسية والعربية لم تتوقف في محاولات فهم المأزق الجزائري، ودراسة اسبابه وتحليل دواعيه، والمهتم بالشأن الجزائري على وجه الخصوص يفاجأ كثيرا بحجم التحليلات التي تحاول اعادة شروط الازمة الجزائرية، الى اصولها في الايام الاولى من الاستقلال الجزائري، او في نهايات الاستعمار الفرنسي للبلد والذي تربع على الحلم الجزائري قرابة القرن ونصف القرن. وفي الكثير من التحليلات تعثر على مفوم غياب الامل والخيبة التي توجت دخول الجزائر في نفق العنف المستشري فيها، والذي زادت احداث الاسابيع الاخيرة في المناطق البربرية، الازمة توقدا والوضع حراجة. ذلك ان مصير الجزائر الذي ارتهن طوال العقد الماضي في يد العسكر ورجال الثورة، اصبح اليوم رهينة للمد الشعبي الذي يبدو انه مل من الوضع المستشري والتردي لمصير لا نهايات واضحة فيه. وفي سياق معنى الجزائر الحديثة، فان محاولة الكاتب والسياسي الجزائري عبد الحميد براهيمي الصادرة حديثا عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، تقدم فهما خاصا عن معنى الازمة الجزائرية، فالكتاب يحاول كما يقول كاتبه تتبع اصل الازمة في الجزائر قبل الاستقلال «في اصل الازمة الجزائرية: 1958-1999»، ويحاول استبصار الوضع الجزائري عبر المنظور الذي وضعته فرنسا لجزائر منفصلة عنها، او ضمن مقولة الجنرال الفرنسي تشارل ديغول الذي تحدث عن «الجزائر الجزائرية» والتي لم تعد في المدى الافتراضي تابعة لحلم الجزائر الفرنسية، وهو الحلم الذي حاولت الادارة الاستعمارية والسلطة المركزية في باريس تأكيده لقرن ويزيد. وفي ظلال هذه المقولة، يقول براهيمي ان ديغول وان ايقن ان الشمس ستغيب عن الحلم الفرنسي في الجزائر الا انه قرر اقامة اليات وتحضيرات لإطالة أمد التأثير الفرنسي حتى بعد نهاية الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وكانت التحضيرات والخطط التي ابتدعها الاستعمار الفرنسي جزءا من تحضيرات «ربع الساعة الاخيرة» قبل النهاية.

وكان المدخل الرئيسي لاطالة أمد التأثير الفرنسي وحماية المصالح الفرنسية في الجزائر هو «الفارون» من الجيش الفرنسي، فقد اعتمدت سياسة الفرنسيين الذين ايقنوا ان الاستقلال الجزائري قادم لامحالة، على تشجيع الفارين من الجيش الفرنسي للدخول واختراق قطاعات وهيكليات جيش التحرير الوطني الجزائري.

وكان الطريق المحبذ لهذا الاختراق في تونس حيث كانت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وقيادات حركة التحرير الوطني. ومن هنا يعتبر براهيمي ان الفارين من الجيش الفرنسي هم الذين قاموا ونتيجة ظروف سياسية واجتماعية باختراق الجهاز الجزائري، وقاموا بفرض رؤيتهم على الواقع الجزائري. حيث نجح الفارون من الجيش الفرنسي وبعد ثلاثين عاما من الاستقلال بالقيام بانقلاب على ما تبقى من قيادات واثر حركة التحرير الوطني، وهذا الانقلاب الذي تم في 1992 بقيادة الجنرال خالد نزار كان تتويجا لتمكن الفارين هؤلاء من فرض حضورهم على الزمن الجزائري، وكان ثمن هذا الانقلاب مكلفا اذ دخلت الجزائر في دوامة من العنف والعنف المضاد منذ ذلك الوقت.

وفي اطروحة براهيمي نعرف ان جذور هذه الدوامة تعود الى الحقبة الاستعمارية، والى فترة الكفاح الوطني، والمراحل الاولى من الاستقلال. فحتى انقلاب الفارين من الجيش حكمت الجزائر ثلاث قيادات، اثنتان منها قامتا بفتح المجال للفارين من الجيش الفرنسي، بفرض حضورهم، ونعني بهما الرئيس الراحل هواري بومدين والرئيس الشاذلي بن جديد الذي يرى الكاتب انه قام وبسذاجة برهن مستقبل ومصير الجزائر بيد مجموعة الفارين من الجيش وبالتالي فتح المجال لهم بتدبير انقلابهم، ولم يقم الشاذلي بن جديد، بايجاد جبهة موازية لهذه المجموعة للحد من خطرها.

يعترف براهيمي ان هذه الاطروحة مهمة في سياق الاحداث الجزائرية اليوم، لان الوضع في البلاد خطير جدا، ولم تعرف الجزائر اهتراء سياسيا منذ استقلالها. وفي هذا السياق يقول الكاتب ان ازمة الجزائر واهتراء الحياة فيها على كل الصعد تنبع من «طبيعة النظام»، فمصادرة مجموعة الفارين للحكم، وارتفاعهم فوق القانون ادى لعواقب وخيمة. فنظام الاقلية الذي انتزع الحكم في عملية عسكرية،

استخدم، مقوله التهديد الاسلامي لايهام الراي العام الوطني والدولي لوضع الجبهة الاسلامية في مواجهة انسنطة. ويرفض الكاتب هنا هذا التبسيط على اساس الثنائية بين الحزب والجبهة، ذلك ان المشهد السياسي الجزائري اكثر تعقيدا من هذا التصوير الساذج.

يقدم براهيمي محاولته لقراءة الازمة في الجزائر، كتحليل ورصد قريب لاحداثها من الداخل، ذلك ان المازق الجزائري له عدة وجوه، فالجزائر فرضت هيبتها على السياق العربي والاسلامي والدولي بفعل معركتها الشهيرة من اجل التحرر، ومن هنا فان دخولها في نفق العنف المستمر لاكثر من عشرة اعوام، يثير حيرة الكثيرين ممن اعجبهم النموذج الجزائري للتحرر من نير الاستعمار، ويثير في داخلهم توازع الحلم من ان البلد الذي خرج من المعركة بعد ان قدم مليون شهيد ومئات الالوف من الجرحى، والسجناء والمهجرين في الدول العربية وفرنسا، عاد ودخل في حلقة جهنمية جديدة من العنف، وهذه المرة ليس ضد المستعمرين، ولكن النظام يقف ضد الشعب، والعنف يقاتل ضد القمع. وضمن هذا الفهم الذي يقدمه براهيمي عن دور مجموعة الفارين في تغيير معالم الزمن الجزائري الحديث فانه لا يتجاهل التداخل المعقد بين العوامل الداخلية والخارجية والبعيدة والقريبة والتي ادت بالجزائر لهذا الوضع.

ضد التعميم

وبنفس القدر فانه لا يعتبر كل الفارين «شرا»، بل يركز على مجموعة منهم عملت في الجيش الفرنسي وربما ارسلوا على دفعات متتالية من قبل السلطة الاستعمارية الفرنسية لاداء بعض المهمات لدى جبهة التحرير الوطني في تونس. ويقول براهيمي ان التجربة الجزائرية في وجهها التحرري اظهرت انه كانت هناك مجموعة مخلصة من الفارين الذين مارسوا مهمات في داخل صفوف جيش التحرير الوطني مثل محمود شريف وعبدالله بلهوشات وعبد الرحمان بن سالم. ويحاول براهيمي التاكيد هنا على ان ما يسميهم «الفارون» الوطنيون لا يدخلون في سياق الاطروحة العامة التي يستند عليها الكاتب، فالكتاب بالضرورة يوجه همه لتحليل دور اقلية دخلت جبهة التحرير الوطني في تونس ولم تلتحق بصفوف جيش التحرير الوطني في الجبال، وربما كانت تعمل تحت الاوامر من الاسياد الفرنسيين. وهذه هي الفئة التي يرى براهيمي انها دخلت من الباب الواسع لكسب ثقة قادة الثورة والحصول بذلك على «الشرعية» اللازمة للقيام بمهامها.

يقدم براهيمي كتابه هذا على انه شهادة عن المراحل المفصلية التي تركت بصماتها على تطور الجزائر، بين عام 1958، 1999. ويصور الكاتب الطريقة الدقيقة التي دخلت فيها المجموعة حيث استفادت من الصراعات التي هزت جبهة التحرير الوطني، وجيشها «جيش التحرير الوطني» خلال حرب التحرير. كما استفادت من الازمات التي عانت منها الجزائر بعد الاستقلال، والتي شهدت تنحية واستبعادا لمعظم القيادات الوطنية، خاصة بعد انحراف الثورة عن مسارها، والذي يعتقد الكاتب انه حدث عام 1962.

كان للازمات في داخل المعسكر الوطني قبل الاستقلال وفي داخل الدولة الجزائرية دور هام في دخول الفارين لكافة مؤسسات الدولة، حيث حصلوا من القيادة التاريخية على صك يعترف بشرعيتهم. كما استعارت المجموعة ذاتها خطاب الحركة الوطنية الجزائرية وادعته لنفسها، بهدف الكاتب كما يحدد منذ البداية الى العودة بالبلاد الى ما يعتقد انه خلاص لها من دوامتها المستمرة، اي «المسار الديمقراطي والسيادة الشعبية» لانهما كما يقول براهيمي «الضامنان الوحيدان لاعادة الثقة بين الحاكم والمحكوم، واستعادة السلم والاستقرار».

مقولة «الجزائر الجزائرية» وعلاقتها بالاستعمار

الافتراض الاساسي الذي يخرج منه قارئ كتاب براهيمي أن الجزائر الخارجة من حرب التحرير الطويلة استبدلت استعمارا قديما باستعمار جديد. ويعيد هذا الافتراض الى استراتيجية الجنرال ديغول الذي رسم معالم سياسة شاملة تهدف لاستبدال النظام الاستعماري القديم بنظام جديد، وذلك لمنع الجزائر من العودة لسياقها العربي الاسلامي، والتاكد من ربطها بفرنسا اقتصاديا وسياسيا.

يتصدى الكاتب براهيمي لتحليل الايديولوجيا الفرنسية التي حددها ديغول بطرحه مفهوم «الجزائر جزائرية»، والتي يعتبرها غطاء سياسيا لتتويج حقيقة استعمارية جديدة على ارض الجزائر المستقلة. فديغول الذي سلم مضطرا بنهاية الحلم الفرنسي وتسيده على الجزائر كان يريد مواصلة الضغط العسكري وتدمير البنية القوية لجيش التحرير الوطني الجزائري. واعتبر ديغول استقلال الجزائر كإجراء اخير، ومن هنا طمح لتفريغ هذا الاستقلال من محتواه. وسيحلل الكاتب لاحقا معاني الاستقلال الجزائري الذي اعتقد انه جاء «ملغما» و «خاويا» من معناه خاصة بعد الانحراف الخطير في مسار الثورة الجزائرية. ولتحقيق هذا الغرض قام ديغول بعدد من الاجراءات العسكرية والسياسية تعمل على تأبيد التواجد الاستعماري الفرنسي في

الجزائر، واعطاء هذا التواجد وجها جديدا. واعتبر ديغول تعزيز القدرة العسكرية الفرنسية كخيار حتمي. ومن هنا وفي الوقت الذي كان الاستعمار الفرنسي على الجزائر يلفظ انفاسه، قامت الادارة الاستعمارية بعدد من الاجراءات والتي هدفت لخلق «القوة الثالثة» التي ستكون وسيطا بين النخبة الجزائرية الثورية والادارة الاستعمارية. وقد ترجمت هذه السياسة من خلال زيادة عدد المجندين « الفرنسيين المسلمين» في الجيش الفرنسي، وقد قادت الخطوات الاستراتيجية هذه لانشاء «القوة المحلية» او جيش الجزائر والذي تكون من عدد من القوى مثل «الحركيين» و «المخازنية» و «المفارز المتنقلة لحماية الريف» و «مفارز الدفاع الذاتي» . ونتيجة لذلك قامت فرنسا بانشاء «قوة محلية» مكونة من 58 الف رجل من بين المتعاونين معها. هدف انشاء هذا الجيش لتحطيم جيش وجبهة التحرير الوطني. كما ارادت فرنسا بانشاء جيش المتعاونين معها هذا، لكي تظهر للشعب الجزائري ان هناك بديلا اخر غير البديل الوطني التحرري. ونظرا لطبيعة المشاركين في هذا الجيش والذين يمثلون النخبة التي تعاونت وتربت في الجزائر المستعمرة فانهم كانوا يشكلون دعامة لبناء جزائر مندمجة مع فرنسا. وفي هذا السياق يقول براهيمي ان «حزب فرنسا» او تمظهراته في القوة الثالثة، كان موجودا منذ الاستعمار الفرنسي للجزائر في القرن التاسع عشر.

كانت سياسة فرنسا التي رفض جنرالها التسليم بالهزيمة العسكرية، تهدف لمواصلة الهجمات العسكرية، مع اعتراف ديغول ان هزيمة جيش التحرير الوطني صارت من المحال، في ظل تصاعد معارضة الحرب في الجزائر في اوساط الفرنسيين انفسهم.

ومن هنا استغلت فرنسا هذا الجيش لتحقيق عرضها في اختراق وتدمير بنية جبهة التحرير الوطني الجزائرية. ويحدد الكاتب هنا المدى الزمني الذي تمت فيه عمليات الاختراق ما بين 1956 و 1962. وكما حذر الكاتب في البداية من تعميم حالة الفارين باعتبارهم ادوات في يد الاستعمار الفرنسي يحذر من التعميم عند قراءة حالة الفارين الفردية والجماعية، الذين انضموا الجبهة التحرير الوطني بدافع وطني او كرد فعل على القمع الذي مورس على الشعب الجزائري. ويرى براهيمي ان كل حالة فرار من الجيش الفرنسي يمكن تحليلها في سياقها الخاص والاستثنائي المختلف عن الحالات الاخرى. اضافة لتدمير جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، هدف الاستعمار الفرنسي من انشاء هذه القوة الثالثة لتوفير البديل الجاهز للاشراف على جيش الجزائر المستقلة وقيادته بعد الاستقلال. فالجنود الجزائريون المدربون ضمن اطر الجيش النظامي والانضباط الفرنسي شكلوا النخبة الجاهزة للاشراف على الجيش الجزائري.

ويلمح الكاتب هنا الى ان الفارين الاوائل من الجيش الفرنسي قدموا انفسهم ضمن هذا الفهم حينما عرض سليمان هوفمان على مجموعة من العسكريين الذين تلقوا تدريباتهم في المدارس العسكرية العربية التعاون، وكان هوفمان واضحا في حديثه عن قدراته وجماعته على تنظيم اطر الجيش والاشراف على تدريبه. ويرسم الكاتب براهيمي مقارنة بين ما قام به البلجيكيون في الكونغو التي اصبحت بعد الاستقلال تعرف بـ «زائير»، ذلك ان بلجيكا بعد الاستقلال نجحت بوضع موبوتو في منصب جيد، وهو المنصب الذي سمح له فيما بعد بازاحة الوزير الاول باتريس لومومبا ثم الاطاحة بكاسافوبو الذي كان رئيسا للجمهورية. الفرق الوحيد بين السياق الكونغولي والجزائري ان موبوتو احتاج لخمس سنوات لتمكين الادارة الاستعمارية وتحقيق مطامعها، فيما احتاجت النخب الفارة من الجيش الفرنسي ثلاثة عقود لتحقيق انقلابها.

كيف تسرب «الفارون» لجيش التحرير؟

في ضوء هذا الافتراض، يقدم الكاتب براهيمي الطريقة التي تسرب فيها الفارون الى جبهة التحرير الوطني، وهو هنا يقول ان عمليات التسرب لم تكن لتتم لولا تساهل الثلاثي الذي كان يعد النواة الصلبة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والذي ضم كلا من كريم بلقاسم ولخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بوصوف. وبدلا من التريث في استقبال الفارين، رحبت القيادة الثلاثية بهم لانها كانت تأمل كما يشي التحليل بانشاء جيش قوي لا سيما على الحدود التونسية الجزائرية وهي الفكرة التي اقترحها الرائد مولود ايدير وتبنتها القيادة السياسية والعسكرية. ومع ان فكرة الجيش القوي فشلت في التمظهر نظرا لمعارضة السياسية والعسكرية الميدانية لها الا انها تقدم مثالا عن الطريقة التي دخل فيها الفارون لقلب جبهة التحرير الوطنية. وهنا يقول براهيمي ان «الضباط السابقين في الجيش الفرنسي في المرحلة اعتمدوا على كريم بلقاسم (الذي كان وزيرا للقوات المسلحة) لفرض انفسهم وتنفيذ المرحلة الاولى من مخططهم البعيد الامد للاستيلاء على السلطة».

ثقة بلقاسم بالفارين كانت كما يقول براهيمي تخفي وراءها قناعا من المصالح الشخصية، فقد كان بلقاسم يهدف الى استخدام الضباط الفارين لتعزيز موقعه، وانهاء القيادة المشتركة والثلاثية لها. على

«الفارون» حصلوا على شرعيتهم من هيئة الاركان وانتظروا ثلاثة عقود لادخال البلاد في دوامة الدم

العموم فان الخلافات التي عصفت في داخل اطر جبهة التحرير الوطنية ادت لاعادة تنظيم جيش التحرير الوطني في عام 1960 والذي تم لغير صالح بلقاسم. يستعرض الكاتب في هذا السياق الصراع الداخلي في سياقه السياسي والعسكري. ويرى ان الخلافات في هرم القيادة تعود الى اندلاع الثورة عام 1954، وهنا كان مؤتمر «الصومام/ 1956» يمثل منعرجا مهما في تطور مسار الاحداث القادمة، فكريم بلقاسم اعتمد منذ مؤتمر الصومام على عبان رمضان في تعزيز موقعه، وهو التعاون الذي لم يستمر طويلا اذ ان كريم اظهر رغبته بالفوز برمز القائد الاول للثورة ومن هنا ضحى بعبان. ولكن احلام كريم التي ظن انها ستتحقق بتصفيته عبان رمضان (كانون الاول (ديسمبر) 1957) لم تثمر اذ ان المجلس الوطني للثورة على خلاف مؤتمر الصومام تبنى اسبقية العمل السياسي على العمل العسكري، واسبقية الداخل على الخارج، ونتيجة لذلك خسر كريم بلقاسم فرصته ليكون رئيسا للحكومة المؤقتة التي اعطيت لعباس فرحات. ولم يمنع هذا الوضع بلقاسم وزميليه من البحث عن مشاكل للحكومة المؤقتة والتي جاءت في عام 1959 من خلال مؤتمر «العقداء العشرة»، وفي هذا المؤتمر خسر بلقاسم حليفيه «بوصوف وطوبال» اللذين اعتمدا على عدد من العقداء منهم هواري بومدين وعلي كافي ولطفي. وهذا التحالف الجديد كان القشة التي جردت كريم بلقاسم من سلطاته، فقد عنى انشاء هيئة اركان جديدة يشارك فيها بوصوف وبن طوبال وبومدين المعروف بولائه لبوصوف، بداية مرحلة جديدة للثورة الجزائرية.

بدخول بومدين الصورة فان الصراع سينحرف عن القيادة الثلاثية الى بومدين نفسه الذي يعتقد الكاتب ان اعماله على رأس القيادة العامة للاركان كانت تندرج «في اطار استراتيجيا لأخذ السلطة وهو ما بدأت تظهر ملامحه ابتداء من عام 1961». براهيمي لا يشك في ان بومدين كان البوابة الثانية التي عبر منها الفارون الى القيادة الجزائرية. فبومدين الذي يصفه براهيمي بكونه «هادئا، وباردا وسلطويا ورجل نظام» بدأ منذ دخوله هيئة الاركان بالامساك بزمام مصيره الشخصي واخذ بالابتعاد تدريجيا عن رئيسه بوصوف.

هيئة الاركان والصراع مع الحكومة المؤقتة

وفي هذه الفترة بالذات يقول الكاتب ان هيئة الاركان اصبحت مركزا لتلاقي قوى متعارضة. ولكن اللافت للنظر ان اعضاء قيادة الاركان العامة ارادوا استخدام الفارين من الجيش الفرنسي لاعادة استعمالهم لصالحهم من اجل تنفيذ مشروعهم في اعادة تنظيم جيش الحدود. ويرى براهيمي ان هذا التوجه نحو الاستفادة من خبرات الفارين جاء على حساب تجاهل الضباط الوطنيين الشباب المتخرجين من أكاديميات عسكرية عربية. ان دخول الفارين في خدمة قيادة الاركان كان مرحلة ضرورية لتبييض صفحتهم والحصول على نفس شرعية القيادة التي يفتقدونها. ونظرا لذلك فقد تسنم عدد من الضباط الفارين مناصب هامة، وضعتهم في اعلى هرم جيش التحرير الوطني، وهذا الذي قاد الى انقلاب يناير (كانون الثاني) 1992 والذي اغرق البلاد كما يقول براهيمي في حمام دم متواصل.

الخطأ الذي يسجله الكاتب هنا على قيادة الاركان يكمن في اعتقادها ان الفارين من الجيش الفرنسي «المفتقرين الى الشرعية التاريخية والى دعم داخل جيش التحرير الوطني مكنها من استعمالهم من دون خطر لانهم يؤدون دورا «تقنيا» في تأطير القوات». ومن هنا فقد ادى هذا الخطأ والترقيات التي حصل عليها الفارون والتي صبت في صالح فرنسا كانت تمثل نقطة محورية في استراتيجيتهم للاستيلاء على الحكم بعد الاستقلال. على العموم فان الفترة ما بين 1956 التي وصل فيها اول فار لجبهة التحرير الوطني وعام 1962 كانت فترة كمون تهدف الى تقوية الثقة التي وضعتها فيهم هيئة الاركان.

دفعة جديدة اكدت خطة ديغول بتفريغ الاستقلال الجزائري من معناه ومنحت ارضية للفارين، الازمة التي نشأت بين القيادة العامة للاركان والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وهي الازمة التي اندلعت حول اعادة تنظيم الجيش على الحدود، وتعزيز قواتها، بالاضافة لمحاولتها لتوسيع سلطاتها على الولايات، وفي هذا السياق اصطدمت محاولات هيئة الاركان باللجنة الوزارية للحرب التابعة لحكومة الجمهورية المؤقتة. وكمثال رمزي عن تصاعد هذا التوتر بين الطرفين، حادث اسقاط الطائرة الفرنسية عام 1961 فوق واد بولاق واسر طيارها، ففي الوقت الذي طلبت فيه الحكومة المؤقتة من قيادة الاركان تسليم الطيار، ادعت القيادة نفسها ان الطيار مات، تعبيرا عن الرفض، ومن هنا هددت الحكومة التونسية مدعومة من الحكومة المؤقتة بشن حرب على جيش التحرير، ومن هنا قام بومدين بتسليم الطيار من دون استشارة زميليه في القيادة علي منجلي وقايد احمد، ومنذ هذه اللحظة بدأت قيادة الاركان بشن حملة على الحكومة المؤقتة على مستوى الجيش وفي اوساط اللاجئين الجزائريين لتقويض سلطة الحكومة المؤقتة. في هذه الازمة خرج بومدين منتصرا اذ انها اعطته الارضية للتخلص من منافسه علي منجلي حيث تم له الامر عشية الاستقلال. كذلك طفت الخلافات بين الطرفين حول «اتفاقيات ايفيان» التي وقعتها الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مع فرنسا، ذلك ان الاتفاقيات كانت حسب وجهة نظر قيادة الاركان العامة تشكيلا لاستعمار جديد وتلغيم الاستقلال الذي عملت حكومة ديغول كل جهدها لتفريغه من محتواه من خلال اعطاء دور للقوة الثالثة. وضمن هذا السياق يقول الكاتب ان الخلاف حول اتفاقيات ايفيان» 1961، كانت تتطور نحو المواجهة بين القيادة والحكومة المؤقتة. ويعتقد براهيمي ان الصراع على السلطة اخذ يتمظهر بشكل كبير بعد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي انعقد في شباط (فبراير) 1962 للموافقة على الاتفاقيات، وفي هذا السياق تحول جيش التحرير الوطني الى رهان يمثل اساس الشرعية لكل طرف. وفي هذا الاجتماع برزت وجهتا نظر بين من يعتبرون انفسهم قادة تاريخيين مثل بن طوبال وكريم بقاسم، وبين من يعتبرون انفسهم مؤهلين لقيادة جيش التحرير. وفي هذا السياق برز تحالف بن بللا وقيادة الاركان على خلفية هذا النزاع، الذي سمح لبومدين بالحصول على غطاء سياسي له وزنه للتغلب على الحكومة المؤقتة.

اختلاف فكري

يرى براهيمي ان الازمة بين طرفي النزاع تعقدت لان القادة التاريخيين كانوا ينتمون الى تيارين فكريين متناقضين، فالبعض مثل فرحات وبن طوبال وبن خدة كانوا متأثرين بالنمط الغربي في الحياة المطبوع بالعلمانية والليبرالية والفردية، اما الاتجاه الاخر العروبي والذي مثله بن بللا وصالح بو بنيدر وطاهر زبيري فقد كانوا يعتبرون ان الجزائر تنتمي الى العالم الاسلامي العربي وان اللغة العربية يجب ان تكون اللغة الرسمية للجزائر، بل كانت اللغة العربية في هذا السياق تستخدم في عدد من الولايات، ومن هنا فان افراد هذا التيار كانوا يعتبرون المعركة ضد فرنسا جهادا والذين يسقطون في ميدان المعركة شهداء، وهذا هو التيار الغالب على جيش التحرير الوطني. لم يكن هذا التقسيم حديا بين الطرفين اذ لم يمنع الانتماء لهذا التيار او ذاك عقد تحالفات خفية بين انصار التيارين. وفي هذا السياق، الخلاف الثقافي والايديولوجي برز الفارون من الجيش الفرنسي، حيث اختاروا الطرف الاقوى وهي قيادة الاركان، وقد منحت هذه الازمة الفارين الفرصة لاخفاء ولائهم لفرنسا والتزي بشعارات حماسية وثورية. وبهذا الاتجاه اكمل الفارون عملية الدخول واختراق جبهة التحرير الوطني وجيشها وبقيت لهم السيطرة على السلطة الذي لم يكن ليتم لولا حماية بومدين ومساعدته لهم.

يرى الكاتب ان تدمير جبهة التحرير الوطني عبر الاختراق لم يكن الا وجها واحدا من وجوه مواصلة فرنسا لاستعمارها للجزائر، الوجه الثاني كان «جزأرة» الادارة الاستعمارية وتنظيم تبعية الجزائر في المجال الاقتصادي من اجل التأكد من استمرار الحضور الفرنسي في الجزائر فيما بعد الاستقلال. ويلمح الكاتب هنا الى التطورات الادارية التي اجرتها الادارة الاستعمارية في الفترة ما بين 1955 ـ 1958 حيث قامت الحكومة الفرنسية باقتراح خطة اصلاحات سمحت فيها للجزائريين المنتمين للتيار الثقافي الفرنسي بشغل مناصب ادارية واقتصادية

لتحضيرهم لفترة ما بعد الاستقلال. وازدادت عمليه تشغيل وترقية الجزائريين بعد خطاب ديغول في ايلول (سبتمبر) 1959 حول تقرير المصير، حيث قامت الحكومة الفرنسية بتعزيز معظم هياكل الادارة الاستعمارية، كما تم البدء بخطة قسنطينة التي هدفت في مزاجها العشري لخلق 400 الف فرصة عمل للشباب الجزائري وصرفهم عن الثورة. ويقول الكاتب ان ابعاد الخطة التي كانت ستنتهي في عام 1970 ظهرت من خلال تأثيرها على الطريقة التي ادارت فيها الجزائر المستقلة مشاريعها. وقد ادت هذه الاجراءات الى صعود طبقة جديدة من التكنوقراط وحملوا معهم بيروقراطية جديدة للحياة في الجزائر. ويرى الكاتب ان فرنسا نجحت قبل اعلان استقلال الجزائر السياسي من اقامة جهاز للمحافظة على مصالحها. على العموم فان استقلال الجزائر الملغم والذي خرجت منه مكبلة باعباء من الاتفاقيات الافتصاديه فتح المجال للفارين للدخول في معبرت النظام السياسي الجزائري، ولكن مشروع السيطرة على السلطة شوشه قليلا الرحيل الجماعي للاوروبيين من الجزائر عام 1962، والنصر السياسي لتحالف قيادة الاركان العامة لجيش التحرير الذي ضم رابح بيطاط، واحمد بن بللا ومحمد خيضر، حيث افشل هذا التحالف لفترة قصيرة مشروع الجزائر الجزائرية، كما اثر على خطط التيار الموالي لفرنسا للوصول للحكم، و من هنا اجبر التيار هذا على الدخول من جديد لفترة كمون جديدة، ستقوده للسلطة فيما بعد.

«في اصل الأزمة الجزائرية» [2ـ2]

السنة الثالثة عشرة ـ العدد 3768 الاثنين 25 حزيران (يونيو) 2001

عرض وتقديم: ابراهيم درويش

يرسم الكاتب براهيمي، الظروف التي قادت لانقلاب جانفي (كانون الاول) 1992، اذ يحلل هنا سياسات الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين، وسياسات الشاذلي بن جديد التي قادت لوصول حزب فرنسا للسلطة، وسيطرتهم على الجيش والاقتصاد والادارة. ويحلل الكاتب الخلافات الثقافية والفكرية بين المعسكرات المتصارعة على السلطة في الجزائر. كم يرسم الظروف التي قادت لاحداث اكتوبر 1988 والتي شكلت الفصل الاخير لوصول التيار المؤيد لفرنسا. ويرسم الكاتب صورا من التماثل بين السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، خلال حقبة استعمارها لها، ولسياسات النخب الجديدة التي انقلبت على الوضع.

بومدين رهن الجيش والامن بيد «الفارين» واكمل حلقة حرف الثورة عن مسارها
ميتران ضالع بانقلاب جانفي.. واعتبر انتصار حزب فرنسا.. عودة جديدة لاستعمار الجزائر

الحرب على وجوه الجزائر الثلاثة

في جوهر الازمة الجزائرية والموقف الفرنسي المعادي للاستقلال، محاولة فرنسية لمنع الجزائر من ستعادة وجهها الحضاري الخاص القائم على المزج بين عوامل ثلاثة الامازيغية والعروبة والاسلام، وهي الوجوه الثلاثة التي تضع الامل الجزائري، ووجه الدولة في التاريخ والراهن. ومن هنا يعتقد براهيمي الذي يحاول كما اسلفنا رصد الخلل الذي حدث في تكوين النظام الجزائري، والعودة بنا الى الاعوام التي سبقت الاستقلال. فرنسا عملت جاهدة على تعويق مسار الاستقلال الجزائري، وحينما وافقت على هذا، وافقت مرغمة، كنوع من الحل الاخير، ولكنها حاولت قدر الامكان جعل الاستقلال الجزائري، صورة بلا معنى. وسنرى ان الهجوم على الوجه الحضاري للجزائر، الذي عملت فرنسا على محوه مدة قرن ويزيد، سيتم في عقد التسعينيات الدامي، حيث نجحت المجموعة الموالية لفرنسا بفرض حضورها على طابع الدولة، وقامت بنفس الوقت باستخدام نفس الاساليب للقضاء على وجه الجزائر العروبي الاسلامي.. ولم يكن هذا ليتم لولا التسلل البطيء الذي قام به اعضاء ما يسمون القوة الثالثة وحزب فرنسا لكافة قطاعات الدولة.

يعتقد براهيمي ان الفارين من الجيش لم يستطيعوا الحصول على ما حصلوا عليه لو لم يقم جيش الحدود بقيادة بومدين بفرض حضوره على السلطة والذي بدأ كما يقول الكاتب في الفترة ما بين اذار (مارس) - وحزيران (يونيو) 1962، وهي الفترة التي تمت فيها القطيعة بين هيئة الاركان العامة والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ويقول براهيمي ان هذه القطيعة ادت لانتهاء جبهة التحرير الوطني الجزائرية باعتبارها تجمعا وطنيا واسعا. وقد فتح هذا المجال الطريق امام تقدم جيش الحدود نحو السيطرة على الدولة. ويشير براهيمي هنا الى المظاهر التي رافقت دخول بعض وحدات جيش الحدود لبعض الولايات والتسابق المحموم على تجنيد الشباب من اجل رفع عدد قواتها. ويقول الكاتب ان قوات جيش التحرير في الداخل ارتفعت في غضون فترة قصيرة من عشرة الاف جندي الى اربعين

الفار، فقد كان المجندون الجدد في جيش التحرير يريدون الحصول على لقب «مجاهدين قدماء» وهو ما ادى الى اطلاق التسمية المحقرة «جنود 19 مارس (اذار)» على هؤلاء المجندين. في داخل وهج التحرير والحماس الذي رافقه جرى ما يعتقد الكاتب انه اول انحراف في مسار الثورة، اذ ان توزيع المناصب واقتسام الغنائم ذهب في غالبيته العظمى للمجموعة القارة التي يعتقد انها اساس المشكلة الجزائرية وجوهرها. وينوه براهيمي هنا الى ان حرف الثورة عن مسارها «المصمم والمطبق قبل الاستقلال عمليا ابتداء من سبتمبر (ايلول) عام 1962، غير ان الوضع لم يكن وصل بعد الى نقطة اللارجوع.. فكل الخيارات بقيت مفتوحة نظريا، رغم ان حزب فرنسا كان قد بات يحتل الميدان وهو ميدان كان قد جرى تلغيمه كثيرا لصالحه. وفي حديث الكاتب عما يسميه «الاستقلال الملغم» يعود بالضرورة الى الازمة التي عانت منها جبهة التحرير الوطني، فهذه الجبهة التي ظلت نوعا ما متماسكة طوال حرب التحرير تحولت الى جسد مليء بالتناقضات وبالعديد من المصالح الخاصة، كما حدث نوع من التغيير في ميزان القوى بين الجبهة السياسية وجيشها العسكري، وقد تم هذا التغيير كما يقول براهيمي على حساب الفئات الوطنية المرتبطة فعلا بالشعب. وفوق كل هذا فان بومدين اعتمد على الفارين من الجيش حينما سلمهم امر الجيش الوطني او جيش النظام.

من هنا فصاعدا فان بومدين، ومن بعده الشاذلي بن جديد سيبرزان كشخصيتين محوريتين في مسيرة زحف الفارين من فرنسا على الجيش وعلى كل اجهزة الدولة. وفي هذه المرحلة يكتفي الكاتب بالاشارة الى ان «التاريخ سوف يبرز في ما بعد ان بومدين اخطأ بعدم اخذ حذره حيالهم.. كما سبق ان نبهه بعض الضباط المقاومين... ويكمن خطؤه في انه كان يريد استعمال الفارين كأداة لبلوغ غايته».

نهاية الاستقلال

ومن هنا فأصل الازمة الجزائرية التي زرعت بذورها ايد استعمارية تراكمت عشية الاستقلال وفتحت المجال لبروز مواجهات سياسية وثقافية، واكثر من هذا تنافس محموم على السلطة. فالجزائر التي قاتلت الاستعمار التفتت لنفسها من جديد، حينما بدأت الثورة تأكل ابناءها. وهذا الاقتتال بين الرفاق بدأ مبكرا في وقت كانت البلاد الخارجة منهكة من جحيم استعمار طويل تواجه مشاكل من نوع جديد، سجناء قتلى، ضحايا ارهاب، كساد اقتصادي، وازمة داخلية في صفوف حركة التحرير الوطني. وفي سياق هذا يقول الكاتب ان التسابق للاستيلاء على السلطة بدأ بين الرفاق، وكل هذا تم كما في حالات عدة باسم «الشرعية الثورية» التي فتحت المجال امام الانتهازيين. ففي اليوم الاول من الاستقلال احكم حزب فرنسا سيطرته على اهم وزارات الدولة المستقلة، الدفاع والداخلية والاقتصاد والمالية. ونجح اعضاء هذه المجموعة بسد الطريق امام القيادات العربية، التي لم تجد لها مكانا في اطار الحكومة الجديدة لانها كما يقول اتباع فرنسا، ليست عصرية ولا تستطيع التواصل مع العالم المحيط بها.

وهنا يشير الكاتب الى الطريقة التي سيطرت فيها الدولة على الاسلام، والاساليب التي استخدمت للتحكم بالانشطة الاسلامية. وهذا يرى الكاتب ان تهميش القيادات الفكرية ذات الاساس العروبي وتحديد دور الدين في اطار رمزي، في بلد شديد الحساسية تجاه الاسلام والعروبة ساهما في زرع بذور الانفجار، لان التهميش الذي مارسته النخبة تم على اطار فكري شعبي عام. وقد طال هذا جهاز حركة التحرير الوطني الذي سيكون مدارا للصراع بين مختلف الافكار والايديولوجيا في ما بين عام 1962 و 1965. وقد تميزت هذه الفترة بالصراعات السياسية احيانا المسلحة. وكانت الجبهة بالضرورة مركزا لتنافس اربعة تيارات: الاسلامي، الليبيرالي، الشيوعي، الشعبوي. وقد تمظهر هذا الصراع عن ولادة خيار الحزب الواحد الذي تبنى الخيار الاشتراكي. وكان هذا الخيار احد اهم اسباب المأزق الجزائري اذ انه فتح الباب امام اقلية للتحكم بمصير الشعب الجزائري ومصادرة ثرواته لحسابها، كما شجع هذا الخيار بروز العديد من مظاهر الفساد الاداري والمحسوبية والانتهازية، وادى بالضرورة الى انهاك الجهاز الاداري والبنى التحتية للدولة. ففي هذه الفترة المبكرة من الاستقلال الجزائري، سهلت المجموعة الحاكمة ترقية ما يسميهم الكاتب بالانتهازيين والموالين لفرنسا، كما جرى الصراع على السلطة بين بن بللا الذي كان يعطي اهمية للحزب على الجيش فيما كان بومدين يرى العكس. وفي هذا الواقع قام الموالون لفرنسا بالتخطيط لانقلاب «جوان (حزيران) عام 1965» والذي برز فيه الفاران عبدالقادر شابو وسليمان هوفمان، واوصل بومدين سقف السلطة في الجزائر. وعليه يرى براهيمي ان هذا الانقلاب كان نهاية للثورة وانتصارا للنزعة

الموالية لفرنسا. ومنذ هذه اللحظة سيؤكد بومدين اعتماده الكامل على الجيش والامن والبيروقراطية الموالية لفرنسا لحماية نظامه.

ان انقلاب بومدين كان كما يشي التحليل علامة هامة في طريق حزب فرنسا الذي يعرفه الكاتب بذلك الذي يضم «ضباطا قدامى في الجيش الفرنسي وموظفين كبارا يجمع بينهم الارتباط بفرنسا وبنمط التفكير الفرنسي» ويفرق الكاتب هنا بين المثقفين الفرانكوفونيين واعضاء حزب فرنسا، اذ ان الانتماء للثقافة الفرانكوفونية لا يعني بالضرورة الولاء لفرنسا، وعليه فقد اتاح انقلاب بومدين توطيد دعائم البيروقراطية وتأمين وضعها من خلال انشاء نظام بوليسي يهدف بالضرورة لتعزيز سلطه الفردية. وهنا يرى الكاتب ان النظام الجديد لجأ لهذا من خلال قمع الحركات النقابية والجمعيات والمؤسسات واستخدم اللغة الاشتراكية الخادعة. وبما ان بومدين كان يطمح لبناء صورة ابوية عن نفسه فقد اعتمد على الخطاب الاشتراكي الخادع، كما استخدم خطاب التنديد بالامبريالية ومساعدة حركات التحرر العالمي من اجل بناء صورة عن الرئيس، فبومدين حسب تحليل براهيمي كان يطمح الى ان يكون الزعيم التاريخي الاول في الجزائر، وان يكون في الوقت نفسه قائدا للعالم الثالث. ومن هنا اهمل بومدين في سبيله لتحقيق هذا السياق المغربي الكبير، وعزل الجزائر عن جيرانها، بل كان ضد اية محاولة لتنسيق التعاون الاقتصادي بين البلدان الجارة، ولعب دورا في بتعطيل الاتحاد التونسي الليبي.

ويرى الكاتب ان هناك نوعا من التناقض الظاهري بين تكوين بومدين العروبي الاسلامي وموقفه من حزب فرنسا. ويعود هذا الى ان التكوينات الاصلية لبومدين تأثرت بنزعتين فكريتين متناقضتين، فهو تأثر بالتيار الماركسي الذي شارك في رؤيته للعالم خاصة في مجال عبادة الشخصية والنزعة الدولانية واسبقية الاقتصاد على السياسة، كما تأثر بالنزعة الرأسمالية لانه كان يطمح لبناء دولة قوية وصناعية في الجزائر. وقد ادت هذه التكوينات المتناقضة ظاهريا لدى بومدين للاعلان عن ما يعتقد انه «اشتراكية خاصة». ويصف الكاتب ان مشروع التحديث الذي نتج عن هذه الرؤية وتصوره تكنوقراط منقطعون عن الحياة ركز على الجانب المادي، ورفض بومدين ادخال القيم الاسلامية لشروعه لانه كان حذرا حيال الحركة الاسلامية والتي حاربها ونجح بشلها. على العموم فان رؤية بومدين هذه انعكست على الطريقة التي تعامل فيها مع الجيش والامن، اللذين اصبحا بيد مجموعة قليلة من الموالين لفرنسا. فحسب تعبير الكاتب فان الجيش الوطني الشعبي بات في غضون اشهر قليلة من الاستقلال «فعلا وقانونا تحت اشراف حوالي 15 ضابطا من ادنى الرتب في الجيش الفرنسي». وقد قامت هذه المجموعة باتخاذ عدد من الاجراءات للتخلص من العناصر الوطنية، مثل التسريح السريع والكثف، والاستيعاب الآلي في الجيش الوطني لعناصر كانت لا تزال تخدم في الجيش الفرنسي، والتحكم في البعثات لمدارس التكوين العسكري، واعادة تنظيم وزارة الدفاع والجيش، وغير ذلك من الوسائل والتي ضمت ايضا الاشاعة والتدمير الشخصي للمنافسين. ويقول الكاتب ان بومدين حتى عام 1969 بالتخلص من مسؤولي جيش التحرير الوطني الجزائري، الذين اعتبرهم خطرا على حياته.

يقدم الكاتب تحليلا جيدا للدور الذي مارسته اجهزة الامن لحماية النظام، فهو يقدم الاساليب التي استخدمتها في التعامل مع المعارضين اذ انها وضعت الاسلاميين في مقابل الاشتراكيين واشغلتهم ببعضهم البعض، كما قامت بتأليب الناطقين بالفرنسية على الناطقين بالعربية، ونجح الامن بتسريب الكثير من الشائعات التي قدمت على انها حقائق اما بواسطة «اذاعة الرصيف» او بواسطة المنشورات، ويعتقد براهيمي ان تقنية الامن هذه وصلت ذ، تها في حقبة التسعينيات بعد اختراق الجماعات الاسلامية المسلحة والتلاعب بها حيث اطلق عليها البعض «جماعات الجيش الاسلامية». وكان الامن يهدف من عمليات الاختراق لتصوير الاسلام بصورة شيطانية وافقاد الاسلاميين حظوتهم. ويقول براهيمي ان سياسة الارهاب والعنف والاشاعة اصبحت مباحة لحفنة من «الجنرالات للبقاء في السلطة».

في سياق حقبة بومدين، اذن، نجح الانقلابيون الفارون، من فرنسا بتأكيد وجودهم في الجيش وقوات الامن والدرك الوطني بل توسيع صلاحياتهم، للاقتصاد والادارة، التي تعززت فيها مواقع حزب فرنسا والتكنوقراط الذين يمثلونه. فهؤلاء اكدوا تبعية الجزائر لفرنسا، اقتصاديا، وعسكريا، واثرت هذه السياسات على حدوث الازمات تلو الازمات في داخل الاقتصاد الجزائري، والى هشاشة البنى الاقتصادية وتدهورها وهذه كانت عوامل اثرت على تفاقم المأساة الجزائرية. ترسم المعلومات التي يقدمها عن اثار السياسات التي طبقها حزب فرنسا السلبية

على الاقتصاد الجزائري، ولكنه يشير الى ان نظام بومدين كان يثبت دعائمه بعد كل ازمة اقتصادية اذ كانت تتيح له الفرصة للتخلص من مناوئيه السياسيين.

بن جديد وولاياته الثلاث

كانت مرحلة بومدين اذن، محطة هامة في تثبيت دعائم حزب فرنسا، فالاستقلال الذي تم بالدماء وبمليون شهيد بدا حبرا على ورق، والشعارات العروبية والاشتراكية كانت غطاء لوجه جديد من التبعية لفرنسا، ومع ذلك فان حزب فرنسا الذي كان يزحف ببطء كان عليه الانتظار لعقد آخر بعد وفاة بومدين (كانون الاول (ديسمبر) 1978). وهذا ينقلنا بالضرورة للحديث عن مرحلة الشاذلي بن جديد، فمرض بومدين ثم وفاته «يشير الكاتب هنا لعلامات الاستفهام التي لا تزال تدور حول وفاته»، ادى للبحث عن مرشح، ومن بين المرشحين المتنافسين عبد العزيز بوتفليقة ومحمد صالح يحياوي اللذان يمثلان مدرستين مختلفتين، جرى البحث عن مرشح تسوية، وكان هذا قائد الناحية العسكرية لوهران العقيد الشاذلي بن جديد. ويقول الكاتب ان هذا الاختيار اثار العديد من الاسئلة، خاصة ان هذا المرشح لم يكن مؤدلجا وذا اهتمام بالايديولوجيا، وفي هذه المرحلة جرى الحديث عن كونه مرشحا انتقاليا يصار الى اقصائه فيما بعد. ضمن سياق التحليل فان اصابع حزب فرنسا واضحة في هذا الاختيار. ويقسم الكاتب حقبة بن جديد بناء على ولاياته الثلاث، فالأولى (1979-1983) كانت اجمالا جيدة، ذلك ان الرئيس القادم من القطاع العسكري ووجد نفسه في قمة الدولة تميز في هذه المرحلة بالحذر باتخاذ قراراته، وكان يستمع ويستعلم ويستشير قبل الخوض في اي قضية، ومن هنا يمكن اعتبار الولاية الاولى له جيدة. ولم تخل هذه الفترة من محاولات تقدم واختراق من قدامى الجيش الفرنسي على مواقع هامة في الجيش، وبرز في هذا السياق العربي بلخير، الذي عين في رئاسة الجمهورية كمنسق للامن. واستطاع العربي بلخير الحصول على ثقة الرئيس، وقد استخدم هذه الثقة من اجل تقوية «جماعته». وشهدت هذه الفترة استخدام عدد من الوسائل لزعزعة ضباط في الجيش الوطني الشعبي، وكانت هذه السياسة كما يقول الكاتب تهدف لاجبار الرئيس على التخلص من رجال سياسة قريبين منه.

يرى براهيمي ان هناك اختلافات كثيرة بين اسلوب عمل بومدين الذي كان يؤمن بالفردية وتقديس الذات ورؤية الشاذلي التي كانت تتسم بالتكتيك، وعلاوة على ذلك كانت لدى بومدين رؤية واضحة للسلطة، فهو لم يكن يهتم الا بالوجوه الاساسية للنشاط السياسي، مقارنة مع اهتمام الشاذلي بالتكتيك. كذلك لم يكن الشاذلي مهتما كثيرا بالاستراتيجيات، ولم يكن لديه طموح تجاه بلده او حتى رؤية مستقبلية. وبالمقابل كان انسانا بسيطا ومنشغلا بالهموم اليومية المتمحورة حول تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي. وتظهر شخصية الشاذلي براغماتية خاصة.

في المرحلة الثانية من ولاية بن جديد (1984-1988) نلاحظ نوعا من الميول لدى الرئيس نحو البقاء في السلطة، وظن محقا او مخطئا ان تخليه عن بعض صلاحياته الدستورية يمكن ان يساعده على تكريس سلطته. وفي هذه الفترة برزت داخل اطار التنافس حول الرئيس مجموعتان، الاولى يقودها العربي بلخير، الذي استغل ثقة الرئيس لتوسيع صلاحيات مجموعته لتشمل جبهة التحرير الوطني، والمنظمات الجماهيرية، والمجلس الشعبي الوطني. اما المجموعة الثانية فتلك التي قادها مولود حمروش الذي يلاحظ الكاتب صعوده السياسي السريع من مسؤول في مصالح التشريفات ما بين عامي 1977 و 1983 الى منصب امين عام الرئاسة عام 1986. ويتهم الكاتب حمروش الطامح بتسييسه الامانة العامة للحكومة. ويعتقد براهيمي ان قوة حمروش تستند بالضرورة على عدد من المستشارين والتكنوقراط الذين وظفهم في البداية العربي بلخير، ومن خلال هذه المجموعة شرع بسلسلة من «المناورات» للضغط على الشاذلي بن جديد لاحداث تغييرات واصلاحات. ويتهم الكاتب هذه المجموعة بسعيها نحو السلطة من خلال التدخل في المجالين الاقتصادي والتقسيم الاداري للبلاد.

ويرى الكاتب ان خطة الاصلاحات الخمسية (1980-1984) اختطفتها مجموعة حمروش، حيث اصبحت اللجنة الاقتصادية التي اعدت الخطة بعد سحبها من الوزير الاول «الكاتب» بيد مجموعة حمروش «تستخدمها لغايات سياسية بالتحديد». ومع ان مجموعة بلخير وحمروش كانتا تتنافسان على قلب الرئيس الا انهما كانت تعبران عن نفس مصالح حزب فرنسا، فهما، اي مولود وبلخير، يتكاملان وينتميان الى نفس التيار. وفي الوقت الذي ركز فيه حمروش على المستشارين والبيروقراط، ركز بلخير على الجيش، الذي عمل من خلال علاقته بالرئيس على زاحة بعض الوطنيين الذين اعتبرهم عقبة في طريق تقدمه. ومن هنا يرى الكاتب ان حزب فرنسا نجح كثيرا وحقق انجازا حينما نجح باقصاء اللواء الركن مصطفى بلوصيف الذي كان محلا لثقة الرئيس منذ

حرب التحرير الوطني، ولهذه الثقة وجه اخر من الاعتبارات الولائية والجهوية والعائلية. فقد احيل بلوصيف على التقاعد في سن صغيرة نوعا ما، عام 1987 وحاكمه انقلاب الفارين من الجيش الفرنسي عام 1992، ويقول الكاتب ان المآخذ المأخوذة عليه تعود الى عقد سابق، وعليه فتوقيت الاتهامات مدعاة للتساؤل، ويبدو ان ملف الاتهام لم يكن الا غطاء لدوافع اخرى تتمثل في محاولات حزب فرنسا للسيطرة على الجيش التي ستكون مقدمة للاستيلاء على السلطة. ويقول الكاتب ان في مركز الصراع بين بلخير وبلوصيف هي صفقة التغطية الجوية التي كانت فرنسا تريد بيعها للجزائر بحوالي 36 مليار فرنسي، فرفض بلوصيف لهذه الصفقة الدفاعية التي م تكن الجزائر بحاجة اليها كان واحدا من الاسباب التي دفعت حزب فرنسا للتخلص منه.

في تقييمه للولاية الثانية للشاذلي بن جديد يعتقد الكاتب ان «حاشية» الرئيس نجحت بعزله عن حزب جبهة التحرير الوطني وعن الحكومة، ومن هنا فقد كانت شعبية الشاذلي تتراجع كلما اقتربت ولايته الثانية من الانتهاء اضافة لتورط بعض افراد عائلته بفضائح.

وفي سياق الازمة التي عانى منها النظام وتفاقم الازمات الاقتصادية والسياسية جرى السباق بين المجموعتين اللتين هيمنتا على الرئيس من اجل السيطرة على مؤتمر جبهة التحرير الوطني الذي كانت بيده مفاتيح ترشيح الرئيس القادم وانتخاب لجنة مركزية جديدة، وبالتالي تأمين ترشيح بن جديد لولاية ثانية. ويعتقد الكاتب ان عمليات ترشيح الرئيس لولاية ثالثة جرى في سياق ازمة سياسية كانت تعاني منها جبهة التحرير الوطني، وازمة حضارية نبعت من موقف النظام من الاسلام، حيث تعاملت معه النخبة في سلم القيادة كما تعامل الاستعمار الفرنسي معه، حيث حاول التحكم بالاسلام عبر منظور علماني. ويبدو ان ازمة عروبة واسلام الجزائر وموقفها من الفرنسيين والعلمانيين طبعت الجدال حول شكل الدولة منذ الاستقلال حتى عام 1988. ويرى الكاتب ان العلمانيين الجزائريين استخدموا الحداثة «كمشروع تجاري سياسي» هدف لافقاد الاسلاميين اعتبارهم ونعتهم بالظلاميين. هذا الجدال الذي شارك فيه الاسلاميون في محاولة للعب دور ايجابي في سياسة التنمية الاقتصادية والاجتماعية لبلدهم ينبع من اشكال اهم وهي رفض النظام تداول السلطة في اطار ديمقراطي. يضاف الى ذلك ازمة اجتماعية تشير الى تزايد التضخم واعداد العاطلين عن العمل، وظهور الطبقات الطفيلية، وهذا الوضع قاد لأزمة اخلاقية تشير الى استشراء الاثراء غير المشروع والنشاطات الطفيلية والبيروقراطية.

وقد كانت هذه الازمات كلها ارضية نظم من خلالها حزب فرنسا او الطامعون بالسلطة الازمة التي قادت لاحداث اكتوبر (تشرين الاول) 1988.

الفصل الاخير قبل تقدم حصان طروادة

يقول براهيمي ان حاشية الرئيس نجحت بعزله تماما عن الشارع وعن الحكومة التي تركها وذهب لوهران حيث بقي فيها مدة ثلاثة اشهر، حيث ظهر بعدها ليلقي خطابه الملتهب والعنيف والمدروس. قبل القاء الرئيس خطابه جرت عدة تسريبات عن تفاقم الوضع وامكانية حدوث نوع من التظاهرات. وفي تقييمه لهذه التظاهرات المنظمة بشكل جيد يقول براهيمي ان المنظمين لها كانوا يتصرفون كمحترفين، حيث قادوا عمليات التخريب والنهب في الجزائر العاصمة، ادت بالرئيس لامر الجيش بالتدخل. ولان الكاتب كان في قلب الحكومة في تلك الازمة فهو ينقل الموقف العام الذي يصوره بانه كان مرتاحا لما يحدث، لانه كما يشي التحليل كان يصب في صالح الطامحين للسلطة. كما يتحدث عن اجتماعات خلية الازمة التي شكلها الرئيس، والتي لم تنجح في النهاية في احتواء الوضع، وهو ما ادى بالرئيس للظهور على شاشة التلفاز والاعلان إن السلطة جاءته ولم يسع اليها في يوم من الايام ملمحا لامكانية استقالته.

يقول الكاتب ان احداث الخمسة اشهر التي تلت تمرد اكتوبر (تشرين الاول) 1988 اعطت انطباعا انها تستجيب لأجندة معروفة، جرى فيها التسابق بين مجموعتي الجيش والتكنوقراط. بلخير وحمروش. يلوم براهيمي الشاذلي الذي انتخب لولاية ثالثة في ظروف عاصفة على تنحية بلوصيف، وعلى ثقته بحمروش وبلخير حيث « اعتبر انضباطهما الظاهري ولياقتهما من قبيل الاخلاص والطاعة» وهذا الخطأ جعله يفقد منصبه ويلقي بالجزائر في دوامة العنف او « العشرية الحمراء»، وهي العشر سنوات التي تعتبر حقبة سوداء في تاريخ الجزائر (1989 ـ 2000)، ففي هذه الفترة وحتى انقلاب 1992 تواصل الصراع بين حمروش وبلخير، وفي ظلال هذا الصراع نجح العسكريون الذين هاجموا اصلاحات حمروش واجبروه على الاستقالة ، ذلك ان حمروش تسلم السلطة عام 1989 منعطفا هاما في محاولة الاخير تعزيز برنامجه الا ان العسكريين نجحوا باجباره على الاستقالة بعد اعلان حالة الطوارئ، ومن هنا فان تعيين سيد احمد غزالي وزيرا اول كان انتصارا للبلخير ونزهر وجماعة فرنسا، وشكل هذا التعيين طورا حاسما في اتجاه الاستيلاء على السلطة «كل السلطة»، اي انقلاب جانفي(كانون الاول) 1992.

يؤكد الكاتب هنا ان انقلاب حزب فرنسا استخدم عددا من المبررات الواهية لتبرير انقلابه منها منع الجبهة الاسلامية للانقاذ للوصول للسلطة، وكانت هذه التبريرات غطاء لافتقاد الانقلابيين اية شرعية تاريخية او شعبية او دستورية. وفي وجه اخر فان انتصار حزب فرنسا كان انتصارا لفرنسا نفسها ولرئيسها فرانسوا ميتران، الذي كان من انصار الجزائر الفرنسية وداعما للحرب الشعواء ضد جبهة التحرير الوطني، ومن هنا فان انهيار منظومة الجبهة عام 1988 كان خبرا حبيبا على قلب الرئيس. وفي هذا السياق يتحدث الكاتب عن دور فرنسا في انقلاب 1992، اذ يشير لتورط فرنسي علني في العملية، ومهاتفات بين الرئيس ميتران وقائد الانقلاب، كما يقول الكاتب ان موقف فرنسا من ارسال او تشكيل لجنة تحقيق دولية في الفظائع التي ارتكبها نظام «الاستئصاليون» يعتبر ايضا دليلا على علاقة فرنسا بما حدث في الجزائر. وفي هذا الاطار يقول الكاتب ان ميتران سلم ملف الجزائر لوزير الداخلية شارل باسكوا، حيث اعتبر ما يحدث في الجزائر ازمة داخلية.

ومن هنا فان انقلاب 1992 اعاد في المنظور الفرنسي استعمار الجزائر، اذ استطاعت القوة الثالثة في النهاية احكام سيطرتها على الوضع. ولكن الاستعمار الجديد للجزائر تم من خلال دعم مجموعة من الاستئصاليين الذين استخدموا منظومة الاستعمار الفرنسي السابق، الخطاب الاساليب من خلال التضليل الاعلامي والتسميم وسياسة الارض المحروقة وفتح معسكرات الاعتقال وغير ذلك، بل ان التماثل بين الاستعمار الفرنسي القديم وانقلاب 1992 يظهر من خلال الخطاب الذي يسم المعارضين بالارهابيين. ويشير الكاتب الى محاربة النظام اللغة العربية، عبر تفجير الملف البربري واغتيال بعض الجنرالات المغني البربري معطوب الوناس. يقول براهيمي ان النظام الجديد تبنى حتى وجهة النظر الفرنسية حول اصل الثورة الجزائرية التي اعتقد انها تكمن في المشاكل الاقتصادية، ومن هنا اقترح ديغول خطة قسنطينة لصرف الشباب عن العمل، وبنفس القدر آمن النظام الجديد، بعلاقة الفقر والبطالة، بانتشار مظاهر الاحياء الاسلامي. ومن هنا اراد الانقلابيون حل المشكلة من خلال بيع بعض الحصص من بئر حاسي مسعود، واستثمارها في بناء المجمعات السكنية، وتوفير فرص العمل وهو حل يتماثل مع الحل الفرنسي السابق.

يحلل الكاتب ايضا في سياق الممارسات الجديدة للنظام علاقة الانقلابيين بالارهاب، وخططهم لاختراق الجماعات الاسلامية، ويعتقد ان معظم المجازر التي ارتكبت في سياق الاعوام السابقة انما نظمها الجيش او الجماعات الاسلامية التي اخترقها النظام. كما يشير الى ان النظام لجأ كما لجأت مجموعة بلخير لاحداث قلاقل للوزراء المعنيين بغية التخلص منهم. في الصفحات الاخيرة من الكتاب نعثر على فصل دام بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث يقدم الكاتب مسلحا بالتفاصيل والخفايا وصفا للطريقة التي تسيد فيها حزب فرنسا السياق الجزائري من جديد. على العموم في ثنايا التحليل هذا يدعو الكاتب لحل سياسي لمأساة الجزائر التي تفاقمت منذ عام 1992 من خلال العودة لسيرورة الديمقراطية، واحترام السيادة الشعبية، واتاحة المجال للوطنيين والمؤهلين لتسيير الشؤون العامة للبلاد وعندئذ فقط يصبح السلام والاستقرار في الجزائر مضمونين.

محاولة براهيمي في دواعيها ومقدماتها مثيرة، وكما المحنا اكثر من مرة قريبة من السياق العام في الجزائر، ولكن تجب قراءتها كشهادة رجل عمل في داخل المؤسسة الحاكمة واجبرته الظروف او اجبر على المغادرة. وهذا لا يعني انها قراءة غير مكتملة، ولكن البعد الشخصي قد يتداخل احيانا في النتائج والتحليل، ومع ذلك فدعوة الكاتب مخلصة للعودة

عن الكاتب والكتاب

للمسار الديمقراطي والخروج من دوامة الحرب والارهاب. نقطة اخرى، فان الرسم البياني للاحداث يتحدث عن مجموعة، زرعت في داخل حركة التحرير الوطني للسيطرة على الحكم واعادة استعمار فرنسا، وهي فرضية تحتاج في النهاية من المتخصصين في الشأن الجزائري لنفيها او تأكيدها ودعمها. على العموم يمكن الحديث عن اتجاه، ساد المؤسسة الجزائرية، حول هوية البلاد العربية او الغربية، ولكن الكاتب كما اشرنا يتحدث عن «مؤامرة» منظمة استمرت لعقود طويلة.

عبد الحميد براهيمي، ولد في الجزائر عام 1936، وحصل على دكتوراه في الاقتصاد. انضم الى جيش التحرير الوطني الجزائري في عام 1956، حيث شغل وظيفة ضابط في وحدات العمليات حتى عام 1962، في عام 1963 عين واليا (محافظا) لعنابة، شغل منصب استاذ الاقتصاد في جامعة الجزائر (1970)، عين رئيسا لشركة النفط الوطنية الجزائرية (سوناتراك) في الولايات المتحدة الامريكية عام 1976، في عام 1979 عين وزيرا للتخطيط، من عام 1984 حتى 1988 اصبح رئيسا للوزراء، وعضوا في المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، في عام 1990 استقال من اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، واستأنف نشاطه الاكاديمي في الجزائر ثم في بريطانيا حيث يقيم حاليا. نشر له العديد من الابحاث حول «نمو الشركات المتعددة الجنسيات» و«استراتيجيات للتنمية في الجزائر» و«القضاء على الفقر والتنمية من وجهة نظر اسلامية»، و «المغرب العربي في مفترق الطرق في ظل التحولات العالمية» (1996). «العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الاسلامي» (1997)، يعمل حاليا مديرا عاما لمركز دراسات المغرب العربي في لندن.

في اصل الأزمة الجزائرية (1958 ـ 1999)
عبد الحميد براهيمي
مركز دراسات الوحدة العربية
بيروت/ 2001

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

ص إبن باديس (عبد الحميد) 175-117-27

ص إبن بلة (أحمد) 68-67-66-65-62-57-55-31-25-21-20-16-8
140-139-138-136-135-134-133-102-70-69
180-179-177-175-152-151-150-142-141

ص إبن بولعيد (مصطفى) 55-50

ص إبن جدو (حراث) 33

ص ابن جدو (موسى) 206

ص إبن جديد (الشاذلي) 42-40-26-25-11

ص إبن خدة (بن يوسف) 65-62-15

ص إبن طوبال (لخضر) 135-65

ص إبن مهيدي (العربي) 51-50-18

ص إبن ميلاد (محجوب) 29

ص إبن هدوقة (عبد الحميد) 57-54-43-27-26-25-24-23-22-21-13-11-9
101-100-99-94-92-91-86-81-80-72-69-58
210-110-106-103

ص أجيرون (شارل روبير) 178-171-153

ص اسماعين (الحاج) 152

ص الإبراهيمي (محمد البشير) 124-117-27-22-21-19-8

ص البجاوي (محمد) 19

ص البشير (الحاج علي) 34-19

ص التونسي (محمد بيرم) 29

ص الحاج (أحمد مصالي) 175-125-124-117-50-49-22-15

ص الخميري (الطاهر) 29

ص الدوعاجي (علي)	28
ص الزبيري (الطاهر)	181-32
ص الزمرلي (حسين)	23
ص العقربي (عبد العزيز)	23
ص القليبي (الشاذلي)	24-23
ص الكعاك (عثمان)	23
ص المحمدي (محمد الصالح)	39
ص المدني (أحمد توفيق)	19
ص المدني (عباسي)	40
ص المزالي (محمد الصالح)	24
ص المسعدي (محمود)	29
ص الميلي (محمد)	205
ص النافع (محمد)	24
ص النقاش (محمد الصغير	130
ص أوزقان (عمار)	19
ص أولحاج (محنّد)	180
ص أولحبيب (جغار)	182
ص آيت أحمد (الحسين)	184-180-139-136-67-62-55-21-16-8
ص بالخير (العربي)	40
ص بالسعود (محند عرب)	182
ص براهيمي (عبدالحميد)	87-58
ص بلقاسم (كريم)	180-139-135-66-63-50-18
ص بلقاسم (شريف)	152-136-68-65
ص بلوزداد (محمد)	50
ص بوتفليقة (عبد العزيز)	181-152-138-136-68-65-12
ص بورقيبة (الحبيب)	24-21

ص بوشامة (كمال) 170
ص بوضياف (محمد) 139-136-134-67-66-62-55-50-42-17-8
180
ص بومدين (هواري) 68-67-66-65-63-35-34-33-31-26-25-11
136-135-134-133-106-98-84-79-72-69
147-146-145-144-142-141-140-139-138
158-157-156-155-154-152-151-150
183-181-179-177-175-171-169-161-159
204-185
ص بومعزة (البشير) 152
ص بومنجل (أحمد) 18
ص بيطاط (رابح) 136-55-50-17
ص بيوض (الشيخ) 18
ص حانوز (سيد) 182
ص حربي (محمد) 207-94-83-62-34-15
ص حمروش (مولود) 40-39
ص خيضر (محمد) 180-139-136-67-62-55-21-17
ص خليفاتي (محند أمكران) 182
ص دحلب (سعد) 62
ص ديدوش (مراد) 55-50-17
ص راية (أحمد) 35
ص رحماني (عبد القادر) 182
ص رمضان (عبان) 135-134-63-62
ص زهوان (محمد) 34
ص شاليان (جيرار) 152
ص شعباني (محمد) 67

ص عباس (فرحات) 154-140-136-133-124-66-65-22-21-18-7
205-204-170-169-159
ص غزالي (أحمد) 42-40-11
ص فانون (فرانز) 31
ص فرانس (هنداس) 16
ص فرنسيس (أحمد) 66-18
ص قايد (أحمد سليمان) 66-34-32
ص قيقة (الطاهر) 23
ص مدغري (أحمد) 138-136-68-65
ص مرباح (قاصدي) 170
ص مساعدية (محمد الشريف) 34-32
ص منجلي (أحمد) 66
ص نارون (عمار) 182
ص نزار (خالد) 42
ص هجرس (الصادق) 20
ص وطار (الطاهر) 30-29-28-27-26-25-22-21-13-12-11-9
119-118-117-43-42-40-38-37-36-34-33
157-156-155-151-146-145-143-127-121
185-175-172-171-167-166-165-164-160
203-197-194-193-192-191-190-187-186
210
ص وتّاس (المنصف) 207-171

قائمة المصادر و المراجع مرتبة ترتيبا ألفبائيا

المصادر

إ بن هدوقة (عبد الحميد): الجازية والدراويش، بيروت، دار الآداب، الط1991.2

نهاية الأمس، تونس، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للطباعة والنشر،الط1987.2

القدس العربي ، العدد 10،الطّاهر وطّار: الكاتب والتجربة (الحلقة الثانية)،09 أفريل 2002.

القدس العربي، العدد 11،الطّاهر وطّار: الكاتب والتجربة (الحلقة الثالثة)،10 أفريل 2002.

القدس العربي، العدد13 ،الطّاهر وطّار: الكاتب والتجربة (الحلقة الثالثة)،11 أفريل 2002.

القدس العربي، العدد 12،الطّاهر وطّار: الكاتب والتجربة (حلقة أخيرة)، 12 أفريل 2002.

الكيلاني(عبدالوهاب)موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الج2،

خطب الرئيس بومدين، 9 جوان 1965 – 19جوان 1965، قسنطينة، نشر وزارة الإعلام والثقافة والمنشورات، طبع البحث، الج1، ديسامبر، 1970

وطار (الطاهر): اللاز، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الط1972.3

العشق والموت في الزمن الحراشي (اللاز: الكتاب الثاني)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الط1982.2

عرس بغل، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الط1982.1،رمانة، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الط1981.1

اللوبي المتفرنس يتآمر مع جهات خارجية ضد مصالح البلاد،الروائي الجزائري الطاهر وطار: أنا مع مشروع المصالحة الوطنية ولكنني ضد عدم محاسبة الجنرالات الظالمين.

http://ar.wikipedia.org/wiki %.D8% AE/ A7/D8/B5 : Search

المراجع

أجيرون (شارل روبير): تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، الط 1982.1

البجاوي (محمد): حقائق عن الثورة الجزائرية، الجزائر، دار الفكر الحر، الط1971.1

براهيمي (عبدالحميد): في اصل الأزمة الجزائرية 1957-1999، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الط 2001.1

بن جمعة (بوشوشة): الرواية الجزائرية العربية: أسئلة الكتابة والصيرورة، تونس، دارسحر للنشر، الط 1998.1

بوزيان (سعيد): شخصيات بارزة في كفاح الجزائر (1830-1962) ابرز قادة ثورة نوفمبر 1954، الج3، الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الط 2 ،2004

بوشامة (كمال): جبهة التحرير الوطنية والسلطة (الجزائر 1962- 1992) تعريب جواد صيداوي وحاتم سلمان، بيروت، دار الفرابي، الط200.1

الجابري (محمد الصالح): الأدب الجزائري في تونس، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، الج 1991.1

حربي (محمد): الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، ترجمة نجيب عياد، صالح المثلوثي، الدار البيضاء، دار الخطابي 1988

جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، بيروت، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، الط1983.1

دراج (فيصل) وباروت (محمد) الأحزاب والحركات الشيوعية والماركسية العربية، الج1، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، إشراف الرئيس علي ناصر

الرياحي (كمال): دروب مع الروائي الجزائري الطاهر وطار http://www.doroob.com

سعيدوني (ناصر الدين): الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلالقضايا ومفاهيم تاريخية، بيروت، دار العرب الإسلامي، الط 2000.1

السلمي (جعفر بن الحاج): النص الأدبي مصدرا من مصادر تاريخ تطوان "رواية ما زال طوف" للبيضاء بن الدهان، ضمن تطوان في عهد الحماية (1956-1992)

تطوان، منشورات المجلس البلدي الط 1992

شاليان (جيرار): مصاعب الاشتراكية، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، منشورات دارالطليعة، الط 1.1964.

صيداوي (رياض): صراع النخب السياسية والعسكرية في الجزائر: الحزب، الجيش، الدولة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2000

العريبي (عبد القادر): تونس وعلاقاتها مع أقطار المغرب العربي، 1974 1980، شهادة الدكتورا، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ1999

العقاد (صلاح): المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية، الط1993.6

النفزاوي (محمد الناصر): درس عام ألقاه على طلبة المرحلة الثالثة في كلية الاداب بمنوبة، 2002-2003 بعنوان الثورة الجزائرية عند مختلف التيارات الفكرية السياسية الجزائرية.

الهندي (إحسان): تاريخ المؤسسات الجزائرية، بيروت، دار المدني للطباعة والنشر، 1997

وناس (المنصف): الدولة والمسالة الثقافية في المغرب العربي، تونس، دار سراس للنشر،الط1.1995

http://www.khayma.com/wattar/live/tesrilat/alquds./.newspaper.htm

http://www.bibliothèque.nat.tn/monog/jawla/notice01.htm

الرسائل الجامعية

إبن جدو (موسى): الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، إشراف محمد الناصر، الجزائر، معهد اللغة والأدب العربي 1989-1990

الحاجي (محمد): المسالة البربرية في "المغرب الأوسط" المعاصر،1926-2002، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، منوبة، كلية الآداب، (غ م) 2002-2003

المؤدب (جليلة): ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية، الحبيب ثامر (ت 1949)، وعلي الحامي (ت 1949) ومحمد احمد بن عبود (ت 1949)، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2005-2006 (غ م)

النفزاوي(محمد الناصر): صورة المرأة في بعض أثار عبد الحميد بن هدوقة، شهادة الكفاءة في البحث، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف الأسود (حسن الصادق)

هرسي (عادل): الجزائريون في تونس (1956-1962) ونشاطهم السياسي والثقافي،إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، منوبة، كلية الآداب،(غ م)(2003-2004

المراجع بالفرنسية مرتبة ترتيبا أبجديا

Abbas (Farhat): l'indépendance confisquée, Paris, Flammarion, 1984

Balta (Paul) et Rulleau (Claude): la stratégie de Boumédiéne, Paris, Suindbed, 1973

Benjamin (Stora) : Dictionnaire biographique des militants, nationalistes Algériens,1954-1962 …, Paris, l'Harmattan, 1985

Harbi (Mohamed) : le FLN, mirage et réalité : des origines à la prise du pouvoir(1945-1962), Paris,les éditions J.A,2ème ed,1985

Harbi (Mohamed) : une vie débout : mémoires politiques, 1945-1962, Alger, Casbah, ed, 2001

فهرس الموضوعات

الإهداء	**ص [1]**
شكر خاص	**ص [2]**
التصدير	**ص [3]**
المقدمة	**ص [5إلى12]**
مدخل	**ص[13إلى41]**

القسم الأول: الثورة والفترة البومدينية في بعض مؤلفات عبد الحميد بن هدوقة.

الفصل الأول: الثورة	**ص[42إلى54]**
الفصل الثاني: المسألة السياسية	**ص[55إلى66]**
الفصل الثالث: المسألة الاجتماعية	**ص[67إلى85]**
الفصل الرابع: المسألة الثقافية	**ص[86إلى102]**

القسم الثاني: الثورة والفترة البومدينية في بعض مؤلفات الطاهر وطار

الفصل الأول: الثورة	**ص[103إلى117]**
الفصل الثاني: المسألة السياسية	**ص[118إلى133]**
الفصل الثالث: المسألة الاجتماعية	**ص[134إلى155]**
الفصل الرابع: المسألة الثقافية	**ص[156إلى189]**

خاتمة	**ص[190-191]**
الملحق	**ص[192إلى205]**
فهرس الأعلام	**ص[206إلى211]**
قائمة المصادر والمراجع	**ص[212إلى216]**
فهرس الموضوعات	**ص[217إلى218]**

زهرة بوعلاق، من مواليد1ماي1978، بمدينة الدهماني، ولاية الكاف،
متحصلة على شهادة الأستاذية في
اللغة والآداب والحضارة العربية (2003)، من المعهد
العالي للعلوم الإنسانية والإجتماعية، بتونس.